التقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": حسب الله يحيى

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 409
كانون الثاني: 2020

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
Culture1944@yahoo.com

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:
مجلة الثقافة الجديدة
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد
رقم الحساب: 11153
سويفت كود: MBIVIQBA

بالدولار:
Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment– Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير:
thakafajadida4u@gmail.com

عنوان الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
* أن تكون المقالة او الدراسة او الشعر ... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى او على صفحات المواقع الالكترونية.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير في ما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو أن ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الإلكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
* يجوز للباحث اعادة نشر بحثه المنشور في المجلة شريطة أن يشير الى المصدر عند اعادة النشر.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

8- ندوة "الثقافة الجديدة" حول انتفاضة تشرين الاول 2019 مع المتظاهرين في ساحة التحرير

24- جلسة "الثقافة الجديدة" الحوارية: الشباب.. وانتفاضة تشرين

مقالات

32- مشروع قانون مجلس الإعمار ..... صبري زاير السعدي

42- خصخصة الكهرباء بين الواقعية والتجريب ..... ابراهيم المشهداني

52- العدالة الاجتماعية في العراق بين الواقع والطموح ..... ابراهيم اسماعيل

62- القانون الاساسي لسنة 1925 "الدستور العراقي" واشكالية بناء الدولة العراقية ... جاسم هداد

72- فكر الوقاية.. بين العمل العسكري وحروب الافكار ..... معتز محي الدين

82- الدولة الوطنية والفصائل الحزبية المسلحة ..... لطفي حاتم

87- قراءة في كتاب: موفق جواد الطائي، بغداد جنة مع وقف التنفيذ ..... مصباح كمال

نصوص قديمة

94- بواكير الحركة الوطنية (الحلقة الاولى) في لقاء مع الاستاذ حسين جميل

نصوص مترجمة

114- النقدالماركسي والكينزي للبراليةالجديدة.. لـ (الفريدو سعد- فلحو) ... ترجمة: سوران قحطان

أدب وفـــــن

كلمة"أدب وفن"

126- في البدء"ادب وفن" مسار يتواصل ..... حسب الله يحيى

في الحدث الأدبي والفني

127- رحيل عدنان حسين.. موقف وطني وحبر شجاع

129- (رأي) القاع والقناع: احتباس الوعي بين التاريخ الايديولوجيا ..... ثامر عباس
135- الجواهري وزوربا ..... سامي عبد علي
137- (الصوت الآخر) مئوية إيريس مردوخ.. ماذا تعني لنا الآن؟ ..... ترجمة: أحمد فاضل
139- (قراءات) ما وراء الفرات لمحات من تاريخ العراق الحديث ..... ناطق خلوصي
142- حوار مع الشاعر اللبناني جودت فخر الدين ..... حاوره: مقداد مسعود
147- (تجارب) عفيفة لعيبي: لكي يبدع الفنان.. لا بد ان يكون حراً.
151- (فنون) افونسو كروش: تشريح الفن ..الكتب تنضجنا حسياً وتشكلنا فكريا ... اسلام عادل
155- (غناء)غرابة الاستقرار النغمي في الأغنية العراقية"وعد مني وعد" مثالاً .... تحسين عباس

قصائد

158- ملحمة انكيدو ..... عمر السراي
161- إلى/ الحلة نخلة لن ينالها الظمأ ..... جبار الكواز

قصة قصيرة

163- حب عذري ..... سلام حربه

لوحة الغلاف الأول للفنان فيصل لـعيبي
لوحة الغلاف الأخير للفنان جودت حسيب

كلمة العدد

انتفاضة تشرين الاول 2019.. بين المرتجى والمؤجل

ذات مرة قال لينين: "**قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود**". والواقع أنه في خلال الاسابيع الاخيرة التي مضت وتحديدا منذ انطلاق شرارة احتجاجات الاول من اكتوبر 2019 في بغداد وامتد لهيبها الى محافظات الوسط والجنوب، انقلبت الأوضاع رأساً على عقب وانفتح الفضاء السياسي مجددا على آفاق جديدة تشي بالكثير. فقد شهدت الحركة الاحتجاجية والحراك الواسع الجديد تحولاً مهما ولحظة فريدة في تاريخ البلاد بعد 2003 لترتقي الى مستوى انتفاضة شعبية حقيقية، كما اتخذ هذا التحول والحراك المجتمعي مسارات متعرجة وإشكال مختلفة. وهكذا أعادت الجماهير المنتفضة المعاني إلى الحقل السياسي، محولة النشاطات الاحتجاجية إلى قوة كبيرة قادرة على هز النظام المحاصصي - الطوائفي وإجباره على الاقرار بأحقية مطالب الجماهير الغاضبة، رغم مناوراته ومحاولاته في تشويه الحركة الاحتجاجية والتشويش عليها بدمغها بوجود "مندسين" فيها وذلك بهدف تبرير موجات القمع التي مورست ضد نشطائها والجماهير المحتجة عموما. ورغم كل القمع ومحاولات التشويه والضغوطات والملاحقات التي تعرض لها نشطاؤها وناشطاتها، فان الاحتجاجات لم تتلعثم، بل امتلكت بلاغتها في التعبير عن غضبها، وبلورت شعاراتها ومطالبها العادلة في: تفكيك النظام المحاصصي ـ الطوائفي، ورحيل الحكومة ورئيسها وتحسين الخدمات ومكافحة البطالة وتوفير مناصب عمل جديدة، والقضاء على الفساد واستعادة الاموال المنهوبة، وتحقيق **العدالة الاجتماعية.. والكرامة** .... الخ، التي انتهكها النظام المحاصصي/ الطوائفي/ الإثني.

في الاوقات الحاسمة والفارقة، تلك التي يكون فيها الرهان مسألة وجود، مسألة شعب وقضية وطن، في تلك الاوقات يكون الحياد واللامبالاة صنفا من صنوف الخيانة، ويكون الاعتدال ضحالة والتردد ضيق افق. فالسؤال حينها بسيط وواضح: مع من، ضد من؟ والجواب مباشر: إما/ أو. إما السلطة الغاشمة أو الشعب. ليس هناك من موقف ثالث. أما الوقوف مع الطغمة المستبدة المعزولة والفاشلة، ممن اوصلوا البلاد الى ازمتها البنيوية العميقة هذه، أولئك الذين ثبت تآكل سلطتهم وسلطانهم للقاصي والداني، ومعهما وقبلهما زوال كل اشكال شرعياتهم على جميع صعدها ومستوياتها، أولئك الذين تتعمق عزلتهم يوما بعد آخر، حتى عند ازلامهم وبين مريديهم. او الانحياز الكامل الى الملايين المنتفضة من ابناء الشعب وشبابه في ممارستهم حقهم الدستوري السلمي الديمقراطي، ومشاركتهم ودعمهم في وقوفهم في وجه الظلم والاضطهاد، وفي وجه تردي الاوضاع المعيشية وسوء الخدمات وتزايد نسب الفقر والبطالة، وفي سبيل انتزاع الحقوق وبناء الوطن ودولة المواطنة. فأما الاذعان لسلطة تلك الاقلية واما الانتفاضة. ليس ثمة طريق آخر والتردد مستحيل.

ان الايام والأسابيع التي انقضت من عمر انتفاضة تشرين، وتلك التي ستأتي ستقارن حقا بعقود من حقب قد مضت. فلقد عبّدت الانتفاضة الدرب تجاه مساحات واسعة من الإمكانيات، وفتحت مصاريع الابواب

المغلقة نحو حقبة تغيير ربما سيكون كبيرا لعراق القرن الـ 21. فعيون العالم تسمرت شاخصة الى منتفضي العراق وبطولاتهم وتضحياتهم ودمائهم التي سالت وهم يسعون جاهدين لصياغة غد افضل لبلدهم ولشعبهم. فالعراقيون الذين دحروا داعش وقوى الارهاب وحرروا الارض، يتقدمون اليوم نحو تحرير البلاد من نهج المحاصصة السياسية ومن جائحة الفساد. وشعارات المنتفضين لم تعد محصورة بقضايا خدمية وتوفير فرص عمل، على أهميتها، بل فرضت على جدول الاعمال موضوعة التغيير الشامل. وطرحت هدفها المباشر كخيار وحيد، وهو الخلاص من نهج المحاصصة وشخوصه ومنظومته الحاكمة. كما ان الانتفاضة افرزت واقعا جديدا، وفرضت ميزان قوى جديدا لا يرتبط بأي شكل من اشكال الاصلاح الفوقي السابق، تلعب فيه الجماهير الشعبية دورا رئيسيا. فلم يبق في عموم البلد طبقة ولا فئة او شريحة اجتماعية لم تتفاعل مع الانتفاضة سلبا او ايجابا. ونادرة هي تلك المجالات الحياتية التي لم تمسها رياح بل عواصف الانتفاضة. فمن الخطأ التصور ان حجم الانتفاضة ينحصر فقط في الملايين الذين تجمعوا ويتجمعون في ساحات الاحتجاج والاعتصام. فهؤلاء يتفاعلون مع عمق اجتماعي واسع. فالانتفاضة، في نهاية المطاف، هي انتفاضة غالبية أبناء الشعب ضد أقلية معزولة تريد استمرار هيمنتها وحكمها عبر القمع والقتل. فلقد انحازت غالبية النقابات والاتحادات والمنظمات اليها، وشاركت المنتفضين في مطالبهم السلمية المشروعة. وكان للمساهمة المتميزة للطلبة في الانتفاضة وقعها الخاص في نفوس المنتفضين والعراقيين جميعا. فمشاركتهم واضراباتهم ساهمت كثيرا في رفع المعنويات وفي رص الصفوف. ورغم جميع الضغوطات والمضايقات التي مورست كان للموقف المشرف الذي وقفته نقابة المعلمين مأثرة بارزة، ساهمت في تدعيم ورص صفوف الطلبة للمضي في حراكهم. كما انحازت للانتفاضة اعداد كبيرة من ابناء العشائر والتجار، وقدموا لها الدعم والحماية.

ان انتفاضة تشرين تعد حدثا فارقا وهائلا في تاريخ العراق المعاصر. له ابعاد سياسية واجتماعية واقتصادية كبيرة. لكنها وفي ذات الوقت تعتبر تتويجا رائعا لمسيرة طويلة من النضال السياسي والمجتمعي. فهي لم تكن ابدا مفارقة تاريخية او حدثا يقع خارج سياق خيوطه، محركة من بعيد. فباستثناء "البعض" المتضرر يؤمن غالبية العراقيين انها لم تكن ابدا نتاج مؤامرة خارجية. بل ويكاد الجميع يدرك انها جاءت امتدادا فعليا لحراك اجتماعي ومطلبي وسياسي وفكري متنوع ومتنامي، امتد لفترات طويلة. بل ان جذورها الفعلية تمتد في عمق تأريخ العراق منذ تأسيس الدولة العراقية سنة 1920. فسعي العراقيين مستمر دوما، مهما خبا احيانا بفعل الدكتاتورية والقمع، للخلاص من ربق التخلف والتبعية؛ ونضالهم الدؤوب في سبيل التحرر الوطني والديمقراطية الحقيقية والعدالة الاجتماعية لم توقفه، مهما عُرقل او انكفأ أي ثورة مضادة او احتلال.

ان اعادة بناء الهوية الوطنية الجامعة الذي تحقق على ارض الممارسة العملية، على ارض الاحتجاج والاعتصام يعد احد ابرز انجازات الانتفاضة وانتصاراتها، في حدث لا يدانيه في عظمته وأهميته إلا ثورة العشرين التي كانت المساهم الابرز في تشكيل الهوية الوطنية العراقية الحديثة. فلقد اعادت الانتفاضة الاعتبار لمبادئ المواطنة والوطنية في مقابل الانتماءات الضيقة والهويات الفرعية، للتشارك في الهم والوجع والوقوف معا امام الظلم، للتمسك بالبلد وسيادته واستقلاله على حساب الارتباطات الخارجية.

لكن يبقى من المهم دائما التأكيد على ان انتفاضة تشرين وبسبب خصائصها ومميزاتها والظروف والملابسات التي رافقتها، تتطلب التمييز بين ما حققته لحد الآن، وما ستحققه لاحقا، وبين مآلاتها القادمة وتحولاتها ونتائجها البعيدة المدى. فأفقها مفتوح امام تحولات وامكانيات متعددة ومسارات متنوعة.

لقد فشل القمع ومراهنات الائتلاف الطبقي الحاكم، ولَم يدفع القمع والقتل والترهيب إلا الى رفع وتيرة إصرار المنتفضين على نيل حقوقهم كاملة، وتعاظم التعاطف والدعم لها. فعلى درب الشهداء سيمشي المنتفضون، وعلى خطى الجرحى والمعتقلين والمختطفين ستسير الانتفاضة، وستنتصر حتما. فتحية لهم.. يوم انتفضوا، ويوم ينتصرون، ويوم يبعثون الغد الافضل.

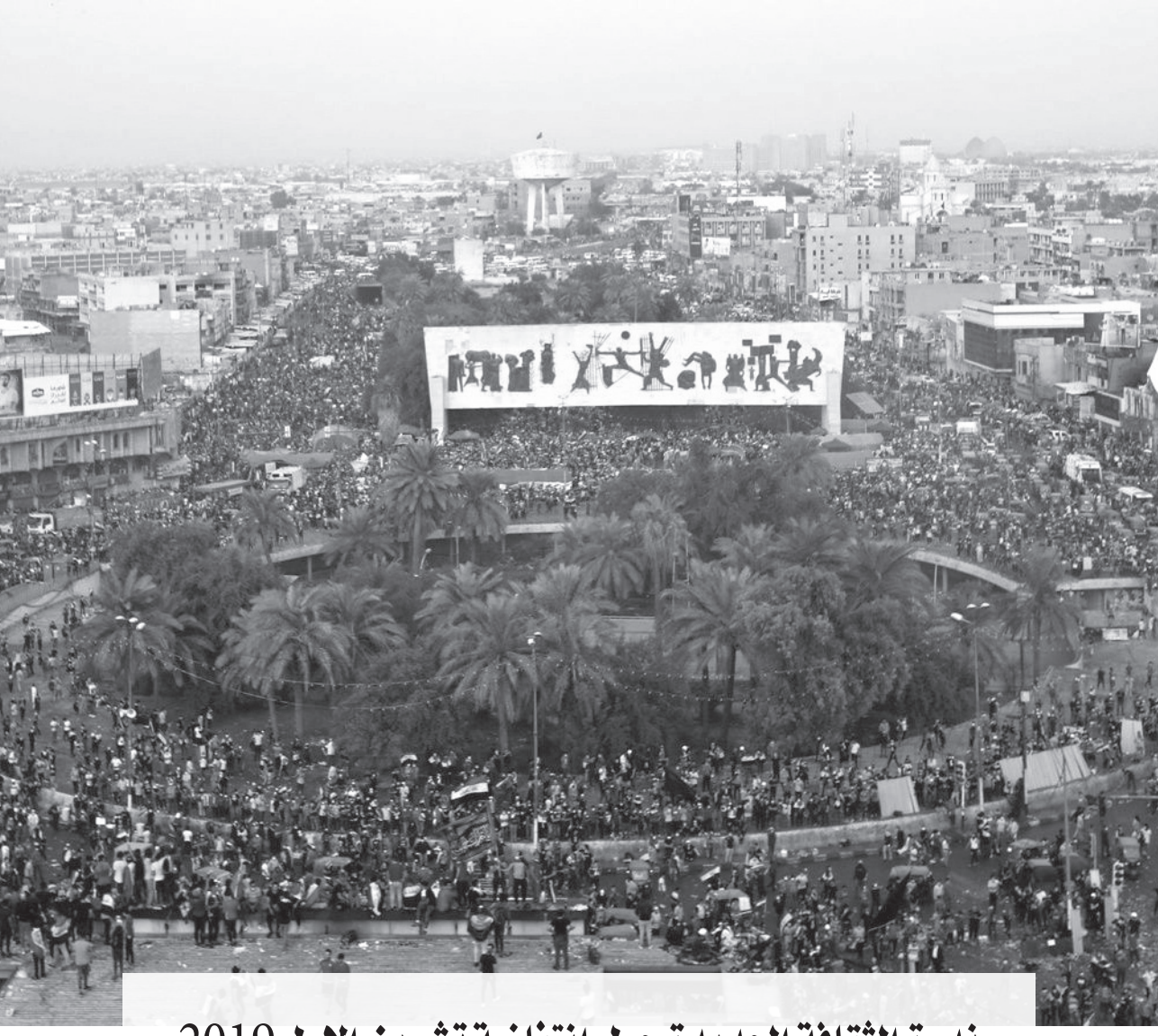

ندوة الثقافة الجديدة حول انتفاضة تشرين الاول 2019

مع المتظاهرين في ساحة التحرير:
كيف عرفت؟ لم تظاهرت؟ ماذا حدث؟
وماذا تحقق؟

(الغيرة) كلمة ترددت كثيرا في ندوة مع 25 متظاهرا عراقيا عقدت في خيمة في (ساحة التحرير) يوم 28 /11 /2019. لم تكن الكلمة واضحة لنا نحن الذين حضرنا الندوة التي نظمتها مجلة (الثقافة الجديدة) في خيمة تحت نصب الحرية في ساحة التحرير. متظاهرون من مختلف الشرائح والمواقع، بعضهم يرتدى الاقنعة السوداء، ليخفي شخصيته خوفا من الاختطاف بعد مغادرة ساحة الاعتصام، وطلب آخرون أن يغادروا مبكرا لأن هناك مناوشات على جسر السنك وحان وقت مناوباتهم على الحاجز الأمامي.

كلمة (الغيرة) لم تكن واضحة لنا في بداية الندوة. لكنها توضحت في سياق الحديث. أغلب المشاركين كانوا عاطلين عن العمل أو كسبوا رزقهم بأعمال لا تناسب دراساتهم أو طموحاتهم. بينهم من ترك الدراسة ليعمل بائع شاي، أو صار حمالا في علوة خضراوات. خريج هندسة عمل نجارا.. الأغلبية خرجوا للتظاهر من أجل العمل، لكن خلال التظاهر وبعد 25 تشرين الثاني، حدث انعطاف حاد في معنى الغيرة ودوافعها (عندما سقط صديقي وعمره 17عاما وسط الجسر. بعد ان أطلقت عليه النار وهو يلوح لهم بالعلم ويهتف: سلمية!) تغير شيء في داخل هذا المتظاهر الشاب. شعر إن الوطن يهان. "ما فائدة أن أحصل على عمل، في وطن مهان!؟" صعدت الغيرة في داخلي عندما رأيت كيف تعاملوا مع ذوي الشهادات، أساتذة ودكاترة ومهندسين، رشّوا عليهم ماء حار. ما من وطن محترم يُعامل أبناؤه بهذا الشكل المهين. عبارة (أريد وطن) حلت محل (أريد عمل) وعندما أقول (أريد وطن أعني أريد وطن حق، وليس وطن منتهك يتدخل الكل في شؤونه)، خرجنا للتظاهر بسبب الخوف من المستقبل في بلد كل معامله متوقفة ويعتمد كليا على عائدات النفط. ماذا سيحصل إذا توقف النفط؟!

خلال الاعتصام في الساحة وقد دخل شهره الثاني حدث تحول كما يكشف المتحدثون. تضامن وتعاون خلقي عابر لكل الطوائف والتفاوتات وصفته ساره "اصبح بيني وبين هذا المكان (ساحة التحرير) ارتباط قوي، مصدره ما رأيته ولمسته من تعاون والفة وتكاتف بين اشخاص لا يعرف بعضهم بعضا، ولا تربط بينهم اي صلة اجتماعية... كانت هذه المرة الأولى التي ينبثق فيها هذا المستوى العالي من الوعي عند الشعب العراقي، ويتجاوزون اختلافاتهم الاثنية والطائفية... الغيرة الوطنية التي تتشكل عند زيارة هذا المكان والتي تجعل من المستحيل ان يحضر شخص الى هذا المكان دون ان يبقى ويلتصق به".

الندوة ركزت على نقاط عدة:

أصل المتظاهر، العمر والدراسة والوضع الحياتي، كيفية المعرفة بالتظاهرة، كيفية التحاقه بالتظاهر، الدافع وتغير الدافع، ماذا تغير فيه بعد التحاقه واعتصامه في الساحة، كيف يرى تغير الأمور مستقبلا. العينات تراوحت بين (عاطل عن العمل، حمال، سائق تكتك، مهندس، طبيب) وأعمار تتراوح بين ١٥-٣٥ عاما، غالبيهم من سكنة بغداد. ووجدنا أن وسائل التواصل الجديدة كانت وسيلة الإعلام بموعد ومكان التظاهر، وإن قرار المشاركة اتخذ في الغالب ضمن الجماعة، في المحلة أو العمل. التوقعات أجمعت على الاستمرار حتى تحقيق الأهداف. اختلفت الأهداف، لكنها اجتمعت تحت الشعار البسيط الصعب (أريد وطن)!

من هم المتظاهرون/ أحوالهم وخصائصهم؟

زيون: 22 عاما من سكنة الكمالية في بغداد، الحالة الاقتصادية (ضعيفة) كما يصفها، فقد اضطر لترك الدراسة وهو في الثالث المتوسط، للعمل بعد عجز والده. تنقل من سائق عربة (توك توك) الى عامل في مطعم:

- التحقت بالتظاهرات مع مجموعة من شباب المنطقة في يوم 10/25 ونصبنا سرادقا في ساحة التحرير كان أول موكب ينصب في يوم 25 تشرين.. بعد أن دخلت للساحة لم أتمكن من مغادرتها. من يأتي الى ساحة التحرير لا يستطيع مغادرتها. فقدت صديقي ولم أعرف خبرا عنه منذ عشرة ايام. بحثت عنه في مقار الحشد الشعبي والاحزاب وقوات مكافحة الشغب، لكني لم أجد له اثراً. احدهم اخبرني قد يكون في مقابر سامراء!

سجاد من الراشدية، خريج ثالث ابتدائي. عمل حمالا ثم عامل بناء، ثم بائع شاي في الشورجة، واخيراً اشترى عربة توك توك، ويعمل عليها حتى بداية المظاهرات في يوم 10/25:

- سمعت بوجود مظاهرات في منطقتي الحسينية. كان الناس يتحدثون عن وجود مظاهرات في ساحة التحرير تبدأ في يوم 10/25 فخرجت من منطقتنا بصحبة 50 آخرين من سواق عربة التك تك، كنا نأتي الى ساحة التحرير، ثم نعود الى بيوتنا، ومنذ عشرة أيام لازمنا موقعنا هنا، ولم نذهب الى منطقتنا. ومهمتي هي نقل الجرحى.

بكر الزبيدي، في الثلاثين من العمر، مقيم في المانيا منذ سنوات، وعاد الى العراق قبل شهر ليلتحق بتظاهرات 10/25:

- كنت اعمل مع والدي الذي كان خبيراً وملماً بالروحانيات وقراءة الطالع، ويعمل في هذا المجال منذ فترة طويلة، وقد كان عمل والدي يدر علينا ربحاً معقولاً، غير ان الوضع تغير كثيراً بعد وفاة والدي وقبل ثلاث سنوات بالتحديد؛ اذ فقدنا مصدر رزقنا (قراءة الطالع). لم تكن هناك فرصة عمل، فشعرت بالذل بسبب الفاقة. سافرت الى المانيا، وبقيت هناك ما يقرب السنة والنصف. لكن

بعد ان سمعت من مواقع التواصل عن التظاهرات، قررت العودة الى العراق والمشاركة في التظاهرات.

فاضل باقر: بغداد ـ شارع فلسطين، بكالوريوس ادارة واقتصاد، وموظف في شركة (زين) سابقاً، الحالة المادية جيدة:

- منذ عام 2017 وانا اشارك في التظاهرات.

امير: من مواليد 2001، طالب في السادس العلمي، وحالته المادية (جيدة) كما يصفها. لدى والده محال تجهيزات رياضية في منطقة حافظ القاضي:

- خرجت للمشاركة في المظاهرات التي بدأت في 10/1 ويستدل على الحدث بواقعة قنص المتظاهرين (عندما قام القناص بضربنا). خرجت بعد مشاهدة منشور على فيسبوك، يصور عمليات قمع الطلاب المتظاهرين امام معهد النفط في بغداد، للمطالبة بحقوقهم ومحاولة تفريقهم بالماء الساخن والقنابل المسيلة للدموع. واثارني مشهد الطالبة التي احترقت بالماء الساخن. عُدت الى التظاهر في يوم 25، بعد ان توقفت تظاهرات 10/1، وما شجعني هو الدعوات والتحشيد على موقع التواصل الاجتماعي.

محمد، من سكنة بغداد في الثلاثين من العمر، يعمل في مجالات متعددة، فهو (متعدد المواهب) كما يصف نفسه، ويستطيع انجاز اعمال كثيرة، وهذا ما جعل وضعه المادي جيدا، بسبب اتقانه العديد من الاعمال، ومع ذلك يقول محمد بانه لا يملك شبراً في بلده.

الدكتور احمد الغراوي (طبيب من بغداد، في الثلاثين من العمر):

- مثل اي شاب كانت لدي حياتي العملية والدراسية، وكنت ازاول عدة هوايات. وقبل ان اتخرج من كلية الطب واعمل في مجاله، عملت مصورا فوتوغرافيا. كانت تظاهرات 10/1 تشرين، هي اول مشاركة لي في الاحتجاج.

مصطفى: من سكنة الدورة في بغداد حي الصحة، ويعمل حمّالا في علوة الرشيد، وقد ترك الدراسة قبل ان ينهي المرحلة المتوسطة للمساعدة في اعالة عائلته، بعد ان توقف الراتب التقاعدي الذي كان يتقاضاه والده في العام 2017. قبل مشاركته في التظاهرات، عاش في بيت عمه ثم حدثت مشاكل بينه وبين اعمامه دفعته لمغادرة منزلهم والمبيت في علوة الخضار التي يعمل فيها. مصطفى كان يعمل حارسا في احد مقرات الاحزاب، مقابل 400 الف دينار عراقي كل شهر، إلا ان ادارة المقر الحزبي قامت بفصله دون ان يعرف السبب، حيث خسر وظيفته في ذلك الوقت. وبعد ان بدأت التظاهرات وبينما كان يمر من امام المقر الحزبي (الذي لم يذكر اسمه)، طلب منه الشخص الذي اصدر امر فصله من عمله بالعودة الى العمل، فاجابه بسرعة (لا عمي)، علماً والحديث لمصطفى ان راتبه كان 400 الف دينار:

- شاركت في تظاهرات 10/1 ثم عدت والتحقت بها مرة ثانية عند انطلاقها في 10/25، ومنذ ذلك الحين وأنا في ساحة

التحرير. لا اريد العودة الى حياتي السابقة. "شاركت بالمظاهرات لان شفت ظلم شفت عالم جاي تروح" (أي تموت). كنت انظر الى المتظاهرين العزل الذين لا يحملون سوى الاعلام، يركضون صوب الخضراء. كنت اقول لهم قوات الامن مسلحة وانتم غير مسلحين سيضربونكم.. ستموتون ويجيبون علىّ (يا معود الله موجود).

علي حسين، من سكنة المدينة (مدينة الثورة)، تخرج في العام 2006 من كلية الهندسة، قسم المعمار، يعمل نجارا، واحياناً عامل بناء:

- خرجنا نحن مجموعة من 25 شابا بعد ان سمعنا في مواقع التواصل الاجتماعي عن مظاهرات يوم 10/1. أحد اصدقائي المشاركين في التظاهرات قام ببيع سيارته، لكي يتمكن من تقديم خدمات للمتظاهرين. ومن ثمن هذه السيارة يدير الآن خيمة في ساحة التحرير، ويتساءل محمد اي غيرة يحملها هذا العراقي الذي يبيع سيارته ومصدر رزقه الوحيد، لكي يستطيع ان يقدم للمتظاهرين بعضا مما يحتاجونه. خرجنا مرات عدة نطالب بحقوقنا وفرص عمل، ولم يهتم احد لمطالبنا. خرجنا يوم 10/1 الى ساحة التحرير للمطالبة بحقوقنا، بعد ان سمعت عن التظاهرات من خلال مواقع التواصل الاجتماعي. نريد لهذا الشباب الواعي فرص عمل (تعيين)، نريد له مستقبلا، نريد له حياة كريمة. استقبلتنا الحكومة بالقناص والقنابل الصوتية والدخانيات.. هذا جعلنا مصرّين على البقاء والاعتصام هنا.

محمد سلمان السعيدي من محافظة ديالى. خريج كلية الطب من جامعات اوكرانيا. يعمل طبيبا براتب يصل الى 2000 دولار شهرياً. يصف دكتور محمد اللحظة التي قرر فيها الخروج للتظاهر:

- كنت ادرس في دولة فقيرة جداً مقارنة بالعراق، وهي اوكرانيا لكنها تتفوق على العراق في تطورها وتنميتها بما يقرب المائة عام.. الناس الذين استلموا الحكم وجاءوا على ظهر دبابة امريكية والذين دخلوا العراق من الحدود الايرانية، هؤلاء دمروا بلدنا. وأهم المفاصل التي عملوا على تدميرها هي التعليم، فاذا اردت ان تدمر بلدا ابدأ من نظامه التعليمي.

منتظر، متظاهر من مواليد 2004، سكنة الاعظمية، وهو طالب في مرحلة الثالث المتوسط. والده طبيب واخته طبيبة ايضا، رافق اخاه وهو خريج كلية العلوم، وعاطل عن العمل للمشاركة في يوم 28 /10 أي بعد 3 ايام من بدء التظاهرات، ثم التحق بهم باقي افراد العائلة، ومنذ ذلك الوقت وهم مستمرون في ساحة الاحتجاج. رغم صغر سنه الا انه بدا معترضا على تصنيف وتجزئة المطالب وتعددها من تعيين الى تحسين الواقع الخدمي، داعيا الى توحيد المطالب ضمن لافتة او عنوان اكبر هو "نريد وطن"، فهي في نظره تلخص جميع المطالب التي ينادي بها اغلبية المتظاهرين، وهو الشعار الضامن لتوفير فرص العمل وتحسين الوضع المعيشي لجميع العراقيين.

فيان الشيخ علي، ناشطة مدنية معروفة، وحقوقية، خريجة كلية القانون، شاركت

في العديد من التظاهرات منذ 2014، ما بين تظاهرات وتجمعات ووقفات احتجاجية للمطالبة بالحقوق:

- كان دائما لدينا قضايا مطلبية، نتظاهر ونتجمع من اجلها، ابتداء من 2010، وتتوقف فيان عند التظاهرات التي حدثت في العام 2015 التي شاركت فيها باندفاع قوي، الا انها اضطرت للانسحاب منها بعد ان تصدرت اطراف سياسية مشاركة في الحكومة ومتورطة بنظام المحاصصة الذي خرج المتظاهرين للمطالبة باسقاطه وتجيير هذه التظاهرات لصالحها. لم اشارك في تظاهرات 10 /1 /2011 لأني لم اكن متواجدة في بغداد. لكن ما دفعني للمشاركة والعودة الى التظاهر في يوم 10/25 هو القمع والاضطهاد والعنف الذي تعرض له المتظاهرون يوم 10/1 والايام التي تلتها.

المسعف ياسر عمار، عمره 24 سنة يعمل في وزارة الصحة، خريج تحليلات مرضية. يعمل مسعفا في مفرزة طبية في ساحة التحرير مع 5 من زملائه الذين يتناوبون العمل داخل هذه المفرزة:

- خرجت للتظاهر يوم 10/25 وكان قراري فرديا ليس بدعوة من احد، وكنت أنوي الخروج منذ بدات التظاهرات في 10/1، غير ان أبي منعني من المشاركة. في يوم 10/25 قررت الخروج الى التظاهرة مما اثار غضب ابي، لكنني تركته وخرجت قلت له "ما بيها مجال بعد لازم اطلع".

سارة، من سكنة بغداد، المهنة صيدلانية، مواليد 1995 تعمل الآن مسعفة للمتظاهرين في ساحة التحرير، تتحدث بصوت مبحوح، بعد أن فقدت صوتها بسبب استنشاق دخان القنابل المسيلة للدموع:

- التحقت بالمظاهرات في يوم 30 /10 والايام التي تلتها، مثلي مثل اي مواطن يرى الخلل والمشكلات "كمية الاخطاء" التي يعاني منها الوطن، حيث من الضروري ان ننبه على الاخطاء وننادي بتصحيحها. ولكن (تتحدث سارة) بعد ان رأيت الناس هنا من جهة، ووجدت في نفسي القدرة على تقديم شيء لهم بوصفي صيدلانية من جهة اخرى، تطوعت هنا للعمل كمسعفة.

رؤى خلف، 32 سنة، بكالوريوس محاسبة، تعمل محاسبة من سكنة المنصور في بغداد:

- عرفت بتنظيم التظاهرات في يوم 10/1 من خلال وسائل التواصل الاجماعي. لم اشارك في أول يومين من تظاهرات 10/1. كانت لدي مخاوف من طبيعة هذه التظاهرات ومطالبها، ولم اكن اعرف شعاراتها ومن سيشترك فيها، لكنني في اليوم الثالث قررت الانضمام الى المتظاهرين. وكنت المرأة الوحيدة التي تصل الى ساحة التحرير في تلك الانتفاضة، بسبب العنف الذي رافق تلك التظاهرات. كان هناك ضرب رصاص حي. وردة فعل قوات مكافحة الشغب والقوات الامنية الاخرى "غير الانسانية".

ايناس جبار، مهندسة كيماوية، تخرجت من الجامعة التكنولوجيا في الثلاثين من العمر، موظفة في وزارة العلوم والتكنولوجيا، وناشطة مدنية، وتعمل في احدى منظمات المجتمع المدني.

- لم اشارك في مظاهرات 10/1 بسبب العزلة والتعتيم الاعلامي وانقطاع الانترنت الذي لم يسمح لنا بمعرفة مايجري في هذه التظاهرات. وبعد عودة الانترنت ونشر الفيديوهات الماسأوية حول ماتعرض له المتظاهرون من قمع وتقتيل برغم بساطتهم وسلميتهم، فجعتني هذه المشاهد وآلمني كثيرا تساقط المتظاهرين وموتهم بلا ذنب ارتكبوه. لقد اكدت لي هذه المشاهد ان الشهداء وارواح الناس لا قيمة لها عند الحكومة، التي تقتلهم بدم بارد. التحقت بصحبة زوجهي وطفلي الاثنين بالحركة الاحتجاجية التي بدأت في 10/25. في الايام الاولى، كُنت اسمع عبارات من بعضهم، تطلب مني الرجوع على اعتبار ان التظاهر واجب الرجال ((أنتِ شجابك هذا واجبنا احنا الرجال احنة ندافع عنج)) كان هذا من باب الخوف والغيرة عليّ.. وطيلة فترة تواجدي هنا لم اسمع بحالة تحرش واحدة او اساءة صدرت من احد المتظاهرين تجاه اي امرأة. ولم اسمع عبارة نابية او سلوكا سيئا صدر من اي متظاهر. لقد أصبحنا اسرة واحدة وشكلت التظاهرات لحمة بين الناس، عجز السياسون عن خلقها، طوال فترة حكمهم، بل العكس عملت اجنداتهم على زرع الفرقة بيننا.. هذه هي صورة العراقيين الحقيقية.

محمد جمال، من سكنة مدينة الصدر ، تولد 1999، يعمل حمّالا في منطقة الشورجة:

- انقطعت عن العمل من 10/25 للالتحاق بالتظاهرات، حاول والدي منعي من المشاركة، لكنني خرجت رغماً عنه، ورغم كونه مريضا. رأيت هنا اخوتي المتظاهرين، ولا اريد ان اتركهم واتراجع عن التظاهر.

يتحدث محمد عن التحديات التي يواجهونها في الخطوط الامامية من ساحة الاحتجاجات، وما يشهدونه من قمع في محاولة لتفريقهم، من غازات مسيلة للدموع، واطلاقات حية، وتحدث عن رفيقه الثاني الذي اصابته اطلاقة في رأسه في الطوابق العليا من المطعم التركي (جبل احد) أدت الى سقوطه، ورغم ذلك لم يتراجع. مهمته في ساحة الاحتجاج الآن تقديم الدعم للمحتجين في الخطوط الامامية، ونقل ما يحتاجونه من لوازم، خوذ، أغطية، وجبات غذاء.

متحدث آخر رفض ذكر اسمه، من مواليد 1996، من منطقة الغزالية، يعمل مع والده الذي يملك محلا في حي الصناعة، ووضعه الاقتصادي جيد، بحسب وصفه.

- في 10/1 قررت الخروج الى التظاهر، بعد ان سمعت بوجود تظاهرات من خلال مواقع التواصل الاجتماعي، قررت ان أخرج (كَلت لازم اطلع أني من اجل التغيير). في البداية اعترضت والدتي على مشاركتي، ولكن والدي اقنعها بضرورة مشاركتي (قال لها إذا احنه ما نطلع وابني ما يطلع كيف سنتكاتف مع الشعب. لازم يطلع. خرجت مع اخوتي الستة، وبعد ان توقفت التظاهرات في 10/5 قررنا ان نخرج ثانية بعد استئنافها في يوم 10/25.

بدون ذكر اسم، مواليد 1995، من مدينة

الصدر، ويعمل حمّالا داخل الاسواق، مع ذلك اقول عن الوضع المادي (ماشي حالنا):

- سمعنا بان هناك تظاهرات ستنطلق في 10/25، كنا ستة شباب اصدقاء من منطقة واحدة، فقال احدنا: غداً مظاهرات، ألا نذهب؟ فوافقنا على اقتراحه وقررنا التوجه الى ساحة التحرير. بقينا كمجموعة، إلا ان احدنا سقط شهيداً، فقررنا البقاء ومنذ ذلك الوقت ونحن معاً مرابطون في ساحة الاحتجاج. نحن هنا من اجل عراق جديد.. عراق لا يحكمه الفساد والاحزاب.

لماذا خرجنا؟

- زيون: الغيرة هي التي دفعتي للمشاركة في المظاهرات. يصف زيون مفهوم الغيرة وهو يشير الى صدره "مثل اشتعال النار في الصدر". الغيرة على الوطن المستباح الذي أخذ منا ولا نملك القدرة للسيطرة على مقدراته. ويشبه هذا الموضوع بالبيت (بيتك الذي أخذ عنوة وكل من هب ودب يستبيحه ويأخذ ما بداخله)، ويضيف (ليس لدينا في البلد قائد وكل من في الحكومة تابع لدولة ما وغير مهتم بمصير العراق وكأنه باع الوطن وليس لهذا البلد أية اهمية بالنسبة له. خرجنا لاننا نريد رئيساً يخدم العراق يمتلك الغيرة ويكون عراقيا في اصله لا يتبع دولة أخرى).

علي حسين: نحن لا نخاف من القنابل التي يطلقونها ولا نخاف من الموت، فنحن موتى اصلاً. مسلوبة حقوقك مسلوبة شخصيتك، مسلوب احترامك.. أبسط شيء جوازك لا يعترف به احد. إضافة إلى الوضع الذي يمر به العراق والذي ترونه جميعاً، من فقر وبطالة وبنية تحتية منهارة بالكامل. هناك عوائل من أصدقائنا واقاربنا لا يوجد لديهم اي مصدر للمعيشة.. هذا الواقع هو ما دفعني للمشاركة في التظاهرات وانتم ترون بأعينكم الملايين من الناس التي خرجت للاحتجاج وجميعهم خرجوا بسبب الحيف والظلم والواقع (كلها طلعت من ضيمها). وصلت الامور ببعض الشباب الى الانتحار في المدينة وحالات انتحار الشباب سببه عدم قدرتهم على توفير احتياجاتهم وعدم توفر الفرص لتحقيق حاجاتهم. الشاب يعمل مقابل 20 او 25 الفا ينفقها على عائلته التي لا تملك اي مورد للرزق، فلا يبقى له مايسد به احتياجاته الشخصية من ملبس وترفيه. بالمقابل ترى البرلمانيين وتصريحاتهم. ايضا ما تصرح به الحكومة حول وجود طرف ثالث هو دليل آخر وسبب يجعلنا نصر على التغيير والثورة، فهل يعقل ان تكون هناك دولة لا تعرف من يقوم بقتل المتظاهرين. هذه الامور وغيرها كثيرة منذ 2003 لم تحقق الحكومات اي شيء، لم يقوموا برصف شارع او اعمار منطقة سكنية، او منح رواتب للفقراء او للعاطلين عن العمل او للنازحين.. ماذا فعلت الحكومة للشعب؟ ما الذي قدمته؟

بكر: قمع التظاهرات التي بدأت في 10/1 وقتل المتظاهرين هو ما دفعني للعودة والمشاركة في انتفاضة 10/25. تألمت كثيراً وانا ارى الناس يقتلون ومنذ

يوم 25/ اكتوبر وانا هنا في ساحة التحرير رغم تعرضي للاصابة.

فاضل: هناك عدة اسباب تدفع للتظاهر، منها المقارنة بين العراق وبين الدول التي سافرت اليها. موقع العراق ضمن تسلسل الدول يقع دائماً ضمن الدول الفقيرة مثل الصومال، في حين ان العراق بلد غني ولديه حضارات تصل الى آلاف السنين، ولا ينبغي ان يكون تصنيفه ضمن الدول الاكثر فقراً والاسوأ عيشاً. نريد ان نستعيد مكانة العراق ونرتقي بمستواه الى البلدان المتقدمة. عندما كنت في روسيا سألني رجل عن البلد الذي اتيت منه فاخبرته انني من العراق، فاجابني انتم اصحاب صفقة الاسلحة الفاسدة مع روسيا؟ اجبته بان روسيا ايضاً متورطة في هذه الصفقة، فأجابني لكننا في روسيا بدانا بمحاكمة المتورطين في هذه الصفقة، بينما انتم لم تحاسبوا فاسديكم.

أمير: يمكنكم القول ان الغيرة هي التي دفعتنا للخروج يوم 10/1 من أجل الطلبة (ويقصد الخريجين) الذين تعرضوا للضرب والقمع. مطالبنا في البداية اقتصرت على ايجاد فرص عمل وتعيين لهؤلاء الطلبة والخريجين. لكن بعد ان قاموا بقمع تظاهراتنا واستخدموا القناص لقتلنا، وسقط منا العديد من الشهداء، قلنا لا نريد منكم (ويقصد الحكومة) شيئا. مطلبنا الاهم هو ان تسقط هذه الدولة (ويقصد الحكومة). نريد دولة جديدة يحكمها شخص عراقي دون تدخل دول الجوار. القرار في العراق حالياً ليس لنا ولا نملك سيادة، وتسلسلنا بين دول العالم في نهاية القائمة، والجواز العراقي هو اسوأ جواز في العالم، في وقت يعد العراق من البلدان الغنية، وهذا يعني ان (خيرنا لغيرنا).

الدكتور احمد الغراوي: ما دفعني للمشاركة في هذه التظاهرات هو الواقع الذي لمسته ورأيته.. واقع المهن الصحية في العراق، واقع المستشفيات، والواقع الصحي العام. اضرب مثلاً حادثة وقعت قبل اندلاع تظاهرات 10/1 والمتمثلة بعدم توفر جهاز الناظور في مستشفيات الديوانية، دفع الى خروج تظاهرات لاصحاب المهن الصحية للمطالبة بتحسين الواقع الصحي. وقد كنت احد المتابعين لهذه التظاهرات. بعدها مباشرة خرجت تظاهرات 1 تشرين، وكنت اول مسعف في هذه التظاهرات.. بدأت هذه التظاهرات في الصباح طبيعية الى أن حل الغروب عندما فتحت قوات مكافحة الشغب والقوات الاخرى الأعيرة النارية والغازات المسيلة للدموع وغيرها وبشكل غير مسبوق، كانت اعداد الشهداء والجرحى كبيرة جدا. في اليوم الثاني والثالث من تشرين، حاصرتنا قوات امنية في البتاوين وحاولت اعتقالنا. مثل الاخرين انتقلت للتظاهر داخل منطقتي، عندما تحولت التظاهرات الى داخل المناطق، وبقيت حتى خمدت تظاهرات 1 تشرين. عندما انطلقت تظاهرات 10/25 عدت للعمل كمسعف وطبيب ميداني، ثم التحقت بالمفارز الطبية في ساحة التحرير. كانت اهم اهدافي ودوافعي للمشاركة في التظاهرات هي

تحسين الواقع الطبي والصحي، ولكن بعد ان شاهدت المتظاهرين وعشت معهم تولد لدي شعور آخر وتحولت دوافعي. ادركت أني يجب ان اقف الى جانب مطالب اخوتي المتظاهرين، من لا يملك فرصة عمل اطالب معه بتوفير فرصة عمل او وظيفة. لكني ادركت بعد ذلك ان هذه المطالب لا يمكن ان تتحقق بدون اجراء تغييرات في مفاصل أخرى من الدولة. لست خبيراً في القضايا الاقتصادية لكن تواجدي في التظاهرات جعلني ادرك أن توفير فرص عمل لا يأتي بقرار من الحكومة يقضي بتعيين الخريجين او العاطلين. ولكن يجب ان تبنى على اسس صحية اولها تقليص وتخفيض رواتب المسؤولين في (السلطة التشريعية والتنفيذية) فهذا من شأنه ان يوفر مبالغ كبيرة، يمكن صرفها كميزانية تشغيلية للموظفين الجدد. من جهة اخرى استقرار البلد من الناحية الامنية بعد القضاء على داعش، يدعو الى التفكير في تحسين وتنمية الواقع الاقتصادي للبلد، فالمشاريع الاقتصادية والتنموية بإمكانها ان توفر فرص عمل للعاطلين عن العمل، وكل مشروع سيوفر وظائف عديدة لجميع فئات الشعب وبمختلف مستوياتهم التعليمية. كانت هذه اهم مطالبنا. وما شهدناه من ظلم على مدى 16 سنة وعلى يد الحكومات المتعاقبة فأن مطالبنا تحولت الى تغيير النظام من برلماني الى نظام رئاسي. نريد شخصا واحدا يكون مسؤول امام الشعب، ويستطيع الشعب محاسبته إذا قصر او تنصل من اداء مسؤولياته.

محمد سلمان السعيدي: باعتقادي ان العراق هو اغنى دولة في العالم. العراق يعوم على مستنقع او بركة من النفط، وفيه الثروة الحيوانية والنباتية، والسياحية الدينية والآثار، كل هذه الخيرات لم ينل منها الشعب شيئا، بسبب السراق والمجرمين الذين لا يتوانون عن توجيه الدبابات الى ساحة الاحتجاج. لقد شاهدت بعيني صفقاتهم، السمسير الواحد نصيبه في هذه الصفقات 12-10 مليون دولار، مقابل بيعه النفط بطريقة غير رسمية، والنفط الايراني يباع عن طريق العراق. لقد عطلوا الصناعة في العراق، اوقفوا مصانعنا من اجل السماح للبضاعة الايرانية بالدخول الى الساحة العراقية. كل هذا بسبب ان من يحكمنا تابع لايران (ابن ايران)، ولكن منذ يوم 10/25 وقبلها في 10/1 استفاق وعي الشعب، واصبح الشعب لا يخاف من الموت. وقد رأيت بعيني شابا بعمر 14 سنة يقف امام القوات الامنية حاملا العلم على جسر الجمهورية. لقد بكيت وانا ارى هذا الشاب الصغير يحمل العلم ويتحدى المقذوفات من قنابل مسيلة للدموع، وقنابل صوتية تمر فوق رأسه دون ان ينحني او يتنحى.

كل المتظاهرين هنا حتى اصغرهم سنا عندما تسألهم لماذا تشارك في التظاهرات، يقول لك اريد وطنا، نريد عندما نسأل عن بلدنا نقول (بفخر) اننا عراقيون، لقد اصبح الجواز العراقي اسوأ جواز. ما هو الفرق بين العراق والامارات التي لا تمتلك غير النفط، اما نحن فلدينا كل هذه الثروات وشعبنا جائع. الكثير من الشباب الرائع

المتواجد في ساحة التحرير، بكل ما يحملونه من قيم، الا ان مستوياتهم الثقافية محدودة، بسبب الحروب التي زجنا بها السياسيون، ابتداء من نوري المالكي الذي سلم ثلاث محافظات الى داعش، وتسبب بموت اعداد هائلة من الشباب. لقد حملت الشهداء بيدي. شباب يحملون الأعلام ويصرخون "بالروح بالدم نفديك ياعراق"، ويرمى بالرصاص.. الشعب لن يتراجع ولن ينسحب، وهذه الدماء التي سالت لن تذهب سدى، ولو انسحب جميع المتظاهرين سأبقى وحدي حاملا العلم العراقي ولا انسحب. لست بحاجة الى الاموال. انا بحاجة الى وطن.. بحاجة لان يكون لدي بلد متطور مثل باقي البلدان المتطورة.

ويضيف دكتور محمد، وهو من المرابطين في الخطوط الامامية الذين لم يغادروا ساحة التحرير (جسر الجمهورية تحديدا منذ يوم 10/25):

- عمليات الحرق والتخريب ليست من صنع المتظاهرين. فشعبنا يحمل العلم فحسب. لا يحرق ولا يخرب. المراة العراقية لعبت دورا كبيرا في هذه التظاهرات، ونحن بدونهن لا نساوي شيئا.

منتظر: يتحدث عن شعوره بفقدان الكرامة، فهو كمواطن عراقي عندما يسافر الى دولة اخرى، فانه لا يلاقي او يحظى باحترام. "الحكومة تكفخ بينا كفخ". رغم ان العراق في زمن صدام كان دولة قوية و(معترف بها) كما نسمع من اهالينا ونرى عبر الانترنيت. لكن كانت هناك حروب كثيرة، قتلت معظم شباب البلد، بعد 2003، وفي زمن حكومة المالكي التي دامت 8 سنوات، كانت التفجيرات والقتل، منها مجزرة سبايكر وسقوط 3 محافظات بيد داعش. ثم انتقلنا الى حكومة العبادي "العبادي اراه رئيس وزراء جيد"، ولكنه حكم العراق في مرحلة صعبة، ميزانية العراق كانت ضعيفة جدا. ثم انتقلنا الى مرحلة حكم عادل عبد المهدي، التي لم نر منها سوى الوعود الكاذبة.

فيان: لقد اصبنا كناشطين وناشطات منذ 10/1 بخيبة كبيرة... كانت جل مطالبنا هي الاصلاح وانهاء المحاصصة والفساد، وكنا نعتقد ان هذه المشاكل الاساسية التي تواجه العراق، وكنا نعتقد ان النظام السياسي الحالي رغم وجود هذه المشكلات يبقى هو الافضل عند مقارنته بنظام البعث، وبعض الانظمة الدكتاتورية في المنطقة. وان هناك مجالا لاصلاح الخلل. يوم 10/25 نزلت الى التظاهر وكان بالنسبة لي يوما مهما لمحاسبة المسؤولين عن القمع والعنف، ومهما كان موقعه ودوره، يجب محاسبته لكي لا يتكرر "زمن صدام". ولكن ما رأيته في تظاهرات 10/1 هو ان العودة الى الحكم الشمولي والقمعي سهل جدا (حكم صدام). فالقتل والعنف والاعتقالات وقطع الانترنيت والعزلة عن العالم والصمت الدولي وموقف المنظمات المجامل للحكومة، جعلتنا نفكر ونشعر بان القمع الذي مارسته الانظمة الديكتاتورية يتكرر الآن وان الدمقراطية في العراق هي مجرد كذبة. واننا كنا متوهمين لمدة 16 عاما بان نظامنا رغم كل سيئاته هو نظام دمقراطي.

أعداد المتظاهرين في يوم 10/25 لم تكن بالحجم المتوقع مما اصابني بخيبة اخرى، اذ لم يكن بالحجم الذي نحتاجه والقادر على تخويف الحكومة والطبقة السياسية. ولكن عندما بدا الاعتصام في ليلة 10/25 تغير موقفي واصبحت ممتنة. اشكر الله انني عشت لارى هذه الاجواء وهذه الهمة الموجودة عند المحتجين، وهذه النخوة وهذا الاصرار. والان انا اتواجد بشكل يومي في ساحة التحرير ليس بشكل دائم مثل بقية المعتصمين، واحاول مع الزميلات والصديقات أن نقدم ما نستطيع من دعم للمتظاهرين من خلال توفير المستلزمات الضرورية وبجهود ومساعدة الناس الخيرة الذين يتبرعون من قوتهم اليومي.

ياسر عمار: لن اتحدث عن المطالب السياسية، فقد سبقني الشباب في الحديث عنها. ساتحدث عن وزارة الصحة التي اعمل فيها، وتحديدا في المجال الذي اعمل فيه وهو التحليلات المرضية الذي يعاني من نقص كبير في الاجهزة الطبية الحديثة. نعتمد على اجهزة قديمة جدا، غادرتها المستشفيات في العالم منذ تسعينات القرن الماضي، معظمنا يعمل في مختبرات اهلية كعمل ثاني. وقد لاحظت فرقا كبيرا في الاجهزة في المختبرات الاهلية عنها في الحكومية. الى جانب ذلك هناك مشكلات اخرى في واقع المستشفيات، منها نقص كبير في الكوادر وضعف في الخدمة الطبية؛ فالمريض الذي يراجع المستشفى لا يحصل على نتيجة مرضية ما يضطر الكثيرين الى التوجه الى المستشفيات الاهلية. كان هذا الواقع احد الاسباب الذي دفعني الى الخروج للتظاهر "تردي الواقع الصحي مشكلة كبيرة يعيها جيدا العاملون في المجال الصحي، فالفساد المستشري في هذه المؤسسات وسوء الخدمات تجعلنا غير قادرين على تقديم ما يحتاجه المريض بصورة صحيحة".

سارة: اصبح بيني وبين هذا المكان (ساحة التحرير) ارتباط قوي، مصدره ما رأيته ولمسته من تعاون والفة وتكاتف بين اشخاص، لا يعرف بعضهم بعضا، ولا تربط بينهم اي صلة اجتماعية. مستحيل اكو شخص يجي اول مرة ويشوف كمية التعاون بين الناس، وهم غربة لا تربط بينهم اي صلة اجتماعية، ومع ذلك متكاتفين، واحدهم يدور للثاني الخير ويحميه ويحافظ عليه. عندما ترى كل هذه الصور فانك وبشكل لا ارادي، تدمن التواجد في هذا المكان، وبشكل لا ارادي نحاول ان نقدم اي شيء، ولو كلمة ترفع فيها معنويات الاخرين. كانت هذه المرة الاولى التي ينبثق فيها هذا المستوى العالي من الوعي عند الشعب العراقي، ويتجاوزون اختلافاتهم الاثنية والطائفية، ولا يهمهم من اي دين الذي يقف بجانبه ويسعى للمحافظة عليه. الغيرة الوطنية التي تتشكل عند زيارة هذا المكان، والتي تجعل من المستحيل ان يحضر شخص الى هذا المكان، دون ان يبقى ويلتصق به.

محمد التميمي، ناشط مدني طالب في الصف السادس الادبي. ترك المدرسة ليلتحق بالمتظاهرين منذ عام 2017 وهو يشارك في التظاهرات:

ـ اليوم قضيتنا ليست صحة أو تعليم، قضيتنا اكبر من هذه المسائل جميعا. اليوم اريد ان ارى وطني من ضمن البلدان المحترمة والمتقدمة، اليوم اريد ان اصدر انتاجي، لا ان استورد، الدول الاخرى والخليجية منها على وجه التحديد، ليست افضل من العراق، فالمقدرات التي نملكها تساوي مقدرات بلدان عديدة، لكن بلدي منهوب من قبل ثلة عميلة، لا تحترم المواطن ولا تحترم المرأة، وحرية التعبير فيه مهددة، وحرية المرأة مسلوبة. انتفضنا جميعا من اجل انتزاع حقوقنا؛ فالحقوق تنتزع من الظالمين. هذا الجيل الذي اطلقوا عليه الكثير من المسميات وبخسوا قدره وسخروا منه (جيل البوبجي) لانهم خائفون منه. جيل البوبجي هز عروشهم. كشاب عراقي انا فخور بهذه الانتفاضة التي قادها جيلنا "جيل البوبجي" الذي سخروا منه. انا اليوم في ساحة التحرير، وسابقى فيها حتى لو انسحب الجميع، حتى الساعة التي آخذ فيها حقي. لن اتراجع ولن اتنازل لقد انتهى الخوف، ولم نعد نخاف من الخطف والموت والترهيب. اما الذي يدعي بان البلد مقبل على فوضى فيما لو استقالت الحكومة، فانا لا اعتقد ان هناك فوضى اكبر من الفوضى التي نعيش فيها منذ 16 عاما. لا توجد مؤسسات حكومية، حكومة عميلة، لا تحترم المواطن وفاقدة لشرعيتها. أتمنى من الدول ان توقف التعامل مع هذه الحكومة، كونها فقدت شرعيتها، فالشعب هو مصدر السلطة، وقد اسقط الشعب الشرعية عن هذه الحكومة.

نحن من منحناها لهم، ونحن من يرفعها عنهم.

رؤى خلف: شعرت ان حياتي ليست اغلى من حياة المشاركين في التظاهرات، كما لم تكن هذه هي الحياة التي اطمح بها او التي تمنيتها، لا لنفسي ولا لأولادي، ولا حتى للاجيال القادمة، ولم تكن حياة تليق بالشعب العراقي. استأنفت المشاركة في تظاهرات اليوم 10/25، ووجدت نفسي متعلقة كثيراً بهذه الثورة، ليس لكونها مجرد ثورة، بل لانها منحتني شعوراً باننني محمية، منحتني هذا الفضاء الاحتجاجي ممثلاً بساحة التحرير، وداخل هذه الصبات الكونكريتية، منحتني الحماية، اشعر وانا بين هؤلاء الناس باننني آمنة جداً. وبمجرد ان اغادر الصبات الكونكريتية التي تفصل منطقة الاحتجاج وساحة التحرير امتداداً الى الى ساحة النصر، اشعر بالقلق والخوف، الخوف من تربص الآخرين بي، ومحاولة اختطافي أو اعتقالي. انا هنا ارى واشعر بالامان وارى العراق الذي احلم به، عراقا مليء بالتضامن والتكافل والتآخي والحرص على الممتلكات العامة. اشعر ان هذا الفضاء هو الامل الذي تتوقف عليه حياتنا القادمة ومستقبلنا.. هذه الانتفاضة هي أملي... ولا اعرف ماذا سيحدث بعدها.

إيناس جبار: عوامل عديدة دفعتني للمشاركة في الاحتجاج والمطالبة بالتغيير. كوني اماً لطفلين بعمر الدراسة، الوضع التعليمي في العراق مأساوي؛ فمناهج التدريس واسلوب التدريس والكوادر التدريسية كلها تخلق لدى الاطفال وعياً

مشوهاً. وهي مشكلة اعاني منها كثيراً، ولولا انني اعيش ضمن مجتمع لكنت حرمت ولدي من الالتحاق بالمدارس. اتحدث بشكل خاص عن المدارس الابتدائية التي تمثل اهم مرحلة في حياة الطفل، من خلال دورها في تشكيل وعيه ومفاهيمه حول الوطن والانتماء. من العوامل الاخرى المهمة التي تؤلمني واعاني منها بشكل شخصي الواقع الصحي في العراق.. والدتي مصابة بالسرطان. ارافقها في مستشفى الطب الذري، يؤلمني ما اراه من واقع مزر هناك؛ حيث المرضى يفترشون الارض لتعاطي جرعتهم العلاجية. في البداية لم يكن هناك جهاز كشف عن السرطان، إلا قبل فترة قليلة، ولا يستطيع الفقير المعدم الذي لا يملك ثمن الفحص ان يعرف نسبة انتشار المرض في جسده. هذه العوامل وتراكمها ادت الى الانفجار. لقد اضطررت إلى ترك وظيفتي في وزارة العلوم والتكنولوجيا ومن خلال اجازة لمدة خمس سنوات اطلقتها الحكومة كجزء من اجراءات التقشف، ولمعالجة مشكلة البطالة المقنعة التي تعاني منها الدوائر الحكومية.. وتوجهت للعمل في احدى منظمات المجتمع المدني المحلية، وباشرت العمل بالمجال الانساني، الذي بدأت العمل به منذ 2003 حيث وجدت ان مكاني هنا في هذا المجال وليس في مؤسسات الدولة التي لا تحترم الكفاءة ولا تراعي الطاقات، ولا تستطيع ان توفر ما يمكن الموظف من الابداع، ولذلك تركت وظيفتي واتجهت للعمل في المجتمع المدني. يضاف الى ذلك قضية اخرى اجدها مهمة وهي ان ساحات الاحتجاج يجب ان لا تقتصر على الذكور، يجب ان تكون المرأة شريكة اساسية ولها دور في السلوك الاحتجاجي في العراق، وان تكون اداة للتغيير. كان هذا دافعاً آخر لمشاركتي في يوم 10/25، وقد كان عدد النساء محدودا، ربما عشرات في الايام الاولى، ولا اخفيكم انني شعرت بالخوف بادئ الامر، ولكني عندما ارى حجم التضحيات التي يقدمها المحتجون اجد نفسي غير قادرة على تقديم شيء يذكر امام ما يقدمه المتظاهرون. كامرأة مشاركة في التظاهرات يهمني كثيراً ان اشير الى انني لم ار في حياتي مثل هؤلاء الشباب باخلاقهم وتفانيهم واخلاصهم واحترامهم للنساء. اهم ما عكسته هذه التظاهرات هو انها اظهرت ان الشعب العراقي هو شعب متكاتف ومتلاحم ومتحاب برغم اختلافاتهم الثقافية والعرقية والمذهبية. كل هذه الاختلافات ذابت وانصهرت، واصبحنا جميعاً على مستوى واحد من الوعي وهو مستوى مرتفع تدمع له العين. وشعب بهذا المستوى من الوعي من المؤسف جداً ان يكون واقعه مأساوياً.. وسنبقى مرابطين في ساحة التحرير، حتى نيل حقوقنا كاملة. وكل من سيراهن على الوقت فهو على خطأ، فمنذ اكثر من شهر ونحن مستمرون بالحماس ذاته والاندفاع ذاته. لم تقل اعدادنا ولم ينسحب أحد منّا.

محمد جمال: اضافت لي هذه التجربة الكثير.. كُنت في البيت (نائم)، لكن بعد ان

رأيت اخوتي المتظاهرين وما ابدوه من قوة (بطولة)، وتعاطف وتكاتف تغيرت في داخلي اشياء كثيرة.

أمير: تظاهرنا نحن الشباب لاسقاط النظام الذي لا يختلف كثيراً عن النظام المباد (نظام صدام).. الذين استلموا الحكم لم يعملوا على تنفيذ اي مشروع، ولم نلمس اي تغيير في حكمهم. ورغم مواجهتنا لتحديات كبيرة وسقوط الكثير من القتلى، ولا اعلم لاي سبب او ذنب نقتل، هل لاننا عراقيون؟ نحن نحمل الجنسية العراقية فقط، وهويتنا العراقية اسم فقط، لان البلد تابع لايران.

مالذي تحقق في هذه التظاهرات؟

- ستنتهي التظاهرات بتغيير قانون الانتخابات، وتعديل الدستور، وتعديل قانون الاحزاب والغاء فوضى الميليشيات، وستكون هناك تعددية حزبية حقيقية، تحمي حقوق المواطن وتعيد للعراق هيبته.

- لدينا اليوم وعي سياسي ولدينا جيل لا يخاف من الموت ويحب الموت، واثق من انه لو مات، فهناك من سيكمل المسيرة من خلفه، لن يكون هناك تراجع، وسنستمر، لن نعود الى اعمالنا، لان الوطن اهم من اي عمل، العراق أهم واقدس من اي شيء... لدينا العزيمة والاصرار (ان شاء الله يا اما نحن يا اما من في الخضراء).

- افرزت هذه الثورة شعبا متماسكا في الوقت الذي يراهنون فيه على صبرنا ومللنا، هناك تلاحم وتكاتف يتجاوز الاختلافات الطائفية والدينية، فبيننا المسيحي والسني والكردي والشيعي، وأهم ما حققناه في تظاهراتنا هو القضاء على الطائفية، وهذا اكثر ما سيغضب الحكومة والطبقة السياسية التي استطاعت ان تقبض على زمام الحكم من خلال اعتمادها على تطييف المجتمع وانقسامه، وقد انتهت الآن الطائفية. الطبقة السياسية لم تفهم بعد بان مطالبنا ليست وظائف أو رواتب أو منحا، انما حل البرلمان ومجالس المحافظات. وشخص واحد هو الرئيس يحكم البلد، هناك الف شخص اليوم، يتحكمون بالبلد. وهذه المافيات سنقضي عليها، وسنقضي على الميليشيات، ولن يخيفنا سلاحهم "احنا الزلم عيب علينا بعد نرجع للبيت".

- حتى وان انتهت التظاهرات ولم نتمكن من تغيير الحكومة، فاننا تمكنا من ان نثبت للعالم اجمع ان الشعب العراقي ليس جبانا أو خانعا، وانه استطاع ان يقلق الطبقة السياسية على مدى شهر. اتوقع ان احتجاجاتنا ستتصاعد وتيرتها وان اضرابا عاما لا بد ان يحدث وهذا ما نسعى اليه، لان نجاح الثورة يتوقف على اضراب عام، تتوقف فيه مؤسسات الدولة، مما يجبر الحكومة على الاستجابة لمطالبنا. ويشارك في هذا الاضراب فضلا عن النقابات والمؤسسات، قوات الامن. أملنا ووسيلتنا الفعالة لانجاح الثورة هو الانقلاب العسكري، اذا تحقق ذلك فسنضمن جديدا ضامنا لحقوقنا، وسيتولى حكم البلاد شخص واحد يكتسب شرعيته من الشعب الذي اختاره، وبامكان الشعب ان ينتزع هذه الشرعية متى ما عجز الحاكم عن اداء

وظيفته بالشكل المطلوب. سنكون حينذاك قادرين على التعامل مع شخص واحد لا الف شخص، غير معروفة اجنداتهم، ومن يقف وراءهم، ومن يدعمهم.

- حتى وان قمعت هذه الانتفاضة وهو السيناريو الاسوأ. فاننا نجحنا في خلق مستوى من الوعي الوطني الذي غير في شخصية الفرد العراقي، وهذا الوعي لم يكن موجودا. من النادر ان نجد بين المواطنين البسطاء من يعرف حقوقه في الدستور، اما الآن فجميع المشاركين بالتظاهرات، بصرف النظر عن مستوياتهم التعليمية، يحملون لافتات تعبر عن ادراكهم الكبير بحقوقهم، وما نص عليه دستورهم، وهذا باعتقادي تحول كبير في مستوى الوعي عند الفرد العراقي، وهو تحول مهم جدا سيهيئ لانتفاضات جديدة في المستقبل. لكن حلمي وآمالي معلقة على نجاح هذه الانتفاضة في اسقاط الحكومة، وتغيير النظام السياسي، لان ما بيننا وبين الحكومة ليس مجموعة من المطالب، بيننا دم، دم الذين سقطوا للمطالبة بحقوقهم.

- لديَّ قناعة ان التظاهرات وكما اثبتتها تجارب العالم، تتزايد عاما بعد عام، الى ان تؤدي الى التغيير المطلوب. ومثال على ذلك الثورات الاوربية في مطلع القرن العشرين.. كانت بداياتها في القرن التاسع عشر، واستمرت بالتزايد الى ان احدثت التغيير. واتصور ان تظاهرات تشرين في العراق تمثل (الانفجار الاخير) الذي سيتمكن من تغيير كل شيء، وسيخلق دولة المواطن.

جلسة (الثقافة الجديدة) الحوارية:

الشباب.. وانتفاضة تشرين

أقامت مجلة (الثقافة الجديدة) يوم الاربعاء المصادف 27/ تشرين الثاني/ 2019 جلسة حوارية في الخيمة (العراقية)، احدى خيم الاعتصام في ساحة التحرير، استضافت فيها عددا من الشباب من حملة الشهادات الاكاديمية، المتواجدين دوما بين المنتفضين، للحديث عن الانتفاضة. وقد وجهت للمساهمين في الجلسة اسئلة محددة، طلب منهم الاجابة عنها:

في البداية ما هو توصيفك لما حصل في ٢٥ تشرين الثاني؟ ما هي طبيعته؟ وما هي قواه الدافعة وآلياته المحركة؟ ومن ثم وضح لنا ماهي برأيك ابرز الشعارات المطلوب رفعها في هذه المرحلة؟ وما برأيك الاهداف المطلوب من الجماهير تحقيقها وكيفية تحقيقها؟

وإذ تشكر هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) جميع الشباب المساهم في هذه الجلسة، وتقدر تجشمهم عناء المشاركة وتقديمهم افكارا قيمة، وتفاعلهم المخلص مع الآراء والمواقف التي طرحت فيها، الا انه وبسبب من طبيعة الموضوع ولكبر حجم المادة وسعتها فإن هيئة التحرير تعتذر عن نشر المداخلات المكررة أو العامة والتي لم تتطرق لصلب الموضوع، او تلك المداخلات التي لم تتناول صلب موضوع الطاولة.

كان اول المتحدثين الشاب ديار الزهيري، 23 سنة، طالب ماجستير علوم حاسبات. وقد بدا حديثه قائلا:

من وجهة نظري، ارى ان أنسب وصف لما حصل في 25 تشرين الثاني هو ان نسميها ثورة أمل لعراق جديد. نعم، هذهِ هي المرة الاولى التي كان فيها للشعب رؤية حقيقية للوضع، فهو لم يخرج هذهِ المرة للمطالبة بالخدمات والوظائف، او العيش الكريم، لأن هذه المطالب اصبحت بنظرهم تحصيل حاصل للدولة الحقيقية. لقد خرجوا جميعاً، للمطالبة بوطن جديد خالٍ من الفاسدين. ولا اود ان اقول "شلع قلع" لكي لا ابعد قائلها عن أولئك الذين يرغب الشعب في إقصائهم. نعم، هذهِ المرة الشعب يريد ازاحة الجميع من الحكم السياسي في العراق، من اصغر (ذيل) الى اكبره. وهذا ما جمع الناس في ساحة التحرير وغيرها. اتفق الجميع على ان الشعب هو الكتلة الاكبر وهو من يجب ان يكون صاحب القرار.

ومن جهتي اعتقد ان الشعار الاول الذي يمثل ما اسميته ثورة أمل هو: "نرد" الوطن للوطن. الكثير من المتظاهرين يؤمن ويردد ويهتف بهذا الشعار، وهو ان دل على شيء فأنه يدل بأن العراق طول السنين الماضة لم يكن للعراقيين بقدر ما كان لعبة بيد دول اخرى، امريكا، ايران، وغيرها. حتى الطفل الصغير صار يعرف ويدرك ان العراق ليس عراقه بقدر ما هو عراق ترامب وخامنئي وقاسم سليماني. أما الشعار الثاني فهو برأيي صوت المرأة ثورة. نعم، ما يجعل هذهِ المظاهرات ناجحة هو ان الحضور لا يقتصر على جنس معين. كما كان العراق سابقاً دولة فيها الرجل والمرأة متساويان في الحريات، يعود مرة اخرى، لكن بشكل مصغر داخل ساحة التحرير. حيث تشارك النساء بدور فعال في انجاح هذهِ الثورة واخيرا اعتقد ان اخر الشعارات هو الهتاف: باسم الدين باكونا الحرامية.

الجميل في الامر، ان العراقيين لم

يعودوا يرددون تلك الهتافات مثل "اخوان سنه وشيعه هذا الوطن منبيعة" بالقدر الذي كانوا يرددونه سابقاً. وهذا يدل على ان العراقيين، خاصة في ساحة التحرير، لم يعودوا يشعروا بأن هناك ما يهدد علاقاتهم كالطائفة ليرددوا هتافاً تجاهه. اتفقوا جميعاً ان السراق باسم الدين هم من يجب ان يحاسبوا، وصار من الواجب القضاء عليهم.

وبعد ذلك انتقل الحديث الى الانسة تقى محمد، 24 سنة، خريجة قانون وتعمل حاليا لدى منظمة انسانية غير حكومية:

اعتقد ان ما حصل في تشرين هي ثورة لكسر التابوهات الاجتماعية المتمثلة بالعنصرية والطبقية الاجتماعية. لقد شاهدنا ابن مدنية الصدر ينقذ ابن المنصور وهو لا يعرف عنه شيئا إلا انه عراقي. في نفس الوقت قامت هذه الثورة بكسر الأدوار الاجتماعية النمطية المنوطة بالمرأة. لقد شاهدنا المرأة تسعف وتقدم الغداء وتزين وترسم على الحيطان، وتنظف الشارع وتردد الابيات الشعرية والأهازيج، وتخرج بمسيرات للتحرير وتندد بالحكومة، وتطالب بإسقاط النظام. في الناصرية شكلت النساء درعا بشريا للحفاظ على سلمية التظاهر وحماية اولادهن وابنائهن.

من جهتي اعتقد ان ابرز العوامل التي دفعت الشباب الى الثورة يتمثل بالإهمال المتعمد لهذه الفئة، اقصد الشباب، من حيث بناء القدرات والتعليم واتاحة فرص العمل والعدالة الاجتماعية. جميع هذه العوامل والظروف شكلت مطلبا اكبر من كل شيء، وبالتالي اصبح المطلب الرئيسي هو وطن يحمي ويحترم ابناءه ويوفر لهم الحياة الكريمة. لقد خرج الاف من الشباب وهم لا يطالبون بأهداف شخصية، وانما بوطن كريم للجميع، شخصيا ما دفعني للخروج لساحات التظاهر هو شعور بان لدي دورا اقدمه هنا، وان هناك ما انتمي اليه وهو وطننا المصغر ساحة التحرير. اما عن الآليات المحركة للثورة فأرى انه وعي شباب بحقوقهم والشعور بالانتماء والوطنية فهذه الثورة هي من اعاد لهذه الأجيال المشاعر التي فقدتها منذ زمن طويل.

إن ابرز الشعارات هو ضرورة البقاء والاستمرار في الثورة، لحين تنفيذ كافة المطالب الشرعية والحفاظ على السلمية وارواح ابناء شعبنا. بعد استقالة الحكومة سنطالب بقانون انتخابات عادل مع سلسلة قوانين تلغي الامتيازات للرئاسات الثلاثة والمسؤولين، ثم حل البرلمان واجراء انتخابات مبكرة.

واخيرا ستتحقق اهدافنا، اهداف الثورة بالعفوية التي نشأت منها الثورة.

وبعد ان انتهت الانسة تقى من حديثها، بدأ الاستاذ عبد الله ناهض عباس، وهو طالب دكتوراه علوم سياسية، عمره 28، بتقديم مداخلته حول الموضوع قائلا:

يمكن وصف ما حدث في تشرين الاول على أنه ثورة، لسبب بسيط، هو أن الشعارات التي رفعها المتظاهرون، وايضا الأهداف التي أعلنوا عنها، تفسر ثوريتها. لأن الثورة هدفها التغيير الجذري، لا الجزئي، ويتلخص هذا التغيير بشعار "نريد وطن"، وبالتالي الرحيل التام لكل الطبقة السياسية الفاسدة. حتى لو لم يُكتب لهذا الحدث النجاح، ستظل تقع ضمن هذا

الوصف، فليس بالضرورة ان تنجح كل الثورات. لأن الأسباب التي خرج من أجلها المتظاهرون ستبقى موجودة وهذا هو الأهم. بالتالي فإن عملية الخروج مرة أخرى في المستقبل، واستكمال الثورة غير مستبعدة، وربما بشكل أكثر جماهيريةً، وتنظيما.

إن طبيعة الدوافع المحركة لهذا الحدث متعددة، تتوزع بين: الجنبة السياسية، والجنبة الاقتصادية، والجنبة الاجتماعية، والثقافية. فمن الناحية السياسية، يُشعر غالبية الشعب بأن من يحكمه لم يعد يمثل تطلعاته السياسية، وأن الطبقة الحاكمة مفصولة عن واقعها، وبعيدة عن الجماهير، تعيش في برجها العاجي، لا تعي ما يُريده الشعب. أما من الناحية الاقتصادية: يعاني البلد من بطالة كبيرة تكاد تتخطى الـ 20%، وحسب بعض الإحصائيات، فإن سوق العمل العراقي يدخله سنويا، بحدود 450 ألف شاب، لم تعد لدى الحكومات المتعاقبة القدرة على استيعاب هؤلاء ضمن القطاع العام، لأنه بالأساس متخم، وبالمقابل نفتقد القطاع الخاص الذي يستطيع حل هذه المشكلة، بالتالي تحرك العديد من الشباب بدافع فقدان الأمل في هذا الجانب. اجتماعيا، يرى جيل الشباب وهم الفئة الأكبر التي يتألف منها المجتمع العراقي، أن الموروث الثقافي، والديني، والسياسي، والاجتماعي، لا يمثل تطلعاته، وأهدافه، وآماله، التي ترنو إلى الحرية، والانفتاح، والابتعاد عن التزمت بشتى أشكاله، ومن ثم العمل على تعزيز أواصر الالتقاء بين الجنسين. وأفكاره هذه هي على تضاد مع الأفكار المحافظة للمجتمع، ما جعل حجم الهوة واسعةً، بين جيل الشباب، وجيل الشيوخ، وهذا بدوره انعكس على طبيعة النظام السياسي العراقي، الذي أيضا يعد خاضعا للأفكار التقليدية التي لا يرى فيها الشباب تمثيلا لتطلعاته.

أما بخصوص شعارات المرحلة، فهي يفترض أن تتوحد حول ضرورة التغيير الشامل لنظام المحاصصة "إسقاط النظام"، وكذلك المناداة بضرورة إنهاء التدخلات الخارجية "لا شرقية ولا غربية.. حرة تظل بلادي". وبالتالي فإن الأهداف الواجب تحقيقها من وجهة نظري تكون كالآتي: استقالة الحكومة، تشكيل حكومة مؤقتة، لمدة ستة أشهر، مهمتها إعداد قانون انتخابي جديد يقوم على الأساس الفردي، وكذلك تشكيل مفوضية جديدة للانتخابات، مستقلة فعليا لا شكلياً، ومن ثم تدعو لانتخابات جديدة، بعد أن يحل البرلمان نفسه، الذي تكون مهمته تشريع القوانين آنفة الذكر.

مهمة الحكومة الجديدة المنتخبة، تعديل الدستور، وإصلاح الاقتصاد العراقي، ومحاكمة الفاسدين.

أما الشيخ صلاح حسن الرسيتماوي، وهو إمام جامع الصادقين ببغداد/ منطقة البنوك، وعمره 36 سنة، فقد بدا حديث قائلا:

بسم الله الرحمن الرحيم، (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)، صدق الله العظيم. السلام عليكم:

ارى ان ما حصل في 25 تشرين الاول وهو مستمر الى هذه الايام، هو انتفاضة تغييرية لواقع فاسد ومظلم. وكل هذا من نتاج الأحزاب والتيارات الحاكمة سواء كانت الاسلامية المدعية بالإسلام أو غير

الاسلامية. سواء الشيعية المدعية بالتشيع أو السنية حيث افسدوا في البلاد وقتلوا العباد. وان شاء الله تعالى سنرى أن المعادلة ستنقلب على الفاسدين بعد التخلص من الخوف الذي سكن في قلوب اغلب أبناء الشعب العراقي الحبيب وخرجوا بهذه الانتفاضة الشعبية في عموم العراق. وقد كان المرجع الديني آية الله الشيخ محمد اليعقوبي، قد اشار بعد تشكيل حكومة الحالية حكومة عبد المهدي الى ما معناه ان الشعب كان يأمل من الحكومة الجديدة أن تكون حكومة وطنية توفر له الأمن والخدمات والاقتصاد المزدهر، لكن بعد ان اعلنت هويات أعضائها وفيهم متهمون بالفساد او التزوير وحتى بالإرهاب فقدَ الشعب هذا الأمل. فكيف يمكن للشعب ان يتوقع منها تحقيق اهدافه. لقد بدأ غيظ بل غضب شعبي منذ تلك الايام لأنهم يرون ان الانجازات العظيمة التي تحققت بدماء ابنائه البررة، قد صارت في مهب الريح، وان تضحياته ستذهب هدراً في مثل هكذا صفقات لئيمة.

ان استعادة الهوية الوطنية العراقية الجامعة التي سلبها الطائفيون والفاسدون والعملاء تمثل باعتقادي اغلى ثمرات انتفاضة حرية العراق، واكبر الانجازات التي حققها الشباب الواعي الغيور في انتفاضة ساحة التحرير وباقي سوح العراق. لقد فجر الشباب الشجعان هذا البركان في نفوس ابناء الشعب كافة، وأيقظوا هذه الطاقة العارمة، ووحدوا جميع فئات الشعب تحت شعار واحد، وهو الوطن الحر، المستقل، والسيد الذي يحفظ كرامة أبنائه، ويحقق لهم السعادة والازدهار في حاضرهم ومستقبلهم. لقد آن الاوان ان تستحي الأحزاب والكتل المتسلطة وتعتذر الى هذا الشعب الذي خرج بجميع شرائحه ونقاباته وأجناسه، رافضاً منهجهم الفاسد وفشلهم الذريع في إدارة البلاد، وليفسحوا المجال لجيل وطني كفوء مخلص ان يأخذ دوره في قيادة البلاد. ففي النهاية هذه الانتفاضة أولى من صناديق الاقتراع المزوّرة في التعبير عن إرادة الشعب واختياره لمن يمثله، ولو صدّقنا ان السلطة جاءت عبر صناديق الاقتراع، فهذه الانتفاضة تسلب المشروعية منها، لأن الشعب مصدر السلطات، وان إرادته مشروطة في البداية وعلى طول المدة وإذا سلبها في أي وقت، سقطت الشرعية عن الحاكم.

ان الشعارات التي لا بد أن يتوحد بها العراقيون الابطال للعراق، في ساحات التظاهر والاعتصام، بحسب رأيي، يجب ان تكون: نعم، نعم، للعراق، كلا، كلا، للأحزاب والتيارات. كما ان على هذه الانتفاضة ان تحافظ على سلميتها الى ان يزول حكم الجبابرة والقتلة. وأن يحافظ ابناؤها على الممتلكات العامة والخاصة، وأن لا يعتدوا على القوات الأمنية او غيرهم.

وبعد ان انتهى الشيخ صلاح من طرح افكاره، بدأت الانسة هيام علي المرهج، خريجة علوم سياسية، عمرها 22 سنة، حديثها قائلة:

احداث 25 تشرين، تم توصيفها بعدة توصيفات؛ فالبعض يعتبرها ثورة والبعض الاخر يعتقد انها انتفاضة. وفي الحقيقة فإن المفهومين الثورة والانتفاضة هما من المفاهيم المتداخلة نوعاً ما، خصوصا أن

كليهما يعبران عن الرفض لنظام سياسي، أو لوضع مجتمعي، وكليهما يرتبطان بقضية محددة. ان التوصيف الدقيق لما حدث في العراق يتطلب منا اولا وقبل كل شيء تحديد الاختلافات في المفاهيم.

الانتفاضة غالبا ما تكون مصحوبة بمطالب لا تغير في بنية النظام، ولا تقلبه جذريا، بل تحاول تصحيح مساره، وتستخدم كافة الوسائل السلمية للتعبير عن رأيها. وترتبط الانتفاضة غالبا بيقظة الشعب من سباته، دون أن ترتبط بقيادة او بشخصيات كارزمية تتصدر المشهد على عكس الثورة. فتاريخ الثورات يشير الى ان الثورة عادة ما تكون مصحوبة بالعنف وقيادة تنظم وتوجه الثورة. وهدف الثورة اسقاط النظام وتبديله. وغالبا ما تكون الانتفاضة بداية لثورة او هي دليل على اقترابها. لذلك أجد ان المفهوم الأقرب الى واقع الاحداث في العراق، ان ما حدث في تشرين الاول هو الانتفاضة.

في ما يتعلق بالقوى الدافعة للانتفاضة، أرى أن طبيعة الفرد العراقي، كانت القوة الدافعة الرئيسية في هذا الحراك وخصوصا اذا تذكرنا اسباب اندلاع الاحتجاجات في بداية تشرين. الموضوع كان متعلقا بالاعتداء على طالبات الدراسات العليا من قبل قوات الشغب، عندما خرجن للمطالبة بحقوقهن في العمل. هذا برأيي انهن كنّ الشرارة التي حركت العراقي باعتباره "صاحب غيرة". وهي الصفة الاساسية التي يوصف بها العراقي الذي لا يرضى لبنت بلده هذه الاهانة وهذا الاعتداء فما بالك أن تكون حاصلة على شهادة عليا. ثم يأتي الفشل الحكومي في احتواء الموقف وسقوط الشهداء بإطلاقات القناص، الامر الذي أجج الموقف وحرك مشاعر العراقي الذي يؤمن بفكرة الثأر كجزء من عاداته، فلا يمكن أن يسكت على دماء الشهداء الذين سقطوا من أجل الحقوق ليكون الشباب العراقي المحرك الاساس لهذه الانتفاضة، مصراً ومعاندا بالاستمرار حتى تحقيق المطالب.

من جهة اخرى ان الشعار الرئيسي المرفوع اليوم والكفيل بأن يحمل في طياته جميع الشعارات الاخرى هو (أريد وطن). فهو شعار مرفوع منذ بداية الانتفاضة، والوطن يعني الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص وغيرها. من ناحية المطالب بدأت عشوائية ومشتتة وهذا امر طبيعي باعتبارها انتفاضة عفوية خالية من التوجيه والتنظيم ولكنها سرعان ما أخذت تحدد الأولويات من خلال الوعي الشبابي الموجود واستماعهم للأصوات المستقلة والموثوق بها. المطالب هي :إقالة الحكومة، تشكيل حكومة مؤقتة، تعديل قانون الانتخابات على أساس فردي، ويعتمد الكثافة السكانية للدائرة الانتخابية، حل البرلمان، الذهاب نحو انتخابات مبكرة، بإشراف أممي. كل هذه المطالب ممكنة التحقق باستمرار الضغط الجماهيري الذي سيجبر القوى السياسية على اتخاذ خطوات حقيقية لتحقيق المطالب.

أما الشاب حباري ابراهيم الخياط، وهو طالب مرحلة اخيرة في معهد الفنون الجميلة/ قسم القانون، عمره 19 سنة، فقد بدأ مداخلته قائلا:

ان ما حصل في تاريخ 25/ تشرين الاول فهو باعتقادي حاصل تراكمي لتأثير

الفراشة. فالأحداث التي تسارعت كان سببها في البدء الاعتداء على امرأة عراقية في مظاهرات حملة الشهادات العليا. مما ادى الى ظهور شرارة في قلب الشريحة الشابة من المجتمع، سببت ظهور احتجاجات الاول من تشرين الاول. وما حصل فيها كان اقبح واسوأ من الاحتجاجات السابقة حيث ازهقت فيها ارواح ما لا يقل عن 160 عراقيا، فكرامة المواطن العراقي وعزة نفسه، وان لا تتم معاملتهم على انهم مجرد ارقام، بدلاً من معاملتهم على انهم بشر، يعد احد اهم القوى الدافعة التي حركت العراقيين للانتفاض.

وبالتالي فإن احتجاجات 25 تشرين الثاني كانت بسبب تراكم كل الاحداث في تلك الفترة. فكانت مطالب الشعب واضحة ومعلنة ومكتوبة في كل مكان، ولخصت في شعارين اثنين: "اريد وطن" و"نازل اخذ حقي".

بالنسبة لأهداف هذه الانتفاضة، فهي متنوعة عند المنتفضين. لكن الاغلبية الواضحة هي مع تبديل النظام السياسي، ومع تعديل قانون الانتخابات، خصوصا آلية توزيع المقاعد بطريقة سانت ليغو المعدلة، التي تناسب القوى المتنفذة، فحسب. وايضاً عدم القبول باي سياسي عمل في منصب مسؤول تنفيذي او تشريعي للمدة من سنة 2006 الى غاية 2019، واخيرا سن قوانين في مصلحة الشعب العراقي.

وكان اخر المتداخلين الدكتور احمد صاحب زغير، بورد باطنية، عمره 36 سنة: وقد بدا حديثه قائلا:

لا يخفى على احد ان الحراك الحالي بزخمه الكبير، وتعدد اشكاله وطقوسه الجديدة وغير المعهودة قد خرج من تسمية التظاهرات التي عهدنا اطلاقها على الاحتجاجات السابقة والتي بدأت تتوالى منذ عام 2009 وحتى يومنا هذا؛ حيث بدأت احداث الاول من تشرين الثاني واستأنفت في 25 من نفس الشهر، حيث بدأ الاعتصام المفتوح في ساحات التظاهر، والذي كان اي الاعتصام هو ابرز اشكالها واكثرها تأثيرا على طول الفترة التي امتدت لأكثر من اربعين يوما حتى الآن. اما عن الجدل الدائر حول توصيفها كونها انتفاضة او ثورة فانا أرى كمتظاهر مواكب للحراك، منذ يومه الاول، بانها انتفاضة هنا، وثورة هناك... فهي وعلى لسان مطلقيها ثورة على جسر الاحرار، وعلى خطوط التماس الاولى في عموم ساحات البلاد، وهي ثورة بخلقها وعيا قويا ومدويا بمفهوم الهوية الواحدة، يضاف له الوعي بقوة الجمهور المنتفض وقدرته على المبادرة بشكل فعال ومؤثر في سير الاحداث، وصناعة تاريخه بنفسه، بما يشرّف مسيرته كجيل فاعل وواعي ...

من جهة اخرى بنظري فان الدوافع المحركة، متعددة وتراكمية. لا يمكن القول ان هذا السبب مهم دون ذاك؛ فقد تصاعدت حمى الظروف القاهرة لدى الجيل الحالي، والذي ولد من رحم ما بعد 2003، اذاً هو الآن يواجه تحديات الحياة ومتطلباتها بمستقبل مجهول، لا امل فيه لفرصة عمل كريمة، تمكنه وفقا لمرحلته العمرية من بدء مشروعه الخاص، كبناء عائلة مستقرة، او اكمال تعليمه في ظل ظروف صحية، تؤمنها الدولة بكل مسمياتها ومفاصلها. انه يرى الاثراء غير المبرر للطبقة الحاكمة

الفاسدة، والتي لم تدخر جهدا في السطو على مؤسسات الدولة ومنافعها العامة والخاصة، ولم تترك سبيلا للعيش إلا وجيّرته وسلطت عليه مجموعتها الكبيرة من اللصوص ومزوري الشهادات. وهو من جانب اخر يرى ذلك الضباب في هوية حكامه الذين هم ادنى الى التجار، منهم الى محترفي السياسة؛ ما هم إلا مجموعة كبيرة من السماسرة وقادة العصابات وامراء الطوائف. وهذا بدوره ادى الى ضياع الهوية الوطنية بين الانتماءات الفرعية فوطني صار قوميتي، وقوميتك ومذهبي، ومذهبك وعشيرتي، وابن عمي واخي ...الخ. فما كان من هذا الجيل الا تلك الصرخة المدوية التي حيرت الجميع بفحواها، وادت بالنهاية الى أن تكبر كرة الثلج جارفة، كل ما في طريقها: نريد وطن ...

أما بالنسبة للتساؤلات حول شعارات واهداف الثورة او الانتفاضة، وهي التساؤلات التي طرحها ذو شأن، فيمكن ان نجد الاجابة حول الشعارات في اللافتات المعلقة على جدران المطعم التركي، قلعة الاحرار. الشعار الاسمى برأيي في هذه المرحلة هو "نريد وطن"، لا بد من ادامة زخمه وتكراره حتى يفهم الجانب الاخر معناه الذي ما زال يصعب عليهم .اما الاهداف وبحسب التسلسل، فأولها اعادة فرز الهوية الوطنية، ساحقة بنورها كل الانتماءات الاخرى: اعادة تشكيل الهوية السياسية على ان يستبعد الفاسد والقاتل من الاحزاب والتيارات، والاعتماد على من اثبت اخلاصه ووقوفه بجانب قضية الشعب العراقي الحقة، ودعمه للتظاهرات والاحتجاجات ومنذ يومها الاول والاعتماد عليهم بالمشاركة مع المجاميع الغفيرة من الشباب الواعي في الساحات بإعادة بناء العملية الديمقراطية بما يتماشى مع متطلبات الشعب، حتى ادق تفاصيله. واعادة بناء القوات الامنية، بما يضمن عدم خرقها لواجبها الاساسي الا وهو حماية ابناء الشعب في كل الاوقات والظروف والوقوف مع قراراتهم، مهما كانت هذه القرارات مزعجة لأي طرف حكومي او اقليمي... وحصر السلاح بيد الدولة، وقد اصبح مطلبا لا مهرب منه، بعد ما شهدناه من احداث مؤسفة في ذي قار والنجف ..التنمية وبناء اقتصاد وطني فعال يجعل من المواطن جزءا من عملية الانتاج، ويخرجه من شبح الريع، ولا يحصل هذا الا بدعم الصناعة الوطنية والزراعة والثروة الحيوانية ودعم المشاريع الصغيرة، من خلال بناء نظام مصرفي نزيه وشفاف وفعال ...

مقـــــالات

مشروع قانون مجلس الإعمار

د. صبري زاير السعدي

د.صبري زاير السعدي حاصل على البكالوريوس في الاقتصاد من كلية التجارة والاقتصاد بجامعة بغداد، وعلى شهادة الدكتوراه في تخطيط الاقتصاد الوطني من جامعة برمنكهام بالمملكة المتحدة. شغل مناصب وظيفية عامة، ابرزها: مدير عام الدائرة الاقتصادية ورئيس هيئة التخطيط الاقتصادي بوزارة التخطيط العراقية، ثم مساعد مدير عام منظمة التنمية الصناعية العربية التابعة لجامعة الدول العربية، ورئيس مؤقت لقسم التخطيط الاقتصادي في منظمة الامم المتحدة لدول جنوب غرب اسيا (الاسكوا)، كما عمل في الامم المتحدة خبيرا في برمجة الاستثمارات، والسياسات الاقتصادية الكلية. نشر الدكتور السعدي العديد من الدراسات المتخصصة في قضايا التنمية والسياسات الاقتصادية في الدوريات العربية والاجنبية. علما انه بدأ اهتماماته المهنية باستخدام النماذج والتحليلات الرياضية المتقدمة في قضايا الكفاءة الاقتصادية المرتبطة بتوزيع الموارد، وفي ترشيد عمليات اتخاذ القرارات. وفي السنوات الاخيرة، تركزت اهتماماته الفكرية والمهنية والسياسية في موضوع الازمة الاقتصادية بالعراق وصياغة المشروع الاقتصادي الوطني لمعالجتها.

أولاً: مسؤولية الدولة في إقامة المشاريع العامة وتنمية الثروة الوطنية

كان مجلس الوزراء قد وافق في يوم الثلاثاء بتاريخ 17/ 9 / 2019 على "قانون مجلس الإعمار" وتقدم لتشريعه من قبل مجلس النواب[1]. وبتاريخ 2 /10 /2019، وبعد اندلاع إنتفاضة الشباب الباسلة السلمية المجيدة والمطالبة بحق العمل والعيش الكريم في الانتفاع من الثروة الوطنية بعدالة اجتماعية في دولة نظيفة من الفساد، تأكدت شراكة رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس النواب والإصرار بالتشريع الفوري لمشروع القانون بحجة "تحقيق الإصلاحات البنيوية الاقتصادية الحكومية وتلبية التطلعات المشروعة للشعب"[2]. ولأن أهمية المشروع خطيرة في مستقبل الاقتصاد والدولة والتي تتماثل مع قانون شركة النفط الوطنية المُعيب "الملغى"، يصبح من الضروري بيان أهدافه والجهات المستفيدة ووسائل تنفيذه المُربِكَة – بقصد-

والمقاربة مع المشروع الاقتصادي الوطني البديل.

والتساؤل الهام، وسط مآسي وغضب المواطنين من ازدياد البطالة، وانتشار الفقر، وتفشي الفساد، وتزايد التباين الفاحش في الدخول والثروات بين المواطنين والمناطق، وتردي مستويات المعيشة ونوعية الحياة في البلاد المحاطة بالتوترات العسكرية والأمنية والنزاعات الجيوسياسية الإقليمية والدولية، كيف يمكن تفسير المطالبة بتشريع هذا القانون لتصبح الحكومة "شركة قابضة" تمتلك وتبيع المشاريع العامة والاستثمارات المُمَولَة من الإيرادات النفطية. أليس من الغَريب والمُعيب في ظروف استمرار تفاقم أزمة الاقتصاد الوطني[3] أن تتخلى الحكومة عن مهامها الأساسية في إدارة الاقتصاد والتنمية بمؤسسات ونظام للتخطيط واضح الأهداف والسياسات والصلاحيات ويسمح بالمشاركة في اتخاذ القرارات. ألا يفضح المشروع سعي الحكومة الدائم لتشويه وتزييف الذاكرة الوطنية بتجارب العراقيين في إقامة المشاريع الإنتاجية والخدمية العامة التي أسهمت في زيادة النمو الاقتصادي وفرص العمل، وفي تحسين مستويات المعيشة بمعايير الدخل والتعليم والصحة والرفاهية الاجتماعية وتوفير الكهرباء والماء والسكن، والتي تحققت في أنظمة سياسية متباينة – مع أهمية عدم إهمال التأثيرات السلبية لمساوئ القمع السياسي لهذه الأنظمة باختلاف الدرجة – كانت تهتدي بأهداف وسياسات اقتصادية واجتماعية واضحة وملزمة وأداء مهني ناجح في تنفيذ برامج الاستثمار لمجلس الإعمار ومناهج الاستثمار السنوية في خطط التنمية خلال السنوات (1951-1979)[4]. وما يثير الشفقة، إستعارة أسم "مجلس الإعمار" للإيحاء بالتماثل مع واقع الخمسينيات وإهمال تخطيط التنمية في الستينيات والسبعينيات. أليس واضحاً تغطية القانون الدوافع الذاتية الضيقة في تأسيس شركة مساهمة تستأجر خدمات رئيس الحكومة الإدارية لتمويل وبيع المشاريع العامة واستثمارات المستقبل.

يَعلمُ الجميع منذ عام 2003، أن الرافعة الوحيدة لدوامة العملية السياسية، ولبقاء السلطة الحاكمة والأحزاب السياسية المهيمنة، ولترويج الثرثرة الغبية في تدني الأخلاق وإهمال الدين والعزوف عن العمل المنتج، لتبرير فشل برامج وسياسات الإصلاح، هي استغلال قوة الثروة النفطية وممارسة العَبث في إنفاق الإيرادات النفطية الوفيرة بدوافع الإمتيازات الذاتية وحماية المصالح المالية والسياسية للسلطة. وللأهمية، نلحظ دائماً، استقلالية السياسة النفطية في الإنتاج والتصنيع والتصدير بعزلها عن أهداف الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية "الغائبة" والتملص من الإلتزام بمعايير الإنفاق العام والاستثمار في المشاريع الحكومية[5]. ومن هنا، لا يمكن مناقشة مشروع القانون دون التأكيد على مسألتين: الأولى، أهمية الثروة النفطية في معالجة أزمة الاقتصاد الوطني الهيكلية المتفاقمة من خلال الاستثمار الحكومي في مشاريع الإنتاج الصناعية والزراعية والخدمية ومشاريع البنية الأساسية. والمسألة الثانية، البحث في بديل جذري للسياسات المالية والنقدية الكلية وسياسة الاستثمار والتجارة الخارجية التي يجري تطبيقها والتي أدت إلى تبديد الثروة النفطية وتفشي الفساد واستنزاف العملة الصعبة في الاستيرادات المتزايدة واستقدام العمالة الأجنبية.

ثانياً: التَفْريطُ بالمشاريع العامة والثروات الوطنية وتَكْريسُ الفساد

لم يَعُدْ ذو قيمة، عملية أو مهنية، إعلان الحكومة عن مشروع القانون في محاولة جديدة لتغطية الفوضى في إدارة الاقتصاد والتنمية والتنصل من مسؤولية نتائجها الوخيمة، كما كانت محاولات تشريع قانون شركة النفط الوطنية العراقية "الملغى"، وقانون خطة التنمية الوطنية (2018-2022) المُرتَبك والمُربِك، ومتاهات البرنامج الحكومي (2018-2022) الذي يُكرس أزمة الاقتصاد الهيكلية، وتشكيل مجلس محاربة الفساد فاقد المصداقية. ولم يَعُدْ مُفيداً تقديم النصيحة للسلطات التنفيذية والتشريعية بأن مصدر الفشل والفساد ينبع من العَبث السياسي في تبديد الثروة النفطية والأصول الإنتاجية لمشاريع القطاع العام نتيجة تدهور المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية، وغياب الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية ومعها أولويات ومعايير الاستثمارات الحكومية، والتضليل الدائم بفاعلية السوق التنافسية وتشجيع القطاع الخاص بغطاء السياسات "الليبرالية الجديدة" وفروعها التي يستند إليها برنامج وسياسات الإصلاح الاقتصادي المُعد من صندوق النقد الدولي. وبرأينا، المهم في توقيت المطالبة بتشريع القانون وما صاحب حزمة إجراءات الإصلاح الحكومية لتخفيف ضغط المتظاهرين الشباب، أنها تؤرخ حدث إنهيار المؤسسات وسرعة تفاقم أزمة النظام المُرَكَبَة: سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وبيئياً وثقافياً، في دولة تمتلك الثروة النفطية الوفيرة، مصدر الطاقة الرخيصة في العالم، وتحتل موقعاً جيوسياسياً استراتيجياً، ويعيش فيها شعبُ يمتلك الطاقات والحماسة في العمل المنتج. فمشروع القانون يجمع صفات تثير الكثير من التساؤل والشك، منها: نقص المَعرفة بإدارة الاقتصاد والتنمية الوطنية، وغياب مؤشرات جدوى المشاريع الحكومية، وتجاهل مجالات ومتطلبات ومعايير الاستثمار لدى القطاع الخاص، وإغفال شروط توطين الاستثمار الأجنبي المباشر، والغموض في الأهداف، والحذلقة في التعبير اللغوي، والخلط بين مهام الحكومة المَعروفَة وبين أهداف شركة قابضة يمتلكها "مجلس الإعمار" لتمارس نشاط مالي بتمويل الموارد العامة. أي تسلية أو كارثة هذه؟ فمشروع قانون مجلس الإعمار، ليس كما يتذاكى المشاركون في إعداده من الوزراء والسياسيين والاقتصاديين والقانونيين بأسلوب قد يظن بعضهم أن الغموض في الأهداف والمتطلبات يضاهي فلسفة التصوف، كما في "طواسين الحلاج" التي يصعب تحليلها، إنما "مجلس الإعمار" المقترح في القانون، وببساطة شديدة، لا يعدو عن كونه صيغة ضبابية لشركة قابضة تمتلك وتبيع شركات مشاريع القطاع العام، وتمتلك الأسهم في شركات تندرج أعمالها في الاستثمار بمشاريع البنية الأساسية الحالية والمستقبلية بتمويل الإيرادات النفطية للمتاجرة في بيعها.

Privatization, Capital Projects and Infrastructure Holding Company

ويدير المجلس "الشركة" – الشركة تورية لإسم المجلس - رئيس الحكومة ووزراء المالية والنفط والتخطيط والأمين العام لمجلس الوزراء والمدير التنفيذي وخمسة ممثلين عن القطاع الخاص يختارهم الرئيس. وتمارس "الشركة" أعمالها بطرق وأساليب مختلفة لخصخصة مشاريع القطاع العام ولتمويل وبيع الأصول الإنتاجية العامة بصيغ مشاريع استثمار في المستقبل[6]. ويلاحظ في القانون، عدم تفرغ أعضاء المجلس "الشركة"! مع تأكيد سرية قراراتها!

ثالثاً: ألغاز وألغام مشروع القانون

يُفيد فَك أهم الألغاز والألغام "الطلاسمية" الواردة في المشروع، دون التَقَيد بترتيب تسلسلها في النص، والبدء بتقديم عرض عام لطبيعة أهداف المشروع الملتبسة، وكالتالي:

1. تشير الأسباب الموجبة (صفحة 13) وأهداف المشروع (الفصل الثاني المادة 3) والأحكام المالية (الفصل الخامس) ومهام المجلس (الفصل الرابع) والأحكام العامة (الفصل السادس) إلى تغطية الأهداف الحقيقية للمجلس "الشركة"، كما يدل على ذلك الغموض والخلط والتناقض، والشمولية أيضاً في طبيعة المشاريع التي سيتولى المجلس "الشركة" مسؤولية تشييدها، في مقابل مصادر التمويل "الخفية" في إنشائها وتملكها. ففي الأسباب الموجبة، تشير وثيقة المشروع إلى أن المجلس "الشركة" تستهدف " تنفيذ المشاريع الكبرى، وحسن تخطيط وإدارة وإشراف وتشغيل، وخلق فرص العمل، وتنمية مهارات العاملين، وتعظيم استفادة المواطنين العراقيين من موارد الدولة من خلال توزيع أرباح المشاريع عليهم ومنحهم الأولوية بالإكتتاب في مشاريع المجلس، وتنفيذ مشاريع التنمية..إلخ"، وتشير الوثيقة أيضاً، إلى "تعزيز الجهود لجعل القطاع الخاص العراقي والأجنبي ممولاً أساسياً للمشروعات دون الاعتماد الكلي على الموازنة الاستثمارية للدولة". وعن أهداف المشروع، تشير الوثيقة ما يماثل الأسباب الموجبة" مع إضافة التالي "زيادة معدلات الاستثمار الخارجي المباشر وغير المباشر في العراق"، و"وضع سياسات وطنية للإعمار والاستثمار بموافقة مجلس الوزراء". وتتسع مهام المجلس "الشركة" (المادة 10) لتشمل "التفاوض والتعاقد وفق مبادئ المنافسة والشفافية والرصانة والعدالة وتحقيق أعلى قيمة ربحية أو تنموية، مع الجهات العراقية أو الأجنبية لتحقيق أهدافه بما في ذلك التعاقد مع المنظمات الدولية وشركات الخبرة الرصينة الدولية... ولا تسري عليها التشريعات ذات الصلة التي تنظم تعاقد الجهات الحكومية"، و"توفير تمويل أو ضمانات تمويل أو تسهيلات مالية للمشاريع المشمولة بأحكامه بالتنسيق مع المؤسسات المالية العراقية والأجنبية"، "والموافقة على تمويل أو ضمان تمويل مشاريع المجلس مقابل ضمان سيادي بموافقة مجلس الوزراء"، "والتعاقد مع الشركات والمؤسسات داخل العراق وخارجه لشراء واستئجار الأموال المنقولة وغير المنقولة اللازمة لتحقيق أغراضه". وفي المهام أيضاً، تشير الوثيقة إلى أن المجلس "الشركة" ولتحقيق أهدافها تعتمد على "التأسيس والاستثمار والمشاركة والشراكة في الشركات الخاصة والمختلطة والعامة بضمنها الشركات القابضة أو الصناديق أو المصارف أو المشاريع عيناً

أو نقداً"، "وبيع الأسهم والأرباح لتحقيق أهدافه على أن تكون الأولوية لنقل ملكية أسهم مشاريع المجلس للمواطنين العراقيين عند الإكتتاب أو الإصدار أو نقل الملكية" "وتوزع أرباح الأسهم المملوكة للمجلس في مشاريعه للمواطنين العراقيين بدون مقابل". وفي الأحكام المالية، تشير الوثيقة إلى أن مصادر التمويل تشمل " 5% من إجمالي الإيرادات المدرجة في الموازنة العامة الإتحادية السنوية"، "وتخصيصات مشاريع الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة والأقاليم والمحافظات غير المنتظمة في إقليم" – لاحظ أن المشروع يفترض وجود أقاليم وليس فقط إقليم كردستان- وتشير أيضاً، إلى "الأموال المخصصة للمجلس المنصوص عليها في التشريعات النافذة أو المودعة في صناديق خاصة بذلك وفق القانون". وفي الأحكام العامة، تشير الوثيقة إلى منح المجلس "الشركة"، صلاحية "الطلب من مجلس الوزراء تخصيص الأراضي لمشاريعه ويشمل ذلك ملكية الأرض وتغيير جنسها وإلغاء تخصيص قطع الأراضي المخصصة للوزارات أو للجهات غير المرتبطة بوزارة أو الأقاليم أو المحافظات غير المنتظمة في إقليم إذا كانت تلك الأراضي غير مستخدمة أو أقيمت عليها مشاريع متلكئة".

2. تشمل المشاريع المقترح إنشائها بواسطة المجلس "الشركة" (فقرة ثالثاً المادة 14): "مشاريع الإسكان، والمشاريع الصناعية الكبرى، ومشاريع النقل: الموانئ والمطارات والسكك الحديدية والنقل النهري والبحري وشبكات الطرق والأنفاق للأفراد والبضائع والمترو، ومشاريع المدن الصناعية، ومرافق إنتاج الطاقة ونقلها وتوزيعها (أي مشاريع الكهرباء) والمدن الطبية والتعليمية، والقنوات المائية والسدود، وأخرى غيرها".

3. ومن مهام المجلس "الشركة" التي تثير القلق ما ورد في (الفقرة سابعاً من المادة 10) عن طريقة تنفيذ المشاريع "بأسلوب التشييد والتملك والتشغيل ونقل الملكية"، إذ يمكن في هذه الحالة خصخصة أي من المشاريع المقترح إنشائها من الصناعات النفطية والكهرباء ومشاريع النقل والسدود.. الخ وتمليكها للشركات الأجنبية.

4. وما ورد في وسائل تحقيق أهداف المجلس "الشركة" عن التأسيس والاستثمار والمشاركة والشراكة من الألغاز الغامضة، عبارة: "بضمنها الشركات القابضة أو الصناديق أو المصارف أو المشاريع عيناً ونقداً"، كيف للمجلس "الشركة" أو الحكومة أن تمارس أعمال الشركات هذه! أي تفسير يبرر الخلط بين مهام الحكومة السياسية في إدارة مصالح المجتمع العامة والإنغماس في تملك وبيع الأسهم في المشاريع العامة للقطاع الخاص الوطني وللشركات الأجنبية بتمويل الإيرادات النفطية.

5. من الواضح في مصادر التمويل الهامة: أن نسبة 5% من إجمالي الإيرادات المالية في الموازنة المالية الإتحادية، (أي 5% من إجمالي الإيرادات النفطية وغير النفطية العامة بما فيها القروض الأجنبية) تعادل ما نحو خمسة مليار دولار سنوياً، بالإضافة إلى إجمالي تخصيصات مشاريع الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة وإقليم كردستان والمحافظات، أي تحويل جميع الإيرادات المالية المخصصة لتمويل جميع المشاريع من السنوات السابقة والتي لم

يتم تنفيذها، والتي لم نجد قيمتها الكلية البالغة بالعديد من المليارات. كما أن مصدر التمويل من موارد أخرى، يخفي لغز التمويل من الاستثمارات الأجنبية في الصناعات النفطية أو في الصناعات الأساسية الاستراتيجية، التي يحتفظ بأسرارها فقط رئيس وأعضاء المجلس "الشركة" حيث لا يستطيع الرأي العام الإطلاع على قرارات المجلس، أية "شفافية" هذه!

6. نلحظ في الأحكام العامة صلاحية المجلس "الشركة" في المطالبة بتخصيص الأراضي للمشاريع وتغيير جنسها. ولعدم الوضوح في أسباب تغيير جنس الأراضي يدفع للشك بعلاقة هذا الطلب بتمليك الأراضي الزراعية العائدة للدولة، ومن هم المستفيدون؟ أو لتشييد العقارات والمراكز التجارية، وكما أشير عن السياسة الزراعية في البرنامج الحكومي[7].

7. أما الإشارة إلى بيع أسهم المشاريع والإكتتاب فيها والإدعاء بتفضيل المواطنين في شرائها، فيمكن الجزم بأن من سيمتلك الأسهم هم فئة أثرياء السلطة ما بعد 2003 من الفاسدين الجشعين، وليس المواطنين الفقراء الذين يشكلون نحو ثلث السكان وبقية المواطنين الذين لا يملكون الدخل المعيشي المناسب والمدخرات التي تتيح لهم فرصة الإكتتاب وشراء الأسهم في هذه الشركات. نعلم، وببساطة، أن الإيهام بهذه الأسهم وتوزيع الأرباح، كما كان الإدعاء الكاذب سابقاً في قانون شركة النفط الوطنية العراقية "الملغى" أو الاقتراحات المتكررة لتوزيع نسبة من الإيرادات النفطية للمواطنين، لا يخفي المُستفيد الحقيقي من تملك أسهم "الشركة" التي يمثلها المجلس "الشركة".

8. يتجاهل المشروع المقترح كلياً معايير الجدوى الاقتصادية والاجتماعية والبيئية وأولويات المشاريع الحكومية، كما يتجاهل أهمية تحديد ونشر تفاصيل هذه المشاريع في إطار برنامج الاستثمار الحكومي السنوي الذي يجب أن يكون مستقلاً عن الموازنة المالية الإتحادية السنوية المتدحرجة تقديراتها لثلاث سنوات، كما يجري العمل بتوجيهات صندوق النقد الدولي.

9. تتجاهل الحكومة منذ عام 2003، حقيقة أن معدل الربح العالي والسريع، وعدم المخاطرة، هي معايير الاستثمار لدى القطاع الخاص الوطني، كما أن إمكانياته المالية والفنية محدودة، ولذلك، يقتصر نشاط القطاع الخاص الآن، وفي المدى المتوسط، في تجارة الاستيرادات والاستثمار في تشييد العقارات لتأجيرها وفي الخدمات الشخصية[8]، وجميعها أنشطة لا تسهم في زيادة فرص العمل والدخول والصادرات، كما أنها لا تسهم إطلاقاً في التنويع الاقتصادي الهيكلي لتقليل الاعتماد الكبير على صادرات النفط الخام. لذلك، كانت الضرورة القصوى لضخ الاستثمارات الحكومية في مشاريع الصناعات التحويلية المتقدمة تكنولوجياً ومشاريع البنية الأساسية المادية (الاقتصادية) والخدمات التعليمية والصحية والضمانات الاجتماعية ومشاريع تنمية الموارد الطبيعية، الضرورية لتطوير نشاط القطاع الخاص وإطلاق المبادرات التنظيمية المنتجة.

10. يجب التنبيه إلى مخاطر المجلس "الشركة" التي تستهدف بالدرجة الأولى "زيادة معدلات الاستثمار الخارجي المباشر وغير المباشر في العراق"، كما ورد في

مشروع القانون. فالاستثمار الأجنبي المباشر وغير المباشر معني فقط بقطاع إنتاج وتصنيع وتصدير النفط الخام سواء بالمشاركة أو التملك الكامل بسبب معدلات الأرباح العالية التي يحققها من ناحية، وأيضاً للتحكم في قوة الثروة النفطية وممارسة تأثيراتها، محلياً أو خارجياً، لأسباب اقتصادية أو جيوسياسية أو استراتيجية. ومن المغالطة الفجة، والإيحاء الكاذب بأن العراق، الآن أو بعد سنوات قليلة، يمتلك المتطلبات اللازمة لتوطين الصناعات المتقدمة وتحديث الزراعة من خلال جذب الاستثمار الأجنبي المباشر. فالاستثمار في الصناعات النفطية والتحويلية وتحديث الزراعة لن يتحقق دون التمويل من الموارد العامة إذا تجنب النظام الحاكم الخضوع لضغوط التمويل الخارجي، واستهدف تقليص الإعتماد الكبير على صادرات النفط الخام في تمويل الإنفاق العام.

11. واضح، أن مشاريع المجلس "الشركة" تتلخص في أولوية خصخصة مشاريع القطاع العام الصناعية قبل إعادة تقييمها أو تأهيلها، ثم تمويل وبيع مشاريع الإنتاج والبنية الأساسية المستقبلية. ولعل في غياب وزارات الصناعة والزراعة والنقل وغيرها من الوزارات وممثلين عن القطاع العام من عضوية المجلس "الشركة"، ما يكشف النزعة الفردية والمصلحية الضيقة بتجنب آراء بقية الوزارات والمؤسسات المعنية المعارضة لخصخصة مشاريع القطاع العام أو التي لا توافق على تأسيس مشاريع جديدة باستخدام أسلوب التشييد والتملك والتشغيل ونقل الملكية، كما في احتمالات بناء محطات الكهرباء، والموانئ والمطارات أو غيرها. في ضوء هذا الغموض والتناقض، ألا يثير الشك بأن المجلس "الشركة" تحمل جعبة من المشاريع العامة "الخفية" وتعمل لتسويقها لزبائنها؟

رابعاً: سمات المشروع الاقتصادي الوطني البديل

برأينا، ما يستحق الإهتمام هنا، ليس فقط مناقشة مشروع "قانون مجلس الإعمار" المُعيب، بل الأكثر أهمية، تصويب الإهتمام في أسباب أزمة النظام الخانقة، وخاصة تفاقم الأزمة الاقتصادية الهيكلية[9]، والدعوة لإيجاد بديل للسياسات المالية والنقدية الكلية وسياسة الاستثمار والتجارة الخارجية والقرارات الاقتصادية الفردية التي يجري تطبيقها منذ 2003. البالغ الأهمية، إيقاف العَبث السياسي في الموارد العامة وإنهاء فشل المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية في إدارة الاقتصاد والتنمية والقضاء على الفساد. نُدرِكُ، إن من السذاجة مناقشة الحكومة وإقناع الطبقة السياسية في أهمية التغيير الجذري في سياساتها واعتماد سياسات جديدة ومعايير أولويات واضحة للحد من القرارات بدوافع ذاتية ومصلحية ضيقة. ولذلك، يبقى دائماً تأكيد الضرورات الموضوعية والمتطلبات المهنية لتقديم المشروع الاقتصادي الوطني البديل.

ولزيادة الإيضاح، وفي الأجل القصير، يمكن البدء بالمشروع الاقتصادي الوطني "مُشْرِقْ"[10] أو اختيار أي مشروع اقتصادي بديل آخر، يُوظف قوة المُلكية العامة للثروة النفطية في تمويل مشاريع التنويع الاقتصادي الهيكلي لتقليل الاعتماد على قطاع صادرات النفط الخام (والغاز مستقبلاً) وذلك بإنشاء الصناعات التحويلية المتقدمة تكنولوجياً

وتحديث الإنتاج الزراعي وإقامة مشاريع البنية الأساسية المادية (الاقتصادية) والاجتماعية والبيئية: الطرق والكهرباء ووسائل النقل والاتصالات، خدمات التعليم والصحة والضمانات الاجتماعية العامة، وتنمية الموارد الطبيعية من المياه والأراضي الزراعية وحماية الصحة البيئية. فهذه المشاريع هي الكفيلة ببناء الاقتصاد، وزيادة النمو وفرص العمل، وإنهاء الفقر، وتقليص التباين في الدخول والثروات بين المواطنين والمناطق، والحد من الفساد، وتسوية الدين العام المحلي والقروض الأجنبية، وتحسين القدرة التنافسية للاقتصاد الوطني في الأسواق المحلية والخارجية. وهنا ليس خفياً أو معيباً، تأكيد أن هذه المشاريع الحكومية الحيّويَة جداً، لا تناسب معايير الربح والمخاطرة وسرعة العوائد المحفزة لاستثمارات القطاع الخاص الوطني، وأنها ضرورية ليس فقط لتطوير القطاع الخاص الوطني في المستقبل، بل وأيضاً، لتوطين الاستثمار الأجنبي المباشر في الصناعات المتقدمة تكنولوجياً. كذلك، ليس غامضاً، أن الاستثمار في إنتاج وتصنيع وتصدير النفط الخام والغاز، يجب أن يكون دائماً جزءاً متكاملاً في أهداف الاستراتيجية والسياسات الاقتصادية "الغائبة".

ولزيادة الإيضاح، يستهدف "مشروع "مُشْرِقْ" تحقيق التالي:

• الحفاظ على المُلكية العامة للثروة النفطية، كبقية الثروات الطبيعية، وتنظيم استغلالها بما يؤمن استدامة النمو والتنمية والحفاظ على حقوق الأجيال القادمة فيها.

• زيادة القدرة التنافسية للاقتصاد الوطني بتحريره من هيمنة الريع النفطي بإيجاد طاقات جديدة للإنتاج وللصادرات مع ترشيد آليات السوق لاستدامة النمو وفرص العمل.

• تأهيل التخطيط الاقتصادي المركزي الحديث: منهجياً وأبعاداً وأساليب فنية وبمشاركة سياسية ديمقراطية من خلال مجلس التخطيط والبرلمان للتعبير عن المصالح العامة، وتأهيل نظام اتخاذ القرارت في تحديد السياسات الاقتصادية، ومنها السياسة النفطية، مع وضوح معايير الجدوى في الاستثمارات الحكومية بمشاريع البنية الأساسية، والتصنيع المتقدم تكنولوجيا، وتنمية الموارد البشرية والطبيعية.

• توفير البيئة المناسبة لتشجيع استثمارات القطاع الخاص الوطني وتفعيل آلية السوق لتحسين كفاءة توزيع الموارد.

• الإسهام في مكافحة الفساد باستئصال دوامة تبعثر السياسات والإجراءات الاقتصادية والمالية المُعيبة وتجريد مصادره المالية من حاضنة السلطة السياسية وكافة المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية.

• كما يسهم المشروع "مُشْرِقْ" في تحسين الخدمات التعليمية والصحية والرعاية الاجتماعية والمنافع العامة، وفي تقليص التفاوت في الدخول والثروات، بتأكيد المضمون الاقتصادي للعدالة الاجتماعية.

• وفي المحتوى السياسي، فإن المشروع "مُشْرِقْ" يسهم في تمكين السلطة السياسية الوطنية النزيهة الديمقراطية من تعزيز استقلالية السياسات والقرارات الاقتصادية في مواجهة المصالح والضغوط الخارجية.

وللذين لم تسنح لهم فرصة التعرف على تجارب مجلس الإعمار "الحقيقي" ومجالس التخطيط خلال الفترة (1951 - 1979)، نؤكد أن الكفاءات الاقتصادية والهندسية المهنية، وبإرادة سياسية وطنية مستقلة

قوية نزيهة، تستطيع وبسرعة إعداد برامج الاستثمار الحكومية للمناطق الفقيرة التي يشمل كل منها، مشاريع لتوفير فرص العمل المنتج والدخل الكريم والاسهام في بناء الوطن، خلافاً لأسلوب الحكومة الردئ – ينذر هذا الأسلوب بانهيار المؤسسات كافة - والذي يفتقد الاحساس بكرامة المواطن واحتقار مطالبه بتقديم المنح الضئيلة للشباب العاطل عن العمل، وللأسر الفقيرة، والتي لن تُفيد كثيراً.

خامساً: إنهاء التفريط بمشاريع القطاع العام والثروة الوطنية

نُعيدُ التأكيد، وكما يَعلَمُ الجميع، أن الثروة النفطية، هبة الطبيعة، مُلكية عامة يحق لجميع المواطنين الانتفاع منها بعدالة سواءاً في توزيعها من خلال الموازنة المالية الإتحادية السنوية، وفيها الاستثمار الحكومي في المشاريع الإنمائية. ولذلك، ينبغي أن تستهدف السياسات الاقتصادية، كما في أي نظام اقتصادي يدار بالدستور والمؤسسات، تحقيق الكفاءة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية في الاستثمار بمشاريع القطاع العام والبنية الأساسية من جهة، وتفعيل آلية السوق وحرية القطاع الخاص وفي إسهام شركات الأعمال في المسؤولية الاجتماعية. ولهذا، لا يجوز للسلطة الحاكمة تعبئة وتوزيع الإيرادات النفطية، وهي المحرك الرئيسي للنشاط الاقتصادي، بأنماط تتجاهل التوفيق بين الكفاءة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية، وتتحيز لأفراد أو لفئة أو طائفة من المواطنين أو لمنطقة أو محافظة أو لأحزاب سياسية معينة. لهذا، يجب ممارسة التخطيط الاقتصادي المركزي بكل ما يشمله من أهداف وسياسات وبرامج ومشاريع حكومية بديلاً للسياسات الحالية المبعثرة في متاهات نقص المَعرفة وتدني الكفاءة، وضياع هوية النظام الاقتصادي، والتضليل بملاءمة برامج وسياسات الإصلاح الاقتصادي وآليات السوق التنافسية في استنزاف الموارد المالية العامة وخصخصة مشاريع القطاع العام.

فداحة الإنهيار المتوقع، وهو قادم بالتأكيد إذا لم يتم إصلاح النظام السياسي، هو في تبديد الموارد البشرية بارتفاع معدلات البطالة، واتساع الفقر، وإهمال التعليم والتدريب المهني والصحة وتردي نوعية الحياة، وفي استنزاف الثروة الوطنية المتراكمة والمستقبلية بزيادة الديون العامة وبيع الأصول الإنتاجية لمشاريع القطاع العام الحَيويَة ولمشاريع البنية الأساسية، وتمكين الشركات المالكة، وخاصة الأجنبية، من التحكم بمستقبل الاقتصاد وسياسات الدولة. وللأسف الشديد المؤلم، إنه أسوأ أنواع الفساد والإنهيار.

الهوامش:

1 - نشر قرار مجلس الوزراء في موقع جريدة الصباح الرسمية بعنوان "مجلس الوزراء يصادق على مشروع مجلس الإعمار" بتاريخ الثلاثاء 17 /9 /2019 ونشر في موقع أخبار العراق - وكالة الأنباء العراقية، ومواقع الانترنيت العراقية منها، بغداد اليوم، وشفق نيوز، وقناة السومرية. ويثير الدهشة، أن لا نجد في موقع رئاسة مجلس الوزراء نص القرار المتخذ في جلسة الثلاثاء 17 /9 /2019، وأيضاً، لم نجد نص مشروع قانون مجلس الإعمار. ومع ذلك، نشر نص المشروع في موقع آفاق الإخباري بتاريخ الأربعاء 18 /9 /2019 https://afaq.tv/contents/view/details?id=98904)). يذكرنا أسلوب الإعلان عن المشروع بمثل الأسلوب الملتبس في تقديم قانون شركة النفط الوطنية المعيب.

2 - أنظر: أبرز النتائج التي تمخضت عن اجتماع الرئاسات الثلاث مع قادة الكتل السياسية، المنشورة في موقع الحركة الديقراطية الآشورية بتاريخ 3 /أكتوبر/2019، حيث ورد النص التالي: "دعم الحكومة ومجلس النواب لتحقيق الإصلاحات البنيوية الاقتصادية والحكومية وتلبية التطلعات المشروعة للشعب ووضع برنامج وخطوات عمل حقيقية وبجداول زمنية لتحقيق هذه المطالب على أرض الواقع تحديدا. الشروع الفوري باقرار قانون مجلس الإعمار".

3 - أنظر: صبري زاير السعدي، "تفاقم أزمة الاقتصاد الوطني والانقياد نحو حافات الإنهيار في تقديرات صندوق النقد الدولي (2018 - 2024)"، مقالة نشرت في البديل العراقي بتاريخ 16 /8 / 2019 (www.albadeeliraq.com)، وفي موقع الأخبار العراقية بتاريخ 17 /8 /2019 (http://www.akhbaar.org)

4 - عن تفاصيل أداء برامج مجلس الإعمار خلال عقد الخمسينيات وخطط التنمية في الستينيات والسبعينيات، أنظر: صبري زاير السعدي، "التجربة الاقتصادية في العراق الحديث: النفط والديمقراطية والسوق في المشروع الاقتصادي الوطني (1951 - 2006)"، دار المدى، دمشق وبغداد 2009.

5 - حول هذا الموضوع، أنظر: صبري زاير السعدي، "العراق: السياسة النفطية في غياب الرؤية الاستراتيجية الاقتصادية المستقبلية، نشرت في العدد 488 (تشرين الأول/أكتوبر 2019)، مجلة "المستقبل العربي" الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان. ونشرت أيضاً في موقع البديل العراقي بتاريخ بتاريخ 28/ 9/ 2019 (www.albadeeliraq.com) وموقع الأخبار العراقية بتاريخ 28 /9 /2019 (http://www.akhbaar.org)

6 - تجدر الإشارة إلى أن الأفكار الأولية لهذا المشروع كانت قد تأسست بالدعوة المطلقة للتحول نحو اقتصاد السوق بدون شروط منذ عام 2003، ثم تبلورت تدريجياً مع تطور الأحداث وتزايد الفشل والفساد في تصريحات في السنوات الأخيرة لمسؤولين ومبادرة البنك المركزي العراقي التي تطورت بعدئذ من قبل مصرف الرافدين الحكومي لتصبح أقرب لأهداف المشروع. وما يؤكد هذا التحول الهام، إعلان مصرف الرافدين عن تمويل مشروع مترو بغداد والقطار المعلق عن طريق البنك المركزي بتكلفة 5 ترليون دينار (نحو 4.247 بليون دولار) وتمليكه بعد تنفيذه إلى أحد المستثمرين كفرصة استثمارية وإعادة المبالغ بفوائدها، ما يدل على أنماط توزيع الإيرادات النفطية، بصورة مباشرة أو غير مباشرة مباشرة، لتمويل القطاع الخاص من خلال إنشاء المشاريع الخدمية والصناعية كمشروع مترو بغداد والقطار المعلق وتطوير معامل الأسمنت والزجاج والبتروكيمياويات، ومنحه حق ملكية هذه المشاريع. أنظر: "الرافدين يعتزم تمويل مترو بغداد بـ 5 ترليون دينار"، جريدة الصباح الجديد، العدد 4150 وتاريخ 9 أبريل/نيسان 2019. وكان محافظ البنك المركزي العراقي قد أعلن عن تأسيس صندوق إقراض مشترك لتمويل المشاريع المهمة، مثل إنشاء الفنادق والمستشفيات وبناء المدارس، برأس مال قدره 500 مليار دينار (نحو420 مليون دولار) تشارك فيه المصارف وعددها 70 بنحو 4 مليارات دينار (3.4 مليون دولار) لكل منها. ويستطيع الصندوق منح القروض بفائدة 10 بالمئة. أانظر: جريدة المدى العراقية بتاريخ 21 /12 /2017.

7 - حول هذا الموضوع، أنظر: صبري زاير السعدي، "البرنامج الحكومي: تكريس أزمة الاقتصاد وتوأم الفشل والفساد"، نشر في جريدة الأخبار العراقية الإليكترونية بتاريخ 10 /4 /2019 (http://www.akhbaar.org) وفي موقع البديل العراقي بتاريخ 11 /4 /2019 (www.albadeeliraq.com)، ونشر في شهر حزيران/ تموز في العدد 406 مجلة "الثقافة الجديدة"، بغداد، العراق.

8 - حول أهم مظاهر النشاط الاقتصادي للقطاع الخاص، أنظر: "العراق: السياسة النفطية في غياب الرؤية الاستراتيجية الاقتصادية المستقبلية"، المصدر السابق.

9 - أنظر: "تفاقم أزمة الاقتصاد الوطني والانقياد نحو حافات الإنهيار في تقديرات صندوق النقد الدولي (2018 - 2024)"، المصدر السابق.

10 - حول المشروع الاقتصادي الوطني، أنظر على سبيل المثال الأحدث في النشر العام: صبري زاير السعدي، "الثروة النفطية والمشروع الاقتصادي الوطني في العراق: بديل الاقتصاد السياسي للريع النفطي"، دراسة نشرت في العدد 480 (شباط/فبراير 2019)، مجلة "المستقبل العربي" الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان.

خصخصة الكهرباء بين الواقعية والتجريب

ابراهيم المشهداني

ابراهيم المشهداني بكالوريوس في الاقتصاد من الجامعة المستنصرية عام 1974/1973، وخبير اداري.

يعتبر توفير الكهرباء الخدمة الاولوية الاكثر احتياجا بين البرامج الحكومية بعد دحر الارهاب الداعشي وتصفية الوطن من ادران هذا الوباء الفكري الاكثر دموية في العالم لارتباط هذه الخدمة مباشرة بحياة الناس اليومية في ظروف الصيف القائظ؛ اذ تكاد تكون درجة الحرارة الاعلى في العالم وعلاقتها بالنمو الاقتصادي. فكل مفصل في العملية التنموية، كبر او صغر، لا يمكن ان تدور عجلته بدون الطاقة الكهربائية سواء في الصناعة او الزراعة وانتاج النفط وكافة الورش الصناعية الصغيرة منها او المتوسطة او المشاريع الكبرى في القطاع الحكومي والاستخدامات الاخرى على تنوعها. ولهذا فان الدولة مطالبة الآن اكثر من اي وقت مضى بان تحشد الجهد الوطني من اجل الوصول الى الاكتفاء الذاتي ومن مختلف المصادر المتاحة.

نبذة تاريخية

دخلت الكهرباء في العراق في عام 1917 ونصبت اول ماكنة كهربائية في بناية (خان دلة) واقتصر توليدها على محركات ديزل قدرة واطئة بتوتر 300 فولت تيار مستمر (dc). بعدها جرى تدريجيا نصب محركات الديزل في مناطق مختلفة في مدينة بغداد منها منطقة السراي والقشلة والمجيدية لإنارة الدوائر الحكومية والمستشفيات الموجودة في باب المعظم وكرادة مريم لإنارة معسكر الرشيد الذي كان يسمى سابقا معسكر الهنيدي. وفي تلك السنة تم انارة شارع الرشيد كأول شارع في بغداد تجري انارته .

في عام 1918 بوشر بتوزيع مقدار معين من الطاقة الكهربائية الى المستهلكين الراغبين في اضاءة مساكنهم بعد ان ازداد الطلب على الطاقة الكهربائية ولهذا تم نصب ثلاث وحدات بمحركات بخارية توتر 3،3 كي في تيار متناوب (ac) في محطة (القاطر خانة) وكانت الاسلاك تمد تحت الارض (تصور ان فكرة مد اسلاك الكهرباء تحت الارض المطروحة حاليا كانت منفذة قبل مائة عام).

ولتوسع توزيع الطاقة بصورة متواترة

تم نصب محطات تحويل (كونفرتور – روتري) في كل من العبخانة ومستشفى المجيدية ومنطقة العلوية لتغذية شبكة المستهلكين بالتيار المستمر (400) فولت اي استعمال خطوط التيار المتناوب 3،3 فولت، كخطوط نقل لشبكة كهرباء بغداد وبعد ذلك بوشر بامرار الاسلاك الى الجانب الغربي من بغداد الكرخ بواسطة قابلوات تحت الماء بالقرب من جسر الشهداء .

- في عام 1928 منح الامتياز لشركة التنوير والقوة الكهربائية المحدودة لمدينة بغداد بالطاقة الكهربائية.

- في عام 1931 تم انشاء محطة الصرافية بنصب محطتين كهرومائيتين سويسرية الصنع تنتج كل مها 2،5 ميكا واط وتم الافتتاح في في عان 1933.

- في عام 1937 تم نصب وحدة ثالثة انكليزية الصنع بقدرة 5 ميكا واط ووحدة رابعة سويسرية قدرة 60 ميكا واط ثم الوحدتين الخامسة والسادسة الانكليزيتين قدرة كل منما 12،5 ميكا واط مع المرجلين السادس والسابع خلال الاعوام -1950 1952 لتصل القدرة الكلية للمحطة في عام 1955، 41 ميكا واط .

- في عام 1955 تم تأميم شركة التنوير والقوة الكهربائية المحدودة لمدينة بغداد وسميت محطة كهرباء بغداد وارتبطت في حينها بوزارة المواصلات والاشغال. وبهذا الاجراء تم انشاء القاعدة الاساسية لإدارة الطاقة الكهربائية من قبل القطاع الحكومي انطلاقا من اعتبار الطاقة الكهربائية خدمة تدخل ضمن واجبات الحكومة وليست سلعة.

- في عام 1958 تم تأسيس مصلحة الكهرباء الوطنية التي تولت امتلاك وتشغيل كل من محطات توليد الدبس وجنوب بغداد وخطوط النقل والمحطات الفرعية لها المشيدة من قبل من قبل مجلس الاعمار.

- في عام 1964 تم دمج مصلحة كهرباء بغداد مع مصلحة الكهرباء الوطنية وابدالها بمديرية كهرباء منطقة بغداد على غرار المديريات الثلاث التي كانت ضمن تشكيلات الكهرباء كافة .

- في عام 1987 الغيت المؤسسة العامة للكهرباء الى المنشاة العامة لتوزيع كهرباء بغداد كدائرة من دوائر وزارة الصناعة والمعادن. وفي عام 1999 استحدثت هيئة الكهرباء الوطنية.

- في عام 2004 تم استحداث وزارة الكهرباء .

واقع الكهرباء خلال ثمانينات القرن الماضي

تشير الاحصاءات الى ان حجم الانتاج في عام 1990 (اولى سنوات الحصار) وفق القدرة الانتاجية بلغ 12 الف ميكا واط في حين كان معدل الاستهلاك 5800 ميكا واط مع حمل ذروة 7500 ميكا واط مما يكون الفائض 6200 ميكا واط. وفي عام 1991 كان الانتاج 9500 ميكا واط اما في عام 1994 فقد بلغ معدل توليد الطاقة الكهربائية 3409 ميكا واط مقابل حجم طلب 4653 ميكا واط بتحقق عجز مقداره 1144 ميكا واط اي ما يشكل نسبة 27 في المائة. ومرد هذا الانخفاض في فترة التسعينات نشوب حرب الخليج الثانية وقرارات الحصار التي اتخذها مجلس الامن الدولي بسبب احتلال الكويت.

بعد عام 3003

• في عام 2003 كان معدل انتاج الطاقة الكهربائية في عموم البلاد 2500 ميكا واط. وفي عام 2004 بلغ معدل توليد الطاقة الكهربائية 3828ميكا واط وارتفع في عام 2008 الى 4523 ميكا واط بنسبة تطور بلغت 63 في المائة. في حين ارتفع حجم الطلب من 5442 الى 10 الاف ميكا واط محققا عجزا في امداد الطاقة بلغ 5477 الف ميكا واط اي بنسبة 45 في المائة وتعزو وزارة الكهرباء اسباب ذلك الى اعمال التخريب وتدهور الوضع الامني وانعكاسه على نشاط العاملين في هذا القطاع بالإضافة الى قلة امدادات الوقود من المشتقات النفطية التي تدخل في تشغيل الوحدات التوليدية في معظم المشاريع وصعوبة الحصول على الادوات الاحتياطية التي تتطلبها اعمال الصيانة وتقادم المحطات وشحة المياه وتأثيرها على عمل المحطات الكهرومائية مما ترتب عليه انخفاض الانتاج مقارنة في عام 2007 بنسبة تراوحت بين 34 في المائة و 59 في المائة المتحقق خلال النصف الاول من عام 2008 .

• في عام 2010 كان حجم الانتاج يتراوح بين 5 الاف و6 الالف ميكا واط وان الطاقة المستوردة من دول الجوار بلغت 1000 ميكا واط في حين بلغ حجم الطلب الكلي على الطاقة الكهربائية 12 الف ميكا واط مما يعني عجزا مقداره 6 الاف ميكا واط اي بنسبة 50 في المائة. هذا مع العلم ان جزءاً من الانتاج ومقداره 1500 ميكا واط مخصص للمناطق المستثناة وتشمل المنطقة الخضراء والمستشفيات ومحطات تصفية المياه المخصصة لأغراض الشرب وبعض المرافق الاخرى مؤسسات دينية وما شابه على الرغم من ان المبالغ المخصصة للوزارة عبر الموازنات السوية منذ عام 2003 ولغاية 2010 ، بلغت 12 تريليون و389 مليون دينار اي ما يعادل 8 مليارات ومائتان وتسعة وخمسون مليون دولار وهذا يكفي لا نتاج 10 الاف ميكا واط رغم العجز الذي يقدر كمعدل بـ 4 الاف ميكا واط دون ان ندخل في هذه النفقات التشغيلية والتي بلغت لنفس الفترة 9 تريليون دينار .

• في عام 2011 كان حجم الانتاج 7 الاف ميكا واط فيما كان حجم الطلب الكلي 14 الف ميكا واط حسب تقديرات لجنة الطاقة النيابية بتاريخ 25 /7 /2011.

• في عام 2016 كان حجم الانتاج الكلي 12500 ميكا واط، وبحسب تصريح الناطق الاعلامي لوزارة الكهرباء فان الانتاج في شهر تموز في عام 2017 بلغ ما يقارب 15 الف ميكا واط .

• في الخطة الخمسية للأعوام 2013 - 2017 قدر انتاج الطاقة الكهربائية في عام 2017 بـ 25 الف ميكا واط ما يشير الى عجز مقداره 10 الاف ميكا واط عن القدرة التخمينية .

قانون وزارة الكهرباء

صدر قانون وزارة الكهرباء رقم 53 لسنة 3017 من قبل مجلس النواب ونشر في جريدة الوقائع العراقية بعددها 4443 في 17 /4 /2017 بعد ثلاث عشر سنة استحداث وزارة الكهرباء وقد كان صدوره متأخرا جدا اذ كانت الوزارة طيلة هذه الفترة تعمل بدون قانون يرسم سياستها ويحدد اهدافها وينظم انشطتها. والغريب في امر هذا القانون انه دفع من الحكومة ونوقش في البرلمان

بصمت دون عرضه على الراي العام لإتاحة الفرصة للمواطنين المكتوين بحرارة الصيف القائض واصحاب الاختصاص من المهندسين والاقتصاديين لمناقشة محتوى وابعاد هذا القانون الذي لم يقتصر اهتمامه على وزير الكهرباء او كادر الوزارة بمختلف مستويات عملهم. وما يمكن اثارته في بشان القانون يمكن تلخيصها بنقطتين :

الاولى: ان الاستثمار الخاص الذي تحدث عنه القانون جرى تطبيقه منذ عام 2003 برغم غياب القانون من خلال العدد الهائل من مولدات الطاقة الكهربائية الاهلية قليلة القدرة التي انتشرت في كافة المحافظات العراقية ولكنها تعمل بدون قانون او ضوابط رسمية ما عدا التوجيهات السطحية التي تصدرها مجالس المحافظات بطريقة ابعد ما تكون عن الواقعية والتصرف الرشيد. وترتب من جراء هذه السياسة الحكومية فرض اعباء ثقيلة على امكانيات المواطنين العراقيين الذي جلهم من الفقراء ومحدودي الدخل .

الثانية: كان من الممكن حينما تكون الدولة عاجزة عن تعظيم انتاج الطاقة الكهربائية وفقا للطلب دعوة شركات استثمارية رصينة وعلى اساس عقود خالية من شائبة الفساد لتسد جزءاً من الطلب الكلي مع الاحتفاظ بطبيعة الانتاج الخدمي لا السلعي حتى لا يتحمل المواطن اعباء هذه العملية وتبقى وزارة الكهرباء تقود هذا القطاع الاستراتيجي. والسؤال المهم هنا كيف جرى التصرف بالمبالغ الهائلة التي خصصت لوزارة الكهرباء ومقدارها 40 مليار دولار لغرض الاستثمار وكان بإمكانها انتاج 40 الف ميكا واط وهذا رقم لا يسد حاجة العراق فحسب وانما يمكن تصديره الى دول الجوار. ان كافة الوزراء الذين تقلدوا مسئولية الوزارة مسئولون عن هدر هذا المبلغ الفلكي.

اما اخطر ما ورد في القانون ما نصت عليه المادة 8 التي تتضمن اعادة هيكلة الشركات المرتبطة بالوزارة وتحويلها الى شركات مساهمة والتسليم بمبدأ الخصخصة والتكيف الهيكلي. وهذا النص يجسد في جوهره افرازات ايديولوجية الرأسمالية المعولمة والليبرالية الجديدة التي لم تثبت نجاحها في بلد يتقيد بالنص ويهمل الواقع الملموس كما يجسد الدور الذي تمارسه المؤسسات المالية الدولية المتمثلة بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي اللذين يمارسان انواع الضغوط على البلدان النامية والعراق ليس بعيد عنها، تحت مزاعم الاصلاح الاقتصادي. ويجدر بنا الاشارة الى قرار مجلس النواب رقم (199) في 30 تموز 2012 الذي صدر قبل تشريع القانون بخمس سنوات وسمي في وقتها بقرار خصخصة الكهرباء بدون تمييز بين الاستثمار والخصخصة اللذين يعمل كل منهما في واد مختلف . وقد برر البرلمان بشكل سطحي (بعدما فشلت المساعي التي بذلتها الحكومة لتحسين قطاع الكهرباء خلال السنوات التسع الماضية رغم صرف 27 مليار دولار دون نتيجة تذكر) وبدلا من ان يحمل البرلمان مسئولية الاخفاق على الوزراء الفاشلين الذين عم الفساد في عهدهم راح يحمل نتائج الفشل وهدر هذه المبالغ الهائلة على المواطن العراقي المغلوب على امره، بدلا ان يتولى البرلمان وهو الجهة الرقابية مسائلة الوزراء عن مصير المبالغ المهدورة ان لم نقل المسروقة.

وقفة مفاهيمية حول الخصخصة

عندما يجري الحديث عن الخصخصة باعتبارها عملية نقل الملكية فان الامر ابعد من كونه اجراءا حقوقيا بل هو عملية مزدوجة الطابع ، فمن جهة هو تعظيم الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ومن جهة اخرى تحجيم الملكية الاجتماعية لهذه الوسائل الامر الذي يترتب عليه انتقال الادارة الرئيسية للاقتصاد الوطني الى ايدي القطاع الخاص واعمال آليات السوق واطلاق قوى العرض والطلب ، وبالتالي تمكين رجال الاعمال من السيطرة على مقدرات الاقتصاد الوطني وتخصيص الموارد الانتاجية بين مختلف الانشطة الانتاجية بما يعظم العائد الاقتصادي الخاص (الفردي) لرجال الاعمال في الاجل القصير على حساب العائد الاجتماعي للاقتصاد الوطني في الاجل الطويل. بهذا المعنى فانه لابد هنا من النظر الى عملية نقل الملكية بمعناها السياسي / الطبقي وليس بمعناها الشكلي/ الحقوقي لان عملية النقل هذه يترتب عليها اصطفاف طبقي سياسي جديد بكل ما يحمله ذلك من استحقاقات[1] وهذا بالضبط ما يقف وراء الاسباب الحقيقية التي دفعت البرلمان الى اصدار قراره المنوه عنه في اعلاه حيث بدأت تتشكل في اروقة البرلمان وخارجه لوحة طبقية من المتنفذين الذين اغتنوا بأموال الدولة المنهوبة. كل ذلك جرى دون ان يجيب البرلمان على السؤال الاهم وهو اين ذهبت تلك الاموال ومن المسؤول عن سرقتها وهو الجهة الرقابية الاولى والأدري بملفات الفساد في وزارة الكهرباء. ان تبعات الخصخصة التي نص عليها قانون وزارة الكهرباء ستنعكس بدون ادنى شك على المجتمع بكامله وخاصة الطبقات الفقيرة والمهمشة والشرائح متوسطة الدخل وواطئته فضلا عن تحويل الاف العاملين في الوزارة الى رصيف العاطلين وتوجيه ضربة ماحقة للدستور الذي منع التمييز بين ابناء المجتمع.

سوء في الانتاج وشحة في التوزيع

ان الكميات المنتجة من الطاقة الكهربائية طيلة السنوات الستة عشر الماضية لا تتناسب مع المبالغ الكبيرة التي تزيد على 40 مليار دولار المنفقة لغرض الاستثمار في هذا القطاع الحيوي[2]. ولاشك ان هناك من الاسباب المزعومة التي يجري تسويقها من قبل المسؤولين في وزارة الكهرباء بل وفي الحكومة ولجنة الطاقة في البرلمان العراقي .فحسب المعطيات المتوفرة عن وزارة الكهرباء فان الوزارة قد اعدت خطة مركزية اطلقتها في تشرين الثاني من عام 2006 وللعشر سنوات القادمة بإشراف البرنامج الانمائي للأمم المتحدة والبنك الدولي وتم توسيعها لاحقا الى عام 2030 من خلال تكليف مؤسسة (بارسونز برنكير هوف) مع اعداد التصاميم لقطاعات الانتاج والنقل والتوزيع ونوع محطات الانتاج ومواقعها وربطها مع شبكات نقل وتوزيع الطاقة الكهربائية وتم نشر الخطة على موقع وزارة الكهرباء .ومن الغريب جدا طرح مثل هذه الخطة الطموحة لربع قرن كامل في ظروف العراق في ذلك العام حيث يشهد العراق حربا طائفية قاسية ونشاطا ارهابيا من تنظيم القاعدة واقتصادا راكدا فاقدا لتوازنه اي ان البلاد تمر بظروف لا تحتمل مثل هذه الخطط التي لم تكن سوى ارقاما مسطرة على الورق او مخزونة في اجهزة

الكومبيوتر. ولا شك انها كانت خطة متفائلة من حيث كمية الانتاج المتوقعة بحدود 16 الف ميكا واط وعقود مكملة لشبكات نقل وتوزيع الطاقة الكهربائية اضافة الى تجهيز مراكز سيطرة وتحكم وتشغيل المنظومة الكهربائية ومراكز تدريب وتأهيل العاملين في القطاع على ان تكتمل هذه المشاريع جميعها في عام 2015 .بالإضافة الى ان معظم مشاريع الانتاج في الخطة كانت محطات غازية ذات سعات انتاجية عالية وحديثة تكنولوجيا قابلة للتوسع الى الدورة المركبة مصممة على ان تعمل على كافة انواع الوقود على الرغم من ادراكهم ان هذه المحطات بدورتها البسيطة لا تعمل الا على وقود الغاز وان العراق لا ينتج هذا الوقود فلابد اذن من استيراده من دول الجوار وفي وقتها ليس سوى الجارة ايران هي من تورد العراق بهذا الوقود.

ان الوقود اللازم لتشغيل محطات التوليد كانت مشكلة حقيقية حتى التي تعمل بزيت الغاز لجملة من الاسباب بعضها يتعلق بالوضع الامني المتدهور وضعف الانضباط داخل هياكل الوزارة وكان من الممكن تفعيل العقود القديمة لمشاريع محطات الانتاج البخارية الكبيرة مع الاخذ بنظر الاعتبار مشكلة وفرة المياه كما كان من الممكن التوجه للمحات الحرارية ولكن تبقى مشكلة الوقود هي نقطة الضعف في عملية الانتاج الامر الذي اضطرت وزارة النفط الى استيراد المشتقات النفطية لصالح وزارة الكهرباء من زيت الوقود(الكازاويل) بمقدار 4-3 مليون لتر يوميا مما يترتب عليه خسارة ملياري دولار سنويا .

ومشكلة انتاج الكهرباء في الحقيقة تتوزع بين وزارتي الكهرباء من الناحية الفنية والادارية ووزارة النفط المكلفة بتوفير انواع الوقود لمحطات الكهرباء ومنها الغاز الطبيعي وقد اتضحت المشكلة خاصة بعد المباشرة في تنفيذ المرحلة الثانية من محطات الانتاج الغازية والمعروفة بالدورة المركبة لذا يتوجب على وزارة النفط الاسراع في استثمار الغاز الطبيعي المصاحب والغاز الطبيعي المستخرج من الحقول الغازية وفقا لما جاء في الخطة الاستراتيجية للطاقة االتي انجزتها هيئة المستشارين في مجلس الوزراء التي تم اصدارها في عام 2012[3]. ويتضح من كل ما تقدم ان من السهل رسم الخطط والنفخ فيها ولكن من الصعب تنفيذها فالخطط ليست ارقاما صماء انما هي ظروف ومستلزمات وآليات عمل وادوات ومتابعة وحساب.

هل الخصخصة هي الحل لمشكلة توزيع الطاقة الكهربائية ؟

نجد هنا ضرورة توضيح اهمية قطاع توزيع الطاقة الكهربائية فهذا القطاع يتولى عملية استلام الطاقة من محطات التحويل للجهد العالي 132/33/11 ك.ف. ونقلها عبر خطوط ذات جهد 33 ك.ف الى محطات التوزيع 33/11 ك.ف او نقلها الى محطات المستهلكين مباشرة مثل المحطات الصندوقية (كيوسك) ومحولات التوزيع ذات الجهد 11/0،4 ك.ف من خلال خطوط الضغط المتوسط 11ك. ف هوائية او ارضية ومن ثم يقوم هذا القطاع بنقل الطاقة من محطات التوزيع (كيوسك + محولات) وتجهيزها الى المستهلك من خلال خطوط الضغط الواطئ (4،ك.ف) ويقوم هذا القطاع ايضا بصيانة وادامة وتحسين وتطوير وتوسيع شبكة التوزيع وكذلك يقوم بإنجاز عمليات قراءة

الاستهلاك واصدار قوائم اجور الكهرباء وجبايتها) لذلك فان مشروع خصخصة التوزيع لا مبرر لها في قطاع التوزيع لأسباب فنية ومالية وادارية[4].

طرحت وزارة الكهرباء عبر وسائل الاعلام العامة ووسائل اعلامها الخاصة مشروع خصخصة قطاع التوزيع استنادا الى قرار لمجلس النواب يحمل الرقم 199 في 30 ايلول عام 2012 كردة فعل على فشل وزارة الكهرباء في معالجة الاخفاق في انتاج الكميات التي تلبي حاجة الطلب الكلي لمختلف القطاعات في خطوة استباقية لتشريع قانون الوزارة رقم 54 لسنة 2017 الذي اكد في المادة 8 منه على اهمية اعادة هيكلة وزارة الكهرباء وخصخصة مشاريعها دون اعطاء فرصة لأصحاب الاختصاص والاقتصادين بل وحتى الراي العام الذي ينتظر بفارغ الصبر الحصول على كفايته من الطاقة الكهربائية لمواجهة الصيف الفائض في بلد هو الاشد بين دول العالم بارتفاع درجة الحرارة في مثل هذه الظروف المأساوية تطرح الوزارة مشروعها زاعمة انها ستقوم بتجهيز المواطنين ب 24 ساعة تجهيز يوميا مع ان الانتاج في فترة طرح المشروع لا يزيد عن 15 الف ميكا واط حسب تصريحات الوزارة في عام 2017 مع وجود ضائعات في الطاقة تزيد عن 60 في المائة من المنتج وعلى الرغم من ان تقديرات الخطة الخمسية للأعوام 2013 - 2017[5] قدرت حجم الانتاج ب25 الف ميكا واط وهذا يعني تحقق عجز بمقدار 10 الاف ميكا واط والسؤال يعيد نفسه بصيغة اخرى هل السبب في هذا الفشل بعد انفاق 40 مليار دولار كنفقات استثمارية وبعد مرور 14 عاما يكمن في طبيعة ملكية هذا القطاع لكي ما يصار الى الذهاب بسرعة الصاروخ الى اسلوب الخصخصة واعادة هيكلية بنية الوزارة ؟

تجربة مأساوية فاشلة !

بعد ان استفحل الفشل في ادارة قطاع التوزيع في وزارة الكهرباء بعد مرور اكثر من عشر سنوات راحت الوزارة تلقي باللائمة عل هذه الجهة او تلك. فتارة تتحجج بقلة التخصيصات المالية وتارة تتهم وزارة النفط بعدم تزويدها بالوقود الكافي لتشغيل محطات التوليد وتارة ثالثة تلقي باللائمة على الارهاب الذي اوقف مشاريعها المنتشرة على كامل الارض العراقية. وبعد ان رفض العراقيون كل هذه الاتهامات لجأت الوزارة الى بدعة خصخصة خدمة الجباية وكأنها العلة المجهولة التي عجز ''اطباء'' الوزارة عن اكتشافها ولاقت الفكرة تشجيعا من الحكومة وبعض قوى البرلمان المسحورين باقتصاد السوق فأبرمت العديد من العقود مع عشرات الشركات الغامضة رافعة شعار تجهيز الكهرباء لمدة 24 ساعة / يوم وبعد سنوات من التهليل والتمجيد لمشاريع خدمة الجباية باعتبارها مفتاح الحل وانها تجسيد للإصلاح الاقتصادي التي روجت له الحكومة لكن بعد سنوات من تجريب هذا المشروع الحداثي! يحتشد المواطنون المكتوون بالحر لرفض هذه المشاريع البائسة، وتصمت الوزارة عن الرد وتحاول في احيان أخرى تبرير الفشل هنا او هناك ولكنها تفتقر الى الشجاعة الكافية للإعلان عن المبررات الحقيقية التي تقف وراء الفشل. واسهاما منا في تقييم نشاط هذه الشركات حاولنا اخذ بعض العينات من هذه الشركات ومدى انطباقها بحق مع قانون الشركات وسنشير اليها بالأرقام وكما يلي :

الشركة رقم (1)

من خلال البيانات المستقاة من مصادر مختلفة ظهر ان هذه الشركة وبالرغم من دعم الوزارة لها بالكوادر الفنية و الآليات والمسامحة هنا و هناك فان هذه الشركة وجميع الشركات الاخرى المتعاقد معها في احدى محافظات الجنوب كانت فاشلة فشلا ذريعا في ما ترتب عليها من الالتزامات الموقعة مع الطرف الحكومي. وكانت خلاصة هذا الفشل فسخ عقود هذه الشركات خاصة وان الشركة الحكومية تقوم كالمعتاد في جباية قوائم الكهرباء والقيام بأعمال الصيانة . فضلا عن ذلك فان على هذه الشركات دفعت مبالغ نقدية نظير تأجيرها للآليات والمعدات العائدة للشركة الحكومية لكن مما يعقد حساب هذه المبالغ عدم قيام الوزارة بتحديد اجور استخدام هذه الآليات والمعدات. ومن المهم هنا ان الشركات المتعاقد معها لم تحقق النسب المطلوبة فإحداها حققت 38 في المائة فقط من التزاماتها .وشركة اخرى لم تحقق سوى 0،1 في المائة ضمن احد العقود و0،5 في المائة من عقد اخر اما في بقية الالتزامات فكانت الانتاجية صفر في المائة او ما زاد على ذلك بقليل. ومن ناحية اخرى فان تلك الشركات قامت بأعمال الجباية قبل ان تقوم بتركيب العدادات الذكية المنصوص عليها بالقود فما يعني ذلك غير سرقة المواطنين.

الشركة رقم (2)

ان معايير نجاح الشركات موضوع الخصخصة تكمن في مسألتين مهمتين تتجلى الاولى في تنفيذ العقود المبرمة معها وهنا نفترض انطباق هذه العقود مع القواعد المالية والاقتصادية والمبادئ الحسابية المعمول بها والثانية في نسب الانجاز المطلوبة ضمن الحدود الزمنية المحدد في العقود لكن هذه الشركة لم تحقق سوى الانجازات التالية: 9 في المائة في تجهيز ونصب منظومة مقاييس ذكية و11 في المائة في قراءة مقاييس استهلاك الطاقة و8 في المائة في تحديد كمية الطاقة المستلمة من خلال المقاييس المثبتة في مغذيات (11.ك.ف) و8 في المائة من تأهيل مراكز الخدمات والصيان والشكاوى وصفر في المائة في استحداث مركز جباية في المناطق الخالية منها لكنها حققت 85 في المائة في مجال توفير المستلزمات الضرورية من طابعات وحاسبات و1.5 في المائة من الموظفين المعارين من الجهة الحكومية وصفر في المائة في تسديد بدلات الايجار للأصول العائدة للجهة الحكومية والالتزام بلوائح وقواعد الصحة والسلامة المهنية وتوفير مستلزماتها، وكذلك صفر في المائة في مجالات تقديم كشف شهري بالصيانات وقراءة المقاييس المنصوبة على المحطات الثانوية وتنظيم الشبكة الكهربائية وتوزيع الاحمال، بالإضافة الى اعمال ادارة الشبكة وصيانة الاعطال الفنية والقيام بأجراء التامين الصحي على مستخدميها واعمال تأهيل الشبكة الكهربائية. والاهم من كل ذلك انها تعمل بدون اصدار اجازة الاستثمار! فعلام يدل كل ذلك؟ الاجابة بسيطة وهي انها ليست بشركات واما السعي لصناعة شركة من الصفر بأموال الحكومة ومحاولة الاطراف الحكومية للتغطية على فشلها في التخطيط والادارة من خلال التشبث بمسلمات نظرية لم تثبت صحتها على المستوى العالمي فلا يمكن للفساد ان يصنع دولة.

الشركة رقم (3)

اثبتت هذه الشركة انه خلال عملها في وزارة الكهرباء قد ارتكبت الكثير من المخالفات الجسيمة التي الحقت بالوزارة خسائر واضرار متنوعة وتردي في الانجاز فقد قامت اسوة بالعديد من شركات الجباية والخدمة المتعاقدة مع وزارة الكهرباء ومديرياتها بإصدار قوائم اجور الكهرباء بخلاف وظيفتها التعاقدية رغم ابلاغها بالتوقف لتخلفها عن تسديد مبالغ الجباية المترتبة بذمتها والتي تقدر بعشرات المليارات من الدنانير، بالإضافة الى كل ذلك تخلفها عن تغطية نفقات عملية تأهيل الشبكات الكهربائية ورفع التجاوزات. هذا عدا عن نكثها لالتزاماتها التعاقدية مع الوزارة ومنها مثلا تشغيل 80 في المائة من موظفي الوزارة والمقصود هنا مديرية التوزيع التي ابرمت معها العقد وان تقوم الشركة بدفع رواتبهم ضمن كلفة نسبة رسم الخدمة والجباية البالغة 12.69 في المائة. وهناك العديد من المخالفات الاخرى للعقد المبرم مع الوزارة وملحقه المتعلقة بالعديد من مسؤولية والتزامات الشركة التعاقدية ومنها مثلا تقصيرها في شراء المقاييس الذكية وكذلك توفير الادوات الاحتياطية التي تتكفل الشركة بشرائها من ضمن رسم الخدمة والجباية المذكور في العقد. والاهم من كل ذلك عدم قدرتها على توفير الطاقة الكهربائية للرقعة الجغرافية المناطة بأعمالها[6].

الاستنتاجات

1. ان وزارة الكهرباء تواجه مشكلة تتمثل بشحة الانتاج وعدم كفايته لمواجهة الطلب على الطاقة الكهربائية مع ما يصاحبها من ضائعات هائلة. اما مشكلة التوزيع فان الوزارة لديها من الموارد البشرية الادارية والفنية الكافية لإدارة عملية التوزيع فضلا عما تمتلكه من خبرة لكن قطاع التوزيع يحتوي على تفاصيل كثيرة ازدادت تعقيدا في مرحلة ما بعد 2003 وحيث ان الشياطين تكمن في التفاصيل كما يقال، الامر الذي يتطلب وضع الخطط والدراسات للاستفادة من هذه الامكانيات دون اللجوء الى ما اسمته وزارة الكهرباء بخصخصة التوزيع ثم ابدلته بالخدمة والجباية لقصورها المفاهيم. لهذا نرى ان عملية الخصخصة والتكييف الهيكلي الذي ادخلته الوزارة في قانونها ليس سوى هروب الى الامام لتبرير الفشل الاداري والفساد والهدر المالي الذي صاحب عمل الوزارة مذ وجودها كوزارة في عام 2004.

2. ان البيانات الخاصة بعقود الخدمة والجباية كما اسمتها الوزارة بوقت متأخر قد الحقت بالوزارة خسائر واضرارا كبيرة وكثيرة، وما كان لها ان تتسرع في ابرام عقود مليئة بالمخالفات القانونية ويستشف من تتبع انشطتها ان العملية برمتها لم تكن سوى صناعة شركات مستثمرة لا تملك اية اثار تاريخية او انشطة تدلل على قدرتها وامكاناتها المالية التي تؤهلها للقيام بالمهمات والمسئوليات المناطة بها في العقود المبرمة معها والدليل على ذلك الظاهرة السلبية التي ظهرت من خلال الامور التالية :

• ان العديد من العقود التي ابرمتها المديريات المعنية بقطاع التوزيع كانت مخالفة للقواعد والنظم القانونية للعقود التي كان من المفروض ابرامها وفق

قاعدة المناقصات العلنية وفسح المجال امام الشركات المنافسة من اجل الاستفادة من مزايا التنافس في ابرام العقود وقد تصرفت هذه المديريات مع الشركات المعنية وكأنها شركات احتكارية بتوجيه الدعوة المباشرة مع انها نفتقر الى مواصفات الشركة .

• لجوء بعض هذه الشركات الى القيام باعمال الجباية خلافا لأوامر المنع الموجه من الطرف الاول في العقد بسبب عدم تسليم الطرف الاول ما يترتب بذمتها للفترة السابقة.

• ان عملية ابرام العقود وتعميم هذه التجربة التي لم يتأكد نجاحها على كافة المحافظات وبوقت واحد او خلال فترات متقاربة كان اجراء متعجلا ويفتقر الى العقلانية. اذ كان من الواجب تطبيق الاسلوب بصورة تدريجية وحسب الطاقات التي تم توفيرها نتيجة لترشيد الاستهلاك وتقليل الضائعات مما ادى الى خلق حالة من الارباك سواء بالنسبة الى الشركات المفتقرة الى الخبرة والتجربة او دوائر الوزارة التي عليها متابعة تنفيذ العقود .

• كان من الاجدر بالوزارة اختبار الشركات المستثمرة وتجريبها في مجال الجباية والتأكد من المنافع التي تحققها هذه التجربة دونما تحميل الشركات حديثة العهد بمهمات اوسع عجزت الوزارة عن انجازها مثل ازالة التجاوزات او تحميلها عبء اصلاح الشبكة في قطاع عملها اذا كانت الشركات ستقوم بكل هذه الالتزامات فماذا ابقت الوزارة لنفسها ؟

• ان العقود المبرمة من قبل الوزارة مع الشركات الاستثمارية التي تعود ملكيتها حسب المعلومات المتوافرة الى بعض موظفي الوزارة التي ترك بعضها وهرب كما يشاع رغم الديون المترتبة بذمته، والاخرى التي تركت العمل مع وجود هذه المتعلقات قد القت على الوزارة عبء الحصول على مستحقاتها والذهاب الى القضاء للفصل بهذه الاشكالية مع التكاليف التي تصاحبها.

المصادر:

1 - صالح ياسر، الخصخصة والاصلاحات الاقتصادية بين خيبات العقيدة ورهانات الواقع، بغداد، دار الرواد المزدهرة، 2016 .

2 - مصعب المدرس، الناطق الاعلامي لوزارة الكهرباء في ندوة اقامتها مجلة الثقافة الجديدة عام 2017.

3 - د. كريم وحيد، وزير الكهرباء الاسبق.. لماذا تم التوجه باعتماد محطات انتاج الطاقة الغازية؟ مقالة منشورة على شبكة الاقتصاديين العراقيين.

4 - خطة التنمية الوطنية للاعوام 2013 - 2017. التفاصيل منشورة على الانترنيت.

5 - خوشابا سولاقا، مدير عام سابق لتوزيع الوسط في وزارة الكهرباء. بحث مقدم الى ندوة حول الطاقة الكهربائية عام 2014.

6 - معلومات مستقاة من تقارير وتصريحات اعلامية متعددة.

العدالة الاجتماعية في العراق
بين الواقع والطموح

د. إبراهيم إسماعيل

د. إبراهيم اسماعيل من مواليد 1952، حاصل على بكالوريوس علوم زراعية من جامعة الموصل 1974 وعلى دكتوراه فلسفة(PhD) من أكاديمية العلوم المجرية 1990، وعلى دكتوراه علوم (DSc) من جامعة (SLU) السويدية 2006. عمل باحثا ثم استاذ لفسلجة النبات في الجامعة السويدية للعلوم الزراعية. كما نشر أكثر من 70 بحثاً علمياً في فسلجة الثمار ومشاكل حفظها وعلاقة التغذية بالصحة والبيئة وغيرها. وأصدر ثلاثة كتب في مجال إختصاصه، وكتب العديد من المقالات في الشؤون السياسية والاجتماعية في الصحف العراقية والعربية.

مقدمة

لا يبدو هامش الخلاف في تعريف العدالة الاجتماعية بين اليمين في كل تلاوينه وبين اليسار، التقليدي منه أو الجديد، كبيراً للوهلة الأولى، فكلا الفريقين يرى في العدالة الاجتماعيّة مجموعة من الإجراءات التي تضمن لجميع أفراد المجتمع، بغضّ النظر عن الجنس أو العرق أو الديانة أو المستوى الاقتصادي، توزيعاً عادلاً لموارد البلاد وثرواتها، وضماناً لحقهم في الخدمات الصحية والتعليمية والثقافية والاجتماعية، وفي الامتيازات والحقوق السياسية (كالتعبير الحر عن الرأي والمشاركة في العمل الاجتماعي والسياسي) وفي العدل والتكافؤ أمام القوانين والأنظمة المرعية وفي الفرص المختلفة. كما لا يبدو الطرفان مختلفين كثيراً في أن العدالة الاجتماعية لا تعني تحقيق المساواة التامة، لأنها تراعي الإختلافات في القدرات والمهارات، شرط أن تكون الفروق بين الناس في الدخل والثروة أو في غيرها محددة وفق معايير متوافق عليها إجتماعياً.

غير إن الخلاف يظهر جلياً وصارخاً بين الفريقين في تحديد البعد الطبقي لهذا المفهوم. ففيما يرى فيه الرأسماليون إصلاحا اجتماعيا اقتصاديا فوقيا، تتنازل فيه الطبقات العليا، في إطار إدارتها للمجتمع، عن بعض من إمتيازاتها للطبقات الدنيا، يراه اليسار إعترافا للمنتجين بحقهم في السيطرة على إنتاجهم وإدارته وتحديد كيفية توزيعه عليهم، أي يرون فيه طريق البشر الى المجتمع اللاطبقي الذي ينقلهم من عبودية المشقة الى فضاء الأبداع.

وفيما يحصر اليمين هذا المفهوم بدرجة من درجات الرعاية الاجتماعية تضمن، رغم تفاوتها بين الدول المختلفة، إستمرارية وإستقرار المجتمع الطبقي وتقديس الملكية الخاصة وإعتبار المساس بها إعتداءً على الحرية، يجده اليسار متسقاً مع الحرية حين يعيد الحقوق، أو بعضها، لمن سُلبت منهم من جهة ويضمن الحرية السياسية والمساواة الاجتماعية بشكل منصف من جهة مكملة. ويصبح الإختلاف أوضح تماماً حين يشمل دور ومستوى مساهمة الأفراد في العملية الإنتاجية والتنموية، بما يضمن الحقوق الاقتصادية المتكافئة في ميادين الإنتاج وملكية وسائله والحصة من مخرجاته من خدمات ومعلومات ورفاه ثقافي واجتماعي.

ويختلف الطرفان أيضاً في جوهر العملية التنموية الشاملة التي يشترطها تحقيق هذا الهدف، إذ لابد من أن تقوم العدالة الاجتماعية على تنمية مستدامة تتلازم مع الديمقراطية وضمان حقوق الإنسان وتقليص الفوارق الطبقية. ويستدعي ذلك بالضرورة تدخل الدولة فى عدة مجالات لأن تحقيق العدالة الاجتماعية بالإرادة الذاتية للأفراد أمر مستحيل.

كما يختلف الطرفان في جوهر حقوق الإنسان حيث يدعو اليسار الى تحطيم كل ما يكبل حرية الإنسان في مجتمع تتحكم به الملكية الخاصة ويتسم بالإستقطاب الطبقي الشديد. وفيما يمارس اليمين هيمنته على الصعيد العالمي، ويفرغ استقلال الدول الوطنية من محتواه في ظل العولمة الرأسمالية المتوحشة، يربط اليسار تحقيق العدالة الاجتماعية مع الخلاص من التبعية والهيمنة الخارجية السياسية منها والإقتصادية.

غير إن هذه الرؤية لم تعد بهذا الوضوح لدى اليسار في السنوات المنصرمة، إذ سببت وتسبب إلتباساً كبيراً مما يستدعي إعمال الفكر في هذا المفهوم، الجديد نسبياً على الأحزاب الشيوعية، وتطوير النشاط الفكري الذي يؤدي لتجديد نظري متواصل.

إن قطاعاً مهماً من اليساريين، لا يرى في مفهوم العدالة الاجتماعية سوى تخفيفاً مؤقتاً للاستغلال الرأسمالي، سرعان ما يندحر أمام زحف مصالح الرأسماليين البشعة. وإن تحقيق العدالة الإجتماعية (حتى في أشكالها البسيطة) على صعيد الدولة الوطنية، أمر غير واقعي في ظل العولمة الرأسمالية، التي تخضع الأطراف للمركز وتمكنه من نهبها وإستغلالها، بمعونة طغم متنفذة مرتبطة بالرأسمال العالمي من موقع التابع الذي ينفذ عملية توزيع السلع دون إنتاجها. ويربط هؤلاء اليساريون بين تحقيق التنمية الشاملة وبين تحطيم هذه التبعية، التي سببت تخلفاً مريعاً للدول الوطنية في الإنتاجين الزراعي والصناعي ونهبا متواصلا للثروات وخراباً إقتصادياً مريعاً. ومن هنا يشترط هذا الرأي القطيعة التامة مع النمط الرأسمالي القائم على التهميش والقمع وتجاوزه من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية.

وإذ يتفق قطاع آخر من اليساريين مع هذا التحليل لطبيعة العولمة الرأسمالية وهيمنة الطغم المالية على الإقتصاد العالمي، يرى إمكانية تبني طريق الصراع لأنهاء الرأسمالية القائمة وإقامة الإشتراكية، عبر الديمقراطية السياسية، التي قال لينين بأن من يريد أن يسير الى الإشتراكية من دونها سيصل الى إستنتاجات خرقاء ورجعية، سياسياً وإقتصادياً. ويجهد هذا القطاع

في الكشف عن المحطات المترابطة التي تُنفى فيها أشكال من الديمقراطية والعدالة الاجتماعية وتولد أخرى متقدمة عنها، وعن الخط التصاعدي لتطورها، وطبيعة القوى الاجتماعية التي يهمها إنجاز المهام في كل محطة والإنتقال قدماً للمحطة القادمة، والبحث في أمكانية نشوء العلاقات الاشتراكية في رحم الرأسمالية. ويشدد هذا الرأي التأكيد على إن إرتباط العدالة الاجتماعية، في محطاتها الأولى، كمسعى متواصل للتصرف بفائض القيمة ضمن اقتصاد السوق بما يضمن الحد من الاستغلال الاجتماعي والتغول الرأسمالي وانتزاع مكاسب جزئية لصالح المنتجين، يجب أن يرتبط بالنضال لتطوير الأشكال الديمقراطية التي تؤدي الى تجاوز الرأسمالية، فلا عدالة اجتماعية حقيقية في ظل الرأسمالية ذاتها.

الإشتراطات التقليدية للعدالة الاجتماعية في محطاتها الأولى

للعدالة الاجتماعية شروط، يمكن تلخيصها حسب محطات التطور، التي أفترضها بالنقاط التالية:

1. ضمان حقوق الأنسان الأساسية، والمساواة وعدم التمييز، وتحقيق تكافؤ الفرص وتمّكين الجميع عبر إتاحة التعليم والتدريب والرعاية الصحية والسكن والخدمات والمعلومات وغيرها من عوامل بناء القدرات وتنميتها.

2. ضمان الحريات السياسية والمشاركة المتكافئة في إدارة البلاد.

3. الضمان الاجتماعي الذي يضمن أشراك الناس في العملية الإنتاجية والتنموية وتوفير فرص العمل وتحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمحددوي الدخل، اوعند المرض أو العجز أو الأمومة أو إصابات العمل أو البطالة أو الشيخوخة أو إرتفاع تكلفة الرعاية الصحية أو عدم كفاية الدعم الأسري وغيرها. كما يجب توفير هذه الخدمات لمن يتمكن من المساهمة في تمويل صناديق الضمان أو من يعجز عن تمويلها.

4. التوزيع العادل للدخل من خلال إصلاح هيكل الأجور والدخول وتوزيع القيمة المضافة المتحققة في العملية الإنتاجية بين أرباب العمل والعاملين لديهم، وذلك عبر وضع حد أقصى وأدنى للأجور، وإصلاح نظام الضرائب الذي يعيد توزيع الدخول من خلال طريقة توزيع الأعباء الضريبية، وتقديم الدعم السلعي لمحدودي الدخل وتوفير مصدر دخل للفئات الأشد فقراً والعاطلين عن العمل، باعتبار أن ذلك مسؤولية اجتماعية على الدولة إزاء مواطنيها، وفي توفير فرص العمل للناس مما يتيح لهم الحصول على حصة من الدخل القومي بصورة كريمة من عملهم وكدهم، أو من خلال قيام الحكومة بتهيئة البنية الاقتصادية، وتسهيل تأسيس الأعمال بكل أحجامها بما يخلق فرص العمل في القطاع الخاص.

5. المباشرة بتنمية مستدامة، تقنية تشمل إستيراد التكنولوجيا المتلائمة مع الخصائص الوطنية وإعداد الكادر المحلي القادر على إدارتها، وبشرية تقضي على الجوع والمرض والجهل، مع معالجة الإختلالات الهيكلية في الاقتصاد الوطني وتحريره من التبعية.

6. ضمان حق الأجيال القادمة في الثروة الوطنية، عبر زيادة الأدخار وتقليص الديون.

فهل ينطبق شئ من هذه الإشتراطات على واقع العراق منذ سقوط الدكتاتورية وحتى وقتنا الحاضر؟

العدالة الاجتماعية في عراق اليوم

لايستطيع أي كان، مهما بلغت ديماغوغيته، أن يدعي بأن عراق مابعد 2003 قد شهد أي مستوى للعدالة الاجتماعية، رغم حزمة الأماني والأحلام التي أوهم بها العراقيون أو أوهموا أنفسهم بها، لاسيما بعيد سقوط الدكتاتورية وبدء ما سمي بالتحول الديمقراطي. فما هي الأسباب التي تكمن وراء هذه الخيبة الكبيرة.

الأسباب السياسية

سعى المحافظون الجدد في إحتلالهم للعراق الى تطبيق فكرتهم عن تحطيم الدولة ـ الأمة، القائمة على وطن واحد وشعب موحد، وإستبدالها بدولة المكونات، التي لكل منها دور تؤديه وفق متطلبات التبعية للمركز الرأسمالي، والتركيز على إيهام الطبقات الكادحة بان للصراع مجرى طائفيا لا طبقيا (راجع ما كتبه الشهيد مهدي عامل حول ذلك قبل عقود)[1]. وقبيل "رحيل" المحتلين، تشكلت، وبمساعدة مباشرة منهم ومن أعدقائهم، مجاميع متنفذة حاكمة، تقبض على موارد الدولة وتتصرف بها وتعيد انتاج نفسها بشكل منتظم. وقد ساعد الريع النفطي[2] هذه الفئات على مواصلة التحكم بالمجتمع المدني عبر الإنفاق الواسع لإرشاء قطاعات واسعة بوظائف وخدمات وسلع إستهلاكية، وعبر تأمين الإذعان الأيديولوجي (تأجيج متواصل للأستقطاب الطائفي) و القمع الشامل (الإنفاق الهائل على الأمن الداخلي). كما ساعد الإستقطاب الطائفي والعرقي من جهة والإقتصاد الريعي من جهة مكملة على وأد الأدوار الكفاحية للأغلبية السكانية المتضررة، والى صعوبة تعبئتها وتوحيدها لتحقيق التحولات الديمقراطية، التي إقتصرت على جولات إنتخابية فشلت، ليس في قيام دولة وطنية بالمفهوم المتعارف عليه، بل وحتى في إضفاء شرعية إنتخابية على المجاميع المتنفذة.

لقد أدت هيمنة هؤلاء على النفط ، كمحرك رئيسي للنشاطات الاقتصادية، الى إهمال القطاعات الإنتاجية، والإنفاق الكبير على الأجهزة الأمنية والنشاطات الطفيلية والخدمية. ودفعت الأرباح الهائلة التي تحققها هذه الأنشطة الى هجرة الكثيرين من العمال والفنيين وأصحاب رؤوس الأموال اليها، مما ساهم في تحطيم النشاطات الإنتاجية الزراعية والصناعية (لاحظ جدول رقم 1)، وتضرر الصناعات الصغيرة والإنتاج الحرفي، وإنتشار البطالة والتهميش، حتى بين المتعلمين ممن كانت تضمن لهم الدولة العراقية العمل دوماً. وقد أعيد بذلك إنتاج طبقة متوسطة مشوهة وضعيفة وغير متجانسة، ومستقطبة طائفياً وإثنياً ومناطقياً، وإفقد العمال ثقتهم بالنفس وتحولت الغالبية منهم للعيش في شتى المشاريع الهامشية، فيما تنامى جيش العاطلين في الريف وإضطر الفلاحون للهجرة الى المدينة، ليتعاظم بهم أعداد المهمشين هناك ممن يعيشون حياة غاية في القسوة والتهميش.

جدول رقم 1. مؤشرات التخلف الصناعي والزراعي في العراق*

المؤشر	التغيرات	المدة
الإنتاج الزراعي	نقص في المجموع العام بنسبة ٢٧ – ٣٥%	من ٢٠١٢ الى ٢٠١٥
انتاج اللحوم الحمراء	نقص من ١٣٨٦٠٠ طن الى ١٧٥٦٠ طنا أي بنسبة ٨٧%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
انتاج اللحوم البيضاء	نقص من ٩٧٦٠٠ طن الى ١٥٩٤٠ طنا أي بنسبة ٨٤%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
انتاج الحليب	نقص من ٢٦٧١٠٠ طن الى ٣٢١٧٠ طنا أي بنسبة ٨٨%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
انتاج البيض	نقص من ٨٠٧.٧ مليون بيضة الى ٧٢٩.٩ مليون بيضة، بنسبة ١٠%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
عدد الأغنام والماعز	نقصت بنسبة ١٠% و٥٠% على التوالي	من ٢٠١٢ الى ٢٠١٥
توزيع الأسمدة	نقصت من ٥٥٠ طنا الى ٢٣٨ طنا أي بنسبة ٥٧%	من ٢٠١٠ الى ٢٠١٧
عدد الإصابات الحيوانية	زادت من ١٤ الف اصابة الى ٢٩ الفا أي بنسبة ١٠٧%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
خدمات المكافحة الزراعية	نقصت من ٣.٦ مليون دونم الى ١.٧ مليون دونم أي بنسبة ٥٣%	من ٢٠٠٧ الى ٢٠١٧
الجمعيات التعاونية	نقصت من ١٠٣٧ جمعية الى ٧٣٦ جمعية أي بنسبة ٣٥%	من ٢٠١١ الى ٢٠١٧
قيمة الانتاج الصناعي	نقص في قطاع الدولة من ٣.٧ مليار الى ٢.٩ مليار أي بنسبة ٢٢% نقص في القطاع المختلط من ٠.٣١٨ مليار الى ٠.٢٨٦ مليار أي بنسبة ١٠% وزاد في القطاع الخاص من ١.١٣٢ مليار الى ١.٨٠٠ مليار أي بنسبة ٥٩%	من ٢٠١٢ الى ٢٠١٦
عدد المنشأت الأنتاجية	إنخفض في قطاع الدولة من ٩٥ الى ٥٦ (بنسبة ٤١%) وفي القطاع المختلط من ١٤ الى ٧ (بنسبة ٥٠%) وفي الخاص من ٥٤٨ الى ٥٠٣ (بنسبة ٨ %).	من ٢٠١٢ الى ٢٠١٦
عدد العاملين	زاد في قطاع الدولة من ١٥٩ ألفا الى ٨٣٠ ألفا (بنسبة ٤٢٢%) وفي القطاع المختلط من ١٤ ألفا الى ٢٢ ألفا (بنسبة ٥٧%) وفي الخاص من ٣٨ ألفا الى ٢٣٨ ألفا (بنسبة ٥٢٦%).	من ٢٠١٢ الى ٢٠١٦
النشاط التجاري/ الإستيراد	زاد بنسبة ٢٥%	في عام ٢٠١٦ فقط
النشاط التجاري/ التصدير	نقص بنسبة ٢٠%	في عام ٢٠١٦ فقط
المواد المصدرة عبر الموانئ	زادت كميتها من ٠.٣٤٢ مليون طن الى ٢.٠٦ مليون طن بنسبة ٥٠٢%	في عام ٢٠١٦ فقط
المواد المستوردة عبر الموانئ	زادت كميتها من ٨٢ مليون طن الى ٢٠١١ مليونا أي بنسبة ٩٥%	في عام ٢٠١٦ فقط

ومن جهة أخرى، تشكلت بفضل الريع النفطي والإدارة المتخلفة للاقتصاد الوطني، قاعدة إجتماعية للسلطة القائمة تمثلت في الفئات البيروقراطية والطفيلية والكومبرادور وسراق المال العام وتجار سوق العملة والمهربين، المرتبطين بالمركز الرأسمالي العالمي، الذين أوجدوا ذراعهم العنفية وأسبغوا عليها سمة قانونية، وراحوا يضبطون إيقاع الصراع بما يضمن محافظتهم على سلطتهم، سلمياً أو عنفياً، وعمدوا وما زالوا، الى تسفيه الديمقراطية وإختزالها بالإنتخابات، وتزوير هذه الإنتخابات وإضعاف المؤسسات الدستورية الفنية، وإستخدامها لإصدار القوانين والأنظمة التي تقنون إستبدادهم وتصوراتهم الأيديولوجية المنافية لحقوق الإنسان،

والى إستثمار المشاعر والمؤسسات الدينية والعشائرية، لتغييب الوعي والتجهيل ومواجهة مساعي التحديث، وتوظيفها لخدمة مصالح المجموعة الحاكمة، والعمل على إشراك قطاعات منها في النشاطات الطفيلية لهذه الفئات، لخلق مصالح اقتصادية ومن ثم سياسية مشتركة مع هذه المؤسسات. ولعل انتخابات مجلس النواب لعام 2018 كانت المؤشر الأبرز على إكذوبة وجود نظام ديمقراطي، جراء قانونها الإنتخابي الجائر ومفوضيتها غير المستقلة وما شابها من عمليات تزوير كبيرة وتدخل مباشر من الميليشات المسلحة. لقد أفقد المتنفذون الدولة إستقلالها الداخلي والخارجي وقدرتها على توفير الشروط التنظيمية والقانونية لعلاقاتها مع القاعدة الاقتصادية، لتكون حقاً دولة المنتجين القادرة على تحقيق مستوى ما من العدالة الاجتماعية. إن ما يعيشه العراق من أوضاع سياسية، يجعل الحديث عن وجود عملية تحول ديمقراطي في البلاد، تشكل أساساً للبدء بتحقيق خطوات على طريق العدالة الاجتماعية، عبثاً لا طائل وراءه[3].

الأسباب الأقتصادية

تشير التجارب المختلفة بأن الريع النفطي لم يسمح بتحقيق عملية تنموية حقيقية أو تنمية مستدامة تتنوع فيها الأنظمة الإنتاجية، لأنه يؤدي الى تدهور الإنتاج الزراعي وتنامي التبعية الغذائية للخارج وإشتداد الهجرة من الريف الى المدينة، والى توجه أصحاب رؤوس الاموال من النشاط الانتاجي الصناعي الى النشاط الطفيلي المضمون. ولا تعير الدولة الريعية، بسبب شعورها بإستقلالية نسبية عن المجتمع وعن الالة الأنتاجية، أية أهمية للمحاسبة المجتمعية، مما يجعلها ميداناً خصباً للفساد والنهب المنظم للثروات والمال العام[4].

لقد أدت السياسة الاقتصادية للحكومات المتعاقبة بعيد سقوط نظام البعث الى إتساع الفجوة في بنية الإقتصاد العراقي، بين نشاطات مالية وتجارية رائجة ونشاطات إنتاجية راكدة، مما فاقم من التفاوت المريع في الدخل والثروة، وادى الى ارتفاع الأسعار ومستوى التضخم وتقلص الخدمات وزيادة البطالة خاصة بين الشباب وغياب فرص التوظيف المنتج، فأشتد الكادحون وشرائح من الطبقة الوسطى فقراً وإنخفضت دخولهم وقدرتهم على الإدخار، فيما إشتد البيروقراطيون والطفيليون والعاملون في التجارة والمضاربة وسوق العقار والعملة والتهريب ثراءً، وتعاظم بذلك الإستقطاب المجتمعي والتباين الطبقي بين السكان والمناطق، وغابت أو تكاد أية ملامح للعدالة الاجتماعية.

كما عمد المتنفذون الى تصفية اجزاء واسعة من القطاع العام، وأدت الإدارة الاقتصادية الفاشلة لما تبقى من مؤسسات الدولة الانتاجية، الى ضعف مشاركة العاملين في النشاط الاقتصادي وتخلف الإنتاجية والكفاءة والرقابة واللامركزية، ناهيك عن إخضاع المنتج الوطني لمنافسة مريعة مع المستورد (جدول رقم 1). وتشير الأرقام الى تقلص مساهمة القطاع المختلط، والذي يمكن أن يلعب دوراً بارزاً في تنمية البلاد جراء تحكم الدولة بالرساميل الوطنية، فيما تمركز نشاط القطاع الخاص في الجانب الطفيلي، الذي لا يخضع لضرائب عالية كما هو الحال مع النشاطات الانتاجية.

وعلى صعيد العدالة الاجتماعية للأجيال القادمة، تبدو الأرقام مخيفة ومحبطة، فبسبب الفشل الشامل للمتنفذين والإرتفاع البشع في حجم ومديات الفساد ونهب الثروة الوطنية، يتوقع صندوق النقد الدولي أن ترتفع ديون العراق العام 2020 لتصل الى 138 مليار دولار. كما يتوقع تآكل حصة الفرد العراقي من الناتج المحلي الى اقل من مستوياتها المتوقعة خلال الأعوام القادمة.

الأسباب الاجتماعية

الشباب

بلغ عدد سكان العراق عام 2018، 38.1 مليون نسمة، يعيش 26.6 مليون منهم في المدينة و 11.5 مليون منهم في الريف. ويعتبر الشعب العراقي شعباً شاباً حيث تبلغ نسبة من هم أصغر من 30 سنة 68% ومن هم بين الثلاثين والخمسين سنة 21.7%. وفي الوقت الذي زاد فيه متوسط دخل الفرد من 3.8 مليون دينار عام 2009 الى 5.1 مليون دولار عام 2016، فقد إشتد التفاوت الطبقي بشكل مريع حيث يعيش 22.5% من الناس تحت مستوى الفقر ويحصل 8.5 مليون عراقي على 17.8% فقط من نصيبهم من الدخل القومي. وتتصاعد يومياً معدلات البطالة لتصل الى 11.5% في المدينة و8.75% في الريف، ولتخرج 24% من حملة الشهادات العليا من سوق العمل وتركن مايزيد عن مليوني شاب (دون الثلاثين سنة) في جحيم البطالة والعوز. وقد أكدت المصادر الحكومية على أن 80% من العراقيين غير راضين عن عملهم فيما أبدى مايقارب هذه النسبة من السكان تذمرهم من تدني مداخيلهم.

التمييز ضد المرأة: إن قراءة متأنية لما تعيشه المرأة العراقية، منذ سقوط النظام السابق واشتداد أوار الصراع بين مدافعين حقيقيين عن الديمقراطية وبين طواطم تلفعت بها، تشير بلا شك الى عمق الهوة التي تفصل بين هذه القيم الإنسانية وبين الواقع العملي، مهما قيل من إدعاءات جوفاء. وليس أدل على ما نقول، التزايد المريع لمأسي العنف ضد النساء ورفض المتنفذين إصدار أية تعليمات لمنع ذلك (بل وتأطيره بالمقدس والاخير منه براء)، وإتساع الفجوة بين حصة المرأة والرجل من الدخل القومي (حيث تعيش ملايين الأرامل دون مستوى الفقر)، وتفشي الأمية الأبجدية والحضارية بين معظم النساء، وتدني مستوى المشاركة السياسية للمرأة العراقية وغيابها عن المساهمة النشيطة في الحياة الثقافية والاجتماعية، ناهيك عن ندرة الدور الأقتصادي (جدول رقم 2). وتعد مشكلة تزويج القاصرات في تنام مستمر حيث زاد عدد الأمهات القاصرات عن مليون طفلة وبلغت نسبة المتزوجات دون 18 سنة 21%. وفيما يعاني 7.5% من الأطفال من سوء التغذية و16.6% من نمو غير طبيعي بلغت معدلات وفاة الأطفال 2.3%. إن هذا التمييز ضد النساء يعد أبرز المعوقات لأقامة حد أدنى من العدالة الاجتماعية.

الخدمات الأساسية

أصبح غياب أو ضعف توفير الخدمات الأساسية سمة لازمت نظام مابعد 2003، رغم تغيير حكوماته. وتشير الأحصائيات الرسمية الأخيرة الى أن 31% من سكان الريف و11% من سكان المدن يفتقدون للماء الصالح للشرب، فيما لاتجمع أو تعالج 35%

من النفايات ويعد 75% من إستخدام الماء مضراً بالبيئة. وفي الوقت الذي لم تقم فيه الحكومات خلال عقد كامل إلا بتعبيد 1800 كم ، زاد عدد قتلى حوادث الطرق من 1210 الى 2531 قتيل وعدد الجرحى من 3252 الى 9016 جريح. وشهدت البلاد إرتفاعاً كبيراً في الأسعار في عام 2016 وذلك بنسبة 3% في الصحة و6% في الأتصالات و4% في التعليم و2% في السلع و5.4% في الأكل. وتشتد يومياً مشكلة السكن ولاسيما بين الشباب، حيث يتجهه الرأسمال الى العقار التجاري، فقد تم بناء 135 عمارة تجارية عام 2016 مقابل 11 عمارة سكنية فقط. وتتسع رقعة العشوائيات، التي تمثل بحد ذاتها مثالاً صارخاً على التفاوت الطبقي المريع، حيث يعيش فيها ما لايقل عن 10% من سكان المدن. وفيما يفتقد 195 الف عامل في القطاع التعاوني و81 الف عامل في القطاع المختلط و55160 عامل في القطاع الخاص الى الضمان الأجتماعي، لايشمل هذا الضمان 85% من العاملين في الزراعة. وهكذا يبدو بديهياً ما أشارت له وزارة التخطيط العراقية الى أن 6% من العراقيين فقط راضون عن حياتهم!!

جدول رقم 2. يبين التمييز ضد النساء (ما يقارب 19 مليون إنسان) حسب الإحصائيات الرسمية

المؤشر	نسبة النساء %	نسبة الرجال %
النشاط الاقتصادي	١٣.٥	٧٢.٣
البطالة بشكل عام	٢٢.٢	٨.٥
بطالة الشباب دون ٢٤ سنة	٣٨.٠	٢٠.١
خارج قوة العمل	٦٩.٠	٣١.٠
الأنشطة الإنتاجية	٣٣.٩	٦٦.١
الأنشطة الخدمية	٤٢.٤	٥٧.٦
الأميّة	٢٧.٩	١٢.٩
المناصب الإدارية القيادية	٢٥.٠	٧٥.٠
عدد طلبة الابتدائية	٤٦.٨	٥٣.١
عدد طلبة الثانوية	٤٣.٦	٥٦.٤
عدد طلبة المعاهد المهنية	٢٤.٠	٧٦.٠
التعليم الجامعي	٤٦.٠	٥٤.٠
الدراسات العليا	٤٥.٠	٥٥.٠
استخدام الانترنيت	٨.٦	١٧.٧
الأمراض المزمنة	١١.٢	٩.٢
نسبة عمالة الأطفال دون ١٤ سنة	٢.٥	٧.١

تخلف الخدمات التعلمية: يعيش العراقيون خدمات تعليمية متخلفة حيث هاجر أكثر من 5000 إستاذ جامعي وأغرقت بعضُ المؤسسات بحملة شهادات مزورة أو ممنوحة من جامعات كارتونية، وتم التغاضي عن بعض الشروط الموضوعية للترقيات العلمية وإعتمدت سياسات لا علاقة لها بالتفوق عند قبول الطلبة في الجامعات وفي الدراسات العليا. لقد أدى هذا التوسع الأفقي الى تدهور مستوى التدريس ومستوى البحث العلمي. ورغم أن عدد منتسبي مؤسسات التعليم العالي قد زاد على 400 ألف طالب فأن ذلك لا يشكل سوى 1.3% من الشعب وهي نسبة قليلة لاسيما في بلد يشكل الشباب (15-30 سنة) نسبة 28% من سكانه! كما تفتقد البلاد الى إستراتيجية واضحة تضمن توافق المناهج مع الأحتياجات الأساسية لسوق العمل، والتركيز على التطور المذهل في تقنية المعلومات والأتصالات وتوفر القدرة على إستخدامها، وتنمية قدرات المتعلم على الإبتكار. وفي وقت تخصص فيه دولة كالسويد 3.7% من دخلها للبحث العلمي، يذهب 80% من ميزانية وزارة التعليم العالي لدفع الرواتب! وفيما تصل نسبة الإنفاق على التعليم 21.5% ، يعرب 86.2% من العراقيين عن عدم رضاهم على الخدمات التعليمية. كما تشير أرقام الزيادة في عدد الطلبة الى الهوية الشاسعة بينها وبين مستلزمات نجاح العملية التعليمية، وكمثال على ذلك نشير الى أن زيادة عدد تلاميذ المرحلة الإبتدائية وصل الى 32%خلال العقد الماضي فيما لم يزد عدد المعلمين عن 9% ! وتشكل الأمية بين الشباب ظاهرة خطيرة حيث تصل الى 17% ممن هم دون الرابعة عشرة والى 28% لمن هم دون الثلاثين، فيما يزيد عدد تاركي الدراسة خلال عام واحد (2016) من 57 ألف الى 67 الف وتصل نسبة المتسربين من المدارس الى 34%.

تخلف الخدمات الصحية: يشير لنا تذمر الناس وعدم رضاهم عن الخدمات الصحية الى مدى تخلفها، حيث أبدى 7.1% فقط من الناس رضاهم عن الخدمات الصحية! ولم يزد حجم الإنفاق الحكومي على الصحة عن 10.7% فيما هناك 7.1 طبيب، و8.4 طبيب أسنان و 2.4 صيدلي و19.4 ممرضة لكل 10000 مواطن. وفيما بلغت نسبة الذين يحصلون مباشرة على الدواء حين يحتاجوه الى 2.8% قدم كل ممرض الخدمة لـ 1425 مريض وكل طبيب الخدمة لـ 3854 مريض خلال عام 2015، وهو ما يعكس قلة الوقت المخصص لمعالجة المرضى.

المساواة بين الأديان والطوائف: من البديهي أن يتنافى أي نظام يقام على المحاصصة العرقية والطائفية مع مبدأ المساواة بين المواطنين أمام القانون وتكافؤهم في فرص المشاركة في العمل السياسي، وتبوء مواقع في الحكومة والدولة. ومما يشدد من التمييز الذي خلقه ويغذيه نظام المحاصصة في العراق، الإعتراف ـ وبالضد من الدستور والقانون ـ بأحزاب ذات عضوية قومية أو دينية أو طائفية خالصة، للكثير منها أجنحة عسكرية مهيمنة على المشهد السياسي. ولعل من أبرز القوانين التي شرعنت هذا التميز قانون البطاقة الوطنية الموحدة الذي أشار في الفقرة الثانية من المادة 26 الى أن "يتبع الأولاد القاصرون من اعتنق الدين الإسلامي

من الأبوين"، الأمر الذي يضع الأبن أو البنت، الذي يريد العودة لدين أجداده تحت طائلة عقوبة المرتد عن الإسلام! وتجري كل يوم عملية ديماغوجية واسعة لشيطنة المعترضين على بعض القوانين بحجة إنهم أعداء للدين (لنتذكر قانون الفقه الجعفري مثلاً)، حيث تعتبر هذه الأحزاب والقوى الطائفية تفسيرها للدين هو الدين بحد ذاته. والغريب أن يمتد هذا الى شيوخ الأديان الأخرين الذين إستمرأوا لعبة خلط الدين بالسياسة للهيمنة على ابناء طوائفهم.

وختاماً لابد من الإشارة الى أن أي تغيير في هذه اللوحة القاتمة، يتطلب مزيداً من العمل الدؤوب لتعديل موازين القوى لصالح القوى الديمقراطية والمدنية المناهضة للمحاصصة والفساد والثيوقراطية، بأشكالها المختلفة، وتشخيص الواقع كما هو لا كما يتمنى المرء أن يكون، منعاً لأي إيهام للذات أو تغيباً للوعي الجمعي أكثر مما هو مغيب حالياً.

الهوامش:

* كل الأرقام الواردة في هذه المادة موجودة في المجموعة الإحصائية السنوية لوزارة التخطيط العراقية:
http://cosit.gov.iq/AAS2017/Annual%20Abstract%20of%20Statistic%20_2017.pdf

1 - د. مهدي عامل: في الدولة الطائفية/ الأعمال الكاملة ـ دار الفارابي.

2 - راجع د. صالح ياسر (الخصخصة والاصلاحات الاقتصادية) دار الرواد، بغداد 2016.

3 - تعطل عدم حاجة الدولة الريعية الى ضرائب المفهوم الديمقراطي (لا تمثيل بدون ضرائب) فيصبح الريع النفطي، الإقتصاد السياسي للاستبداد (المصدر السابق).

4- إحتل العراق الموقع 168 من 180 دولة في تقرير منظمة الشفافية الدولية لعام 2018 عن الدول الأكثر فساداً في العالم.

القانون الاساسي لسنة 1925 " الدستور العراقي" واشكالية بناء الدولة العراقية

جاسم هداد

جاسم هداد دبلوم عالي/ معهد الهندسة التطبيقية العالي/ جامعة بغداد/1970. ماجستير في القانون الدستوري بإمتياز من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة . صدر له "حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية"، عن دار الرواد المزدهرة - بغداد - 2015 .

تقديم

يسجل التاريخ ان المغول "هولاكو" احتلوا بغداد عام 1258، ثم تناوب على حكمها المغول والفرس، وتعرضت للغزو المغولي الثاني "تيمورلنك" قبل انتهاء القرن الرابع عشر[1].

بدأت الهيمنة العثمانية على بلاد ما بين النهرين بصورة تدريجية، والتي ابتدأت من انتصار القوات العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني في معركة جالديران عام 1514 ضد الفرس[2]، ثم استولى السلطان العثماني سليمان القانوني على بغداد عام 1534، واستمر الإحتلال العثماني طيلة حوالي اربعة قرون،وكانت بحق كما تم تسميتها بالفترة المظلمة، كان العراق ولفترة ثلاثة قرون ولاية عثمانية واحدة، ومن ثم قسم الى ثلاث ولايات: ولاية بغداد، وولاية الموصل 1879، وولاية البصرة 1884[3]، ومن الجدير ذكره ان الولايات الثلاث التي تشكل العراق، غالبا ما كانت مستقلة ذاتيا [4].

عند اعلان الحرب العالمية الأولى، دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب الى جانب دول المحور في تشرين الأول عام 1914، وبعد حوالي شهر احتلت بريطانيا البصرة، ثم احتلت بغداد في 11 /3 /1917، وتم حكم البلاد حكما عسكريا وبقوانين عسكرية على ايدي رجال عسكريين لغاية تشرين الثاني1920 [5]، واصبح العراق بولاياته الثلاث خاضعا لإنتداب عصبة الأمم تديره بريطانيا، بقرار من مؤتمر الحلفاء المنعقد في سان ريمو في 25 /4 /1920[6]، وعوملت الولايات الثلاث كوحدة ادارية واحدة، يترأس الإدارة المركزية المندوب السامي البريطاني، وأثر ثورة العشرين 30 حزيران 1920، أجبر المحتل البريطاني على تأسيس الحكم الوطني في العراق في مؤتمر القاهرة المنعقد في ربيع 1921؛ حيث تشكلت في بادئ الأمر حكومة

مؤقتة في 25 /10 /1920 برئاسة عبد الرحمن الكيلاني[7]، تعمل تحت الإشراف البريطاني، وقدمت السلطات البريطانية مذكرة للحكومة العراقية، تم اقرارها في الإجتماع الثالث لمجلس الوزراء في 13 /11 /1920، والتي تضمنت تحديد علاقة وزراء الحكومة العراقية بالمستشارين البريطانيين، وتعتبر هذه المذكرة أول وثيقة ذات طبيعة دستورية تم بموجبها تنظيم اسلوب ممارسة السلطة، اذ حددت (سلطة الوزير بخضوعه الى اشراف مجلس الوزراء اولا ومشورة المستشار البريطاني ثانيا وسلطة المندوب السامي اخيرا، واصبح على الوزير العراقي عرض جميع القرارات التي يتخذها على مجلس الوزراء عن طريق المستشار البريطاني وان تنتقل جميع مقررات المجلس الى الوزير ايضا عن طريق المستشار البريطاني) [8].

أما القضايا التشريعية فكان يؤخذ فيها رأي المشاور القانوني البريطاني في وزارة العدلية قبل كل شئ، ثم يصادق عليها المعتمد السامي، ثم تعاد الى الوزارات المختصة لتنتقل من دائرة الى أخرى حتى تصبح أمرا ملزما بعد التصديق النهائي[9]. أي ان الحكومة المؤقتة "مجلس الوزراء المؤقت "، لا يملك سوى سلطات شكلية اذ كانت السلطة الحقيقية بيد المندوب السامي الذي مارس ازاءه دور المرشد والمشرف[10]، ولقد ذكر (لورنس) في رسالة نشرتها جريدة التايمس اللندنية في 23 /7 /1920 "ان الحكومة التي انشأناها كانت حكومة انكليزية في صفتها، وانها كانت تدار باللغة الانكليزية، ولذلك كانت هذه الحكومة تحتفظ بأربعمائة وخمسين ضابطا من الضباط البريطانيين التنفيذيين الذين كانوا يديرونها، ولا يوجد فيها مسؤول عراقي واحد "[11]، لهذا كانت المراسلات تتم باللغة الانكليزية[12].

وفي 11 /7 /1921 قرر مجلس الوزراء، الموافقة على ما اقترحته بريطانيا من أن يكون فيصل بن الحسين ملكا على العراق، بشرط ان تكون ملكية دستورية نيابية ديمقراطية، وتم تتويجه في 23 /8 /1921، ويعتبر بداية تاريخ الحكم الوطني في العراق. وبدلا من الإنتداب الرسمي، تم توقيع المعاهدة البريطانية العراقية في 10 /10 /1922، لقد سبق وان تعهدت بريطانيا في صك الإنتداب، بأن تضع في مدة لا تتجاوز الثلاث سنوات من تاريخ الإنتداب، قانونا اساسيا للعراق يعرض على مجلس عصبة الأمم للمصادقة عليه.

المبحث الأول
القانون الأساسي (الدستور) لسنة 1925

الدستور: هو أسمى القوانين وأرفعها شأنا في الدولة، يحدد شكلها، ملكية أم جمهورية، ويحدد طبيعة النظام السياسي، برلماني أم رئاسي، ويحدد ايضا العلاقة بين السلطات الثلاث، وصلاحيات كل منهما، وتنظيم حقوق وحريات الأفراد، ويتأثر بطبيعة الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية وبالتيارات الفكرية السائدة. ويعتبر الدستور المنظم لأساس الدولة ونظام الحكم، ويعبر عن الفلسفة السياسية للدولة، ولقد اعلن الملك فيصل الأول في أول خطاب له في 23 /8 /1920 أي في يوم تتويجه، انه سوف يتم اجراء انتخابات

لمجلس تأسيسي[13] يقوم بتشريع دستور للبلاد . وبموجب قانون المجلس التأسيسي، التي حددت مهامه بـ (14):

1 تصديق المعاهدة العراقية البريطانية المنعقدة في 10 /10 /1922، والتي لم تكن الا وجه آخر من اوجه صك الإنتداب او بالأحرى الإحتلال، وقد قيدت نصوص هذه المعاهدة والبروتوكولات الملاحقه لها، مختلف أوجه الحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية في العراق. ولقد هدد المندوب السامي البريطاني بحل المجلس في حالة عدم التصديق على المعاهدة كما هي، ولوح بقضية الموصل التي كانت محل تفاوض بين بريطانيا وتركيا. لقد أدى هذا التهديد على المصادقة على المعاهدة في اللحظة الأخيرة، و بـ 37 صوتا ورفضها 24 صوتا وامتنع عن التصويت 8 أعضاء، و قد بلغ عدد الأعضاء الحاضرين جلسة التصويت 69 عضوا من مجموع 100 عضو من اعضاء المجلس التأسيسي.

2 إقرار القانون الأساسي "الدستور"[15]، ففي 10 /4 /1924 شكل المجلس لجنة ضمت نائبا عن كل لواء من الوية العراق، لدراسة وتدقيق اللائحة المعدة في شكله الأولي من قبل وزارة المستعمرات في بريطانيا، وفي 14/4/1924 بدأ المجلس بمناقشة القانون الأساسي[16].

وقدمت بعض المقترحات التي لم يتم الأخذ بها رغم انها لم تكن جوهرية. ووجد المجلس التأسيسي نفسه مرغما على اقرار المشروع كما هو بعد ان تبين للأعضاء المعارضين ان لا جدوى من معارضتهم، وتم إقراره بالإجماع في 10 /7 /1924، وصدر القانون في 21 /3 /1925.

3 سن قانون انتخاب النواب، الذي اعتمد في وضعه على قانون الإنتخابات العثماني، ولم تؤذن بريطانيا بتنظيم الإنتخابات إلا بعد أن ضمنت المصادقة على المعاهدة، ولقد تم التصويت على القانون بالأكثرية الساحقة وكانت مناقشات النواب للقانون غير حيوية.

أي ان من مهام المجلس التأسيسي، تشريع الدستور، ومن الجدير بالإشارة الى ان صك الإنتداب بموجب المادة الأولى منه، والمادة 3 من المعاهدة العراقية- البريطانية الزمتا الملك ان يضع مشروع دستور يعرض على المجلس التأسيسي العراقي يراعي فيه:

1- ان لا يضمن أي شئ يناقض احكام المعاهدة؛

2- أن يأخذ بنظر الإعتبار حقوق ورغائب الشعب؛

3- ان ينص على ضمان الحريات العامة والشعائر الدينية التي لا تناقض الآداب العامة؛

4- ان يضمن عدم التفريق بين ابناء الشعب وان اختلفوا لغة وجنسا ودينا؛

5- ان يضمن حقوق كل طائفة في بناء مدارسها والتعليم بلغتها.

اما وضعه فلقد مرّ بست مراحل[17]:

مشروع دستور 1921، مشروع بغداد الأول "آذار 1922"، تنقيح وزارة المستعمرات البريطانية الأول "16 نيسان 1922"، مشروع بغداد الثاني "15 شباط 1923"، التنقيح الأخير لوزارة المستعمرات البريطانية "9 نيسان 1923"، مشروع الدستور في شكله النهائي.

بلغ عدد مواد القانون الأساسي لسنة 1925 عند صدوره على "123" مادة

موزعة على مقدمة وعشرة ابواب . وقد اختلفت آراء الفقهاء في تكييف نشأة القانون الأساسي لسنة 1925، حيث استقر الفقه الدستوري على تحديد اربع طرق لإقامة الوثيقة الدستورية هي: المنحة والعقد والجمعية التأسيسية والإستفتاء . وعليه فالقانون الأساسي لم يلتزم بهذه الطرق لأنه[18]:

أ- لم يصدر بأسلوب المنحة من الملك الى رعيته،لأن تتويجه تم بناء على شروط وقواعد محددة واستنادا "لبيعة "الشعب له؛

ب- لم يصدر عن طريق العقد : مراحل اعداد مشروع الدستور وقيام المجلس التأسيس بإقراره بعد مناقشته يؤدي الى استبعاد هذا الرأي؛

ج- لم يصدر عن جمعية تأسيسية: لأن المجلس التأسيسي كانت مناقشته مقيدة بأحكام الفقرة 3 من المعاهدة العراقية البريطانية ولم يكن قادرا على اجراء أي تعديل جوهري على نصوص مشروع الدستور ولا أي تبديل في المبادئ التي احتوى عليها والتي فرضتها المعاهدة ؛

د لم ينشأ عن طريق الإستفتاء.

ومن الملاحظ أنه لم يتم نشر القانون الأساسي في الجريدة الرسمية الا في 21 /3 /1925، أي بعد أكثر من ثمانية شهور من صدوره، لأن الملك لم يصادق عليه، وكان التأخير مقصودا لأجل تمكين بريطانيا من الحصول على امتياز النفط بموافقة مجلس الوزراء فقط[19] دون إستحصال موافقة مجلس الأمة كما تقتضي بذلك القواعد الدستورية والقانونية[20]، ومخالفاً لخطاب الملك فيصل الأول يوم تتويجه والتي أهم ما جاء فيها، بأنه سيتم تنظيم انتخابات للمجلس التأسيسي الذي يقوم بمهمة وضع دستور للبلاد يثبت اسس الحياة السياسية والإجتماعية ويصادق على المعاهدة العراقية البريطانية، ولكن قانون المجلس التأسيسي نص على اقرار المعاهدة اولا، وكان ذلك مخالفا لخطاب العرش وذلك حتى لا يتضمن أي نص يتقاطع مع بنود المعاهدة كما نصت عليها المادة 3، المارة الذكر. وقد كان يفترض ان يتم اولا تشريع القانون الأساسي الذي يقرر شكل النظام ويحدد السلطات العامة فيه ويحدد واجباتها، ثم ينظر في مسألة المعاهدة، والقانون الأساسي لسنة 1925 لتأمين مصالح بريطانيا من خلال وضع أكثر ما يمكن من الصلاحيات التشريعية بيد الملك، حيث كانت هناك رغبة قوية لدى وزارة المستعمرات البريطانية السيطرة على مجلس النواب عن طريق الملك[21].

وعليه يمكن القول ان القانون الأساسي قام على اساس المعاهدة العراقية البريطانية المفروضة من قبل سلطة اجنبية في ظروف خاصة في تاريخ العراق السياسي. ويرى الفقيه الدستوري د. اسماعيل مرزة انه : "دستور فعلي لم يكن يستند الى شرعية في أول نشأته وانما فرض على الشعب وعلى المجلس التأسيسي ثم اكتسب الشرعية من قبول الأفراد له خاصة عند اول تعديل له"[22]. لقد حفل القانون الأساسي العراقي لعام 1925 بالكثير من النواقص منذ صدوره مما استدعي تعديل دستوري لثمان من مواده ولم يمض على نفاذه اقل من سنة حيث تم التعديل الأول في 29 /7 /1925، ثم تبعه التعديل الثاني في عام 1943 وكان

تعديلا واسعا جدا، شمل "50" مادة بين الحذف والإضافة واعادة الصياغة، وكان هذا التعديل مخالفا للدستور، لأنه تم اثناء فترة الوصاية حيث نصت المادة 22 الفقرة 1 من القانون الأساسي: "... لا يجوز ادخال تعديل ما في القانون الأساسي مدة الوصاية بشأن حقوق الملك ووراثته". كما أنه مخالف لقاعدة دستورية تنص على أن الملك مصون غير مسؤول، ولذا فإن السعي الى تعزيز سلطاته من خلال منحه حق اقالة رئيس الوزراء، يعد مخالفة لمضمون الدستور ذاته. والتعديل الثالث في 1958 اثر الإتحاد الهاشمي بين العراق والإردن .

ويمكن القول ان الغلبة كانت للجانب البريطاني في مجمل عملية وضع القانون الأساسي في كافة مراحله منذ المشروع الأول حتى ايصاله الى شكله النهائي.

المبحث الثاني
إنحراف النظام البرلماني

النظام البرلماني هو ابن النظام الرأسمالي، واقترن ظهور البرلمانية بظهور الرأسمالية، كما يقول الدكتور منذر الشاوي، ومن اسس النظام البرلماني التقليدي، الفصل بين السلطات الثلاث التنفيذية والتشريعية والقضائية، أي تكون العلاقة بين الهيئات علاقة افقية، ومن سمات الإنحراف في النظام البرلماني في العراق الملكي، هو هيمنة احدى السلطات، وتجاوز سلطتها التقليدية سواء كانت هذه الهيمنة دستورية او فعلية . ولقد شاب النظام البرلماني العراقي انحرافا ثانياً، تمثل بهيمنة الملك على مجلسي النواب والوزارة، حيث تجلت هيمنته في دستور 1925 في موضعين أساسيين [23]:

1- نصت المادة 19 على ان "سيادة المملكة العراقية الدستورية للأمة وهي وديعة الشعب للملك فيصل بن الحسين ثم لورثته من بعده" هذا النص جعل الملك يشعر "بأنه هو الحاكم المطلق في تدبير امور الدولة والأمن فيها"[24] .

2- تضمن الباب الثاني من الدستور وتحت عنوان "الملك وحقوقه"، والنص يؤشر إلى أنه صاحب حق وليس حامل واجب.

كما وقد تجسدت هيمنة الملك على السلطة التشريعية مجلس الأمة "النواب والاعيان" من خلال:

1 يقوم بتعيين مجلس الأعيان "م 26 فـ7 من الدستور"، ومجلس الأعيان هو الغرفة الثانية في السلطة التشريعية، وعدد أعضاءه هو ربع عدد اعضاء مجلس النواب .

2- يصادق على القوانين، "م26 فـ1 من الدستور"، ولم يتم تحديد مدة محددة للتصديق.

3- اصدار مراسيم لها قوة القانون "م62 فـ3 من الدستور".

أما هيمنت الملك على على السلطة التنفيذية "مجلس الوزراء" فقد تجسدت من خلال:

1- يختار ويقيل رئيس الوزراء "م 26 فـ5، ف 6 من الدستور"، والملك غير ملزم بإستحصال ثقة مجلس الأمة، لا بل لم يكن لمجلس الأمة علم مسبق بتأليف بعض الوزارات ولا بمن يتولى رئاستها [25]، لم يحدث طيلة العهد الملكي اصدار الملك قرارا بإقالة الوزارة، بل كان يفضل اسلوب

الإقالة الفعلية على اسلوب الإقالة الرسمية وذلك لسببين:

أ الإقالة الفعلية تظهره كممارس فعلي للسلطة، وقد يحدث ضجة في مجلس النواب لا يحبذها.

ب تبعية رؤساء الوزارات للملك أغنته عن اسلوب الإقالة الرسمية، فيكفيه أن يشير بأساليبه الخفية بما يتم فهمه رغبة الملك.

2- للملك الكلمة الأخيرة في اختيار الوزراء [26]، ولا يستطيع أي رئيس وزراء اختيار وزير لا تتوفر للملك قناعة فيه.

3- التصديق على قرارات مجلس الوزراء "م65 من الدستور"، اي ان قرارات مجلس الوزراء خاضعة لمصادقة الملك، اي تحولت هذه القرارات الى توصيات للملك للأخذ بها او تعديلها او رفضها.

وخلاصة القول ان العلاقة بين السلطات كانت عمودية، ففي قمة الهرم يوجد الملك، وبعده الوزارة، وفي الأسفل مجلس النواب. كما أن غالبية اعضاء مجلس النواب كانوا من شيوخ العشائر وملاك الأراضي، وهو معينا أكثر منه منتخبا[27] ولم تكن الإنتخابات الا عملية شكلية لإضفاء الطابع "الديمقراطي" على تكوين مجلس النواب، حيث تمارس السلطة مختلف اشكال التدخل في الإنتخابات لصالح مرشحيها وتسمى "قائمة مرشحي الحكومة" ويشترك الملك مع الوزارة والسفارة البريطانية في اعداد قوائم الترشيح . بل احيانا يختار أحد هؤلاء بنفسهم بعض المرشحين[28].

وتلجأ الحكومة الى استعمال التزوير للتأثير في الإنتخابات، مثل اتلاف اوراق الإنتخاب ووضع اوراق جديدة مكانها تضم اسماء مرشحي الحكومة[29] وكان مجلس النواب اضعف من أن يقف امام السلطة التنفيذية ومثلث الحكم" مؤسسة العرش والوزارة والسفارة البريطانية"، ولم يجرؤ على حجب الثقة عن أي وزارة، لا بل لم يحدث اجراء التصويت على الثقة بأية وزارة، ولقد شهدت الفترة انتخاب ستة عشر مجلسا نيابيا، ولم يكمل مجلس النواب دورته الإنتخابية الا لمرتين "الدورة التاسعة: 1939 1943"، و"الثانية عشرة 1948 1952".

المبحث الثالث
إشكاليات بناء الدولة العراقية

عملت قوات الإحتلال البريطاني على تدعيم الإنشقاق المجتمعي، بتقوية العادات العشائرية والإعتراف بها رسميا، واصدر الجنرال "فانشو" القائم بأعمال القائد العام للقوات البريطانية في العراق في 27 /7 /1918 "نظام دعاوى العشائر المدنية والجزائية" واكتسبت نصوصه صفة القانون بموجب المادة "114"[30] من القانون الأساسي، وكذلك "المادة 88 الفقرة 2"[31] منه. وهذا النظام عمل على تجزئة البلاد الى وحدات عشائرية في الارياف وعزلها عن المجتمع العراقي في المدن، أي جعل للمجتمع العشائري كيان شبه مستقل، وتقسيم المواطنين الى مدنيين وعشائريين، وهكذا بقي العراق من الناحية القانونية منذ تشكيله عام 1921 وحتى ثورة 14 تموز 1958 يخضع لنظامين قضائيين، واحد خاص بالمدن وآخر خاص بالريف العشائري[32]، أي ان الدولة العراقية تحكم بقانونين هما قانون الدولة العام وقانون

دعاوى العشائر الذي لا يخضع إلى السلطة القضائية بل إلى السلطات الادارية لكل لواء "محافظة". لقد شكل ذلك انتهاك لوحدة القوانين المدنية والجزائية، وانعدام وحدة القضاء في البلد الواحد، ويؤدي الى القضاء على فكرة القاعدة القانونية، وتم تخصيص حوالي 40% من مقاعد المجلس التأسيسي لشيوخ العشائر، وتم إعفائهم من الضرائب[33].

كما حرم القانون الأساسي نصف المجتمع من ممارسة حقوقه السياسية، حيث لم يمنح المرأة حقوقها السياسية : أي حرمها من حق التصويت والترشيح، رغم أن المادة "6" من القانون الأساسي نصت على أنه "لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون وأن اختلفوا في القومية والدين واللغة"[34]، وكذلك المادة "18" نصت على أن: "العراقيين متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين..."[35]، ولكن المادة "36" نصت على أن: "يتألف مجلس النواب بالإنتخاب بنسبة نائب واحد عن كل عشرين ألف من الذكور"[36]، وهذه المادة الدستورية أغلقت الباب بوجه المرأة، وحجبت عنها ممارسة حقوقها السياسية.. وتعد مخالفة لماهية الدستور ذاته.

يوضح التاريخ السياسي للعراق المعاصر لظاهرة أخرى ذات امتداد عثماني .. تتمثل في غلبة التمييز الطائفي في تركيبة الدولة عند تأسيسها، فساد قول ان "الضرائب للشيعة، والموت للشيعة، والمناصب للسنة"[37]. فعند تشكيل الوزارة النقيبية الأولى المؤقتة" "25 /10 /1920"، لم تضم في البدء اي وزير شيعي، لكنه في 22 شباط 1921 تم استيزار وزير شيعي "محمد مهدي آل بحر العلوم الكربلائي"، وفي الوزارة السعدونية الثالثة "14 /1 /1928" اصبح لهم وزيران[38]، وشغل الشيعة رئاسة الوزارة لخمس مرات فقط من مجموع "59" وزارة طيلة العهد الملكي [39]، حيث ترأس صالح جبر الوزارة للمرة الأولى في 29 /3 /1947 وكانت الوزارة الأربعون، ويمكن ملاحظة غياب الموظفين الشيعة عن المناصب الادارية العليا[40]، وهذا شمل ايضا مجلس النواب وباقي مؤسسات الدولة المركزية ومتصرفوا الألوية "المحافظات".

كذلك يشمل المؤسسة العسكرية والأمنية فعند تشكيل الجيش العراقي، عهد منصب وزير الدفاع الى جعفر العسكري، الذي قام بإختيار حوالي "600" ضابط عثماني سابق من أصل عراقي، من عائلات سنية عربية من الولايات الثلاث، وعهد برئاسة اركان الجيش في شباط 1921 الى نوري السعيد صهر وزير الدفاع[41]، ولم يتسنم أي شيعي قيادة فرقة طيلة العهد الملكي.

لقد تميز العهد الملكي بقصر عمر الوزارات حيث يبلغ معدل عمر الوزارة في حدود 6 اشهر، حتى أن إحداها لم تدم سوى عشرة أيام. وتناوب عدد محدود من النخبة السياسية على اشغالها، والذين يعتبرون من حاشية الملك، والإكثار من حل المجالس النيابية، والإقراط في فرض الأحكام العرفية[42].

كتب الملك فيصل الأول مذكرة في آذار 1933 جاء في بعض سطورها: (... في

اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد، بل توجد تكتلات بشرية خالية من اي فكرة وطنية متشبعة بتقاليد واباطيل دينية...)[43].

الإستنتاجات :

1. لم يكن القانون الأساسي اداة للحكم فقط بل وسيلة من الوسائل السياسية التي حافظت بريطانيا بواسطتها على مصالحها التي تضمنتها جملة المعاهدات التي ابرمتها مع الحكومة العراقية، كما عبر عن ذلك "فيليب ايرلند".

2. من المنطقي ان يتم اولا تشريع القانون الأساسي الذي يقرر شكل النظام ويحدد السلطات العامة فيه ويحدد واجباتها، ثم ينظر في مسألة المعاهدة، لكن قانون المجلس التأسيسي، نص على اقرار المعاهدة اولا، وذلك حتى لا يتضمن القانون الأساسي اي نص يتقاطع مع بنود المعاهدة[44]، وكان ذلك مخالفا لخطاب العرش الأول، ولماهيات الدساتير.

3. اعلان استقلال العراق بعد قبوله عضوا في عصبة الأمم المتحدة في 3 /10 /1932 كان استقلالا شكليا أكثر منه عمليا وواقعيا.

4. عندما يتم تكليف سياسي بتشكيل الوزارة، يطلب حل مجلس النواب، ليضمن مجئ اغلبية برلمانية مريحه، وان حل المجلس واجراء انتخابات جديدة اصبحت سنة تسير عليها كل وزارة عند تشكيلها، وان كل وزارة تريد ان يكون لها مجلسها[45].

5. شهدت الإنتخابات البرلمانية طيلة العهد الملكي تدخلا سافرا من الدولة، حتى ان البرلمانات الملكية استمرت ان تكون مختارة بدلا من ان تكون منتخبة[46]، وكانت الإنتخابات للمجالس النيابية عملية مضللة يراد بها املاء الكراسي بجمع من الأصحاب والحاشية .

6. حكومة نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون، ضربت الرقم القياسي في استمرار اعلان الأحكام العرفية وكثرة المراسيم والقوانين الإستثنائية[47].

7. إن نصوص الدستور المذكور أوحت بإيجاد نظام برلماني حاول أن يكون قريباً من الصيغة التقليدية للأنظمة الديمقراطية الليبرالية الغربية، لكن هذه الديمقراطية وتخصص السلطات في النظام المَلكي العراقي لم تخرج إلى حيز التنفيذ بسبب الانحرافات الدستورية التي مكّنت المَلك الهيمنة على السلطات الثلاث.

الهوامش:

1 - هنري فوستر، ترجمة سليم طه التكريتي، نشأة العراق الحديث، ج1، الفجر للنشر والتوزيع ، بغداد، ط 1، 1989، ص48.

2 - علي محسن مهدي، الإجراءات الشكلية والموضوعية لتعديل الدستور العراقي لسنة 2005، دار الرواد المزدهرة، 2014، ص 25.

3 - د. احمد سرحال، النظم السياسية والدستورية في لبنان والدول العربية، دار الباحث، بيروت ، ط1، 2002، ص309.

4 - حنا بطاطو، ترجمة عفيف الرزاز، العراق، منشورات فرصاد، تهران، الكتاب الأول، ط1، 2005، ص26.
5- د. رعد ناجي الجدة، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، المكتبة القانونية، بغداد ، ط2، 2007، ص298.
6- الإنتداب كما ورد في المادة (22) من ميثاق عصبة الإمم هو تكليف دولة تدعى الدولة المنتدبة لمساعدة البلدان الضعيفة المتأخرة على النهوض وتدريبها على الحكم حتى تصبح قادرة على ان تستقل وتحكم نفسها بنفسها .
7- عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ،ج1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط7، 1988، ص 18.
8- د. رعد ناجي الجدة، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مصدر سابق، ص300.
عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج1، مصدر سابق، ص28.
9- فائز عزيز أسعد، انحراف النظام البرلماني في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975.
10- هنري فوستر، ترجمة سليم طه التكريتي، نشأة العراق الحديث، مصدر سابق، ص139.
11- كانت المكاتبات في الدوائر الرسمية باللغة الإنكليزية حتى 27 /12 /1921.
12- تم افتتاح المجلس التأسيسي في 27 /3 /1924، واختتم اعماله في 2 /8 /1924، وقد شهدت انتخاباته تدخلا من
13- قبل الحكومة لصالحها.
قانون المجلس التأسيسي رقم 565 بتاريخ 18 /3 /1924 المادة 3 . راجع نص القانون في د. رعد الجدة،
14- التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص269.
لقد رأى المجلس التأسيسي أن يطلق عبارة " القانون الأساسي " بدلا من " الدستور ". واصطلاح القانون
15- الأساسي ليس غريبا على الفقه الدستوري ، ذلك لأن هذا الاصطلاح كان سائداً في أوربا في القرنين السابع عشر و الثامن عشر، وكانوا يقصدون به ذلك القانون الأسمى في البلاد، والذي يشمل الأحكام الأصولية التي لا يمكن أن تغير بحال من الأحوال، الا اذا أجمعت الأمة على هذا التغيير بكامل عددها او بأغلبية هذا العدد، والذي دفع أعضاء المجلس التاسيسي الى اختيار هذه العبارة كونها عربية صحيحة بخلاف لفظ "الدستور ".
بدأت المناقشة في 14 /6 /1924 وانتهت في 21 /7 /1924. وأنجزها في "18" جلسة، وشارك في المناقشة
16- "11" من مجموع أعضاء المجلس.
د. رعد ناجي الجدة، التطورات الدستورية في العراق، ط1، 2004، بيت الحكمة ، بغداد، ص33.
17- د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص42 - 43.
18- المادة "114"من القانون الاساسي تنص على ان "جميع البيانات والنظامات والقوانين التي اصدرها القائد العام
19- للقوات البريطانية في العراق والحاكم الملكي العام والمندوب السامي والتي اصدرتها حكومة جلالة الملك فيصل في المدة التي مضت بين اليوم الخامس من تشرين الثاني سنة 1914 وتاريخ تنفيذ هذا القانون الأساسي تعتبر صحيحة من تاريخ تنفيذها وما لم يلغ منها الى هذا التاريخ يبقى مرعيا الى ان تبدله او تلغيه السلطة التشريعية او الى ان يصدر من المحكمة العليا قرار يجعلها ملغاة بموجب احكام المادة 86".
م94 من الدستور تنص على ان منح الإمتياز يستوجب اصدار قانون خاص بمصادقة مجلس النواب.
20- كتب وزير المستعمرات "...يكفي في جميع الظروف ان نعطي الملك صلاحية اصدار تشريع عند الضرورة بشكل
21- مرسوم يضمن تحقيق التزامات الحكومة العراقية المدرجة في المعاهدة، وان يشترط لهذا الغرض عدم الحاجة الى عرض المرسوم على مجلس الأمة للمصادقة عليه"، "عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج1، مصدر سابق، ص 30".
فيليب ايرلند، ترجمة جعفر خياط، العراق دراسة في تطوره السياسي، بيروت، 1949، ص 294.
22- فائز أسعد، انحراف النظام البرلماني العراقي، مصدر سابق، ص 32-33.
23- توفيق السويدي، مذكراتي نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969،
24- ص102.
25- أشار نائب بغداد شاكر ماهر الى انه لم يعرف "نوع الوزارة ، ولا الشخص الذي سيؤلفها، لأن الوزارة تطبخ من وراء الكواليس وليست من الهيئات البرلمانية" الجلسة 23 في 11 /5 /1953 ، محاضر جلسات مجلس النواب الدورة 13 ، اجتماع 1953 الإعتيادي ص391.
26- في وزارة نور الدين محمود "23 /11 /1952"، اختار الوصي عبدالإله جميع اعضاء الوزارة، أكد حمدي الباجه جي رئيس الوزارة "3 /6 /1944" انه لم يكن حرا في اختيار وزرائه، وانه زامل وزيرين لم يسبق ان اجتمع بهما او تحدث اليهما" عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج6، مصدر سابق ، ص199".

27- قال ناجي السويدي ان النواب "يفرضون فرضا ويعينون قبل ان تنظم مضابطهم الإنتخابية"، جريدة الإصلاح العدد 8 في 29 حزيران 1935 ص6". واعترف علي جودت الأيوبي بأن "النيابات كانت الى التعيين اقرب منها الى الإنتخاب"" عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج4، مصدر سابق، ص34، هامش 1" . قال احمد مختار بابان ان "... كل رئيس وزراء يجري انتخابات، يتفاهم مع البلاط ويتفقوا على الأسماء..."، "محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة، ج4، مطبعة الحكومة، بغداد، 1959، ص309" . وخاطب نوري السعيد مجلس النواب عام 1944 قائلا "هل في الإمكان اناشدكم الله ان يخرج احد نائبا مهما كانت منزلته في البلاد ومهما كانت خدماته في الدولة، ما لم تأت الحكومة وترشحه، فأنا اراهن كل شخص يدعي بمركزه ووطنيته فليستقيل الآن ويخرج، ونعيد الإنتخاب ولا ندخله في قائمة الحكومة، ونرى هل هذا النائب الرفيع المنزلة الذي وراءه ما وراءه من المؤيدين يستطيع ان يخرج نائبا"، "فائز عزيز أسعد، انحراف النظام البرلماني في العراق، مصدر سابق، ص191 –192" .

28- فائز عزيز أسعد، انحراف النظام البرلماني في العراق، مصدر سابق، ص184.

29- روى احد المشرفين على انتخابات المجلس السادس عشر، انه عين كاتبا في احدى شعب قضاء المحمودية، فلم يتقدم ناخبون، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، حيث جاء مأمور مركز الشرطة، وأمر المشرفين على الإنتخاب بكتابة اسماء المرشحين الحكوميين على اوراق الإنتخاب "محاكمات المحكمة العسكرية العليا الخاصة، ج7،مصدر سابق ، ص178–180" .

30- المادة 114: جميع البيانات والنظامات والقوانين التي اصدرها القائد العام للقوات البريطانية في العراق... في المدة التي مضت بين اليوم الخامس من تشرين الثاني 1914 وتاريخ تنفيذ هذا القانون الأساسي، تعتبر صحيحة من تاريخ تنفيذها...".

31- المادة 88 الفقرة 2: لفصل قضايا العشائر الجزائية والمدنية بحسب عاداتهم المألوفة بينهم بموجب قانون خاص.

32- حنا بطاطو، ترجمة عفيف الرزاز، العراق، مصدر سابق، ص43.

33- تشارلز تريب، ترجمة زينة جابر ادريس، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، الدار العربية للعلوم، بيروت، ط1، 2006، ص97.

34- القانون الأساسي العراقي لسنة 1925 المادة6: د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص278.

35- القانون الأساسي العراقي لسنة 1925 المادة 18: د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق،

36- ص279.
القانون الأساسي العراقي لسنة 1925 المادة 36: د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص285.

37- حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص44.

38- هنري فوستر، ترجمة سليم طه التكريتي، نشأة العراق الحديث، مصدر سابق، ص197.

39- حنا بطاطو، العراق، الكتاب الأول، مصدر سابق ، ص 219.

40- تشارلز تريب، ترجمة زينة جابر ادريس، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، مصدر سابق، ص85.

41- تشارلز تريب، ترجمة زينة جابر ادريس، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، مصدر سابق، ص85.

42- للمزيد حول هذه المواضيع راجع د. عقيل الناصري، الجيش والسلطة في العراق الملكي،، دفاعا عن ثورة 14 تموز، ط.2، مديرية الشؤون الثقافية، بغداد 2005.

43- عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج3، مصدر سابق، ص317.

44- المادة "3" من المعاهدة العراقية البريطانية لعام 1922 نصت على ان (لا يحتوي الدستور على ما يخالف هذه المعاهدة) .

45- جاسم علي هداد، حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية، دار الرواد المزدهرة، بغداد، 2015 ، ص 97، 99 .من المفروض دستوريا ان دورة كل مجلس هي 4 سنوات، ولكن كانت عمليا 16 مجلسا نيابيا، لم تكمل دورتها النيابية سوى مجلسين. حتى أن احدهم تم حله بعد خطاب العرش.

46- بطاطو، العراق، الكتاب الأول، مصدر سابق، ص131.

47- عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ، ج8، مصدر سابق، ص 48.

فكر الوقاية.. بين العمل العسكري وحروب الافكار

د معتز محي عبد الحميد

د.معتز محي عبد الحميد، مدير المركز الجمهوري للدراسات الاستراتيجية، كاتب وباحث في العلوم الشرطية ومكافحة الجريمة والارهاب، معد صفحة ناس وعدالة في جريدة "المدى"، وبرنامج حكمت المحكمة في اذاعة المدى. نشر العديد من الدراسات والبحوث في الدوريات والصحف المحلية العربية والاجنبية. له العديد من الكتب والمؤلفات في علم الجريمة والارهاب، منها الشرطة المجتمعية بين النظرية والتطبيق، الارهاب وتجديد الفكر الامني.

تمهيد

إنّ التجذر الحقيقي للتطرف والإرهاب نابع من عوامل متداخلة ومتشابكة ومعقدة، يأتي في مقدمتها، التعصب الأعمى الذي غلب على كثير من الدوجماطيقيين والمؤدلجين والفوضويين، فالمتعصب هو الذي يصر على انتصار عقيدته على عقيدة الآخرين، و يلجأ إلى الاستعانة – كلما استطاع إلى ذلك سبيلا- بوسائل العنف والإرهاب لتدمير عقيدة هؤلاء الآخرين، وكأنه توهم امتلاك الحقيقة المطلقة.

كما أنّ الفهم المغلوط للمفاهيم الصحيحة دون إدراك لأبعادها وتدبر لمآلات النصوص الشرعية والعقدية، وفقه السياسة، وفلسفة التاريخ، ثم الحرص على اجتزاء النصوص وبترها من سياقاتها، وتفريغها من مضامينها ودلالالتها بسطحية شديدة، يشكل خطرا على الوعي الحضاري للشباب، ونقضا للبناء الثقافي والاجتماعي والسياسي للمجتمع على اختلاف طبقاته وأطواره.

إن نقص الثقافة الامنية والوعي الامني يجعل كثيرا من الشباب الذين تغلب حماستهم عقولهم يقعون فريسة للتنظيمات أو الجماعات التي لا تريد خيرا لمجتمعها، والتي تخضع لمن يحركها ولا يريد من وراء ذلك إلا تخريب المجتمع وتضليل الشباب وزعزعة الأمن الاجتماعي والنفسي، موهما ومخادعا الشباب بأنه يريد الإصلاح مستغلا الرغبة الجامحة التي في داخلهم للإصلاح الذي لا يعرفون طريقه وربما لوّح لهم بحسن الجزاء في الآخرة كلما ازداد عنفهم وتطرفهم، ودائما ينتـــج عن هذا التطرف عنف يضر مسيرة المجتمع، ويؤخر نتائج الإصلاح الاجتماعي أو يعطلها ويعمل على زيادة التخريب والقتل، ويضيع الأمن، وينشر الخوف، ويشرد الناس من مساكنهم وأوطانهم.

مخطئ من يظن أن الأفكار تموت كالكائن البشري، إنها تنتقل عبر الأجيال بخيرها وشرها، وفي الجيل الواحد هناك مَن يقوم بعملية تسليم الآراء والمعتقدات، متطرفةً كانت أم معتدلةً، ومن سوء الطالع أن شرقنا الأوسط ومنذ أن وضعت جماعة «الإخوان المسلمين» في أواخر ثلاثينات القرن العشرين لبنات أفكارها المتطرفة، والمنطقة تشهد توالد جماعات عديدة من رحمها، تختلف في المظهر، لكن يظل المخبر واحداً، ويظن القائمون على الأمر في الحكومات أنهم قضوا على وجودها في فترات زمنية بعينها، غير أنها تعود من جديد بعد فترات كمون أو بيات شتوي، لتضرب من جديد وبأسوأ مشهد مما كان عليه الأمر من قبل.

تختفي "الإخوان" في الستينات، لتظهر جماعة "التكفير والهجرة" في السبعينات، يقبض الأمن على الخلية، فتظهر "الجماعة الإسلامية"، تواجه هذه الدولة المصرية، فتسقط، غير أن عناصرها يفرون إلى أفغانستان فتولد جماعات التطرف، ومن رحمها تقوم "القاعدة"، التي تضحى إحدى شعبها تنظيم "داعش" لاحقاً. ولهذا فإن القول بأن "داعش" قد قضى نحبه مرة وإلى الأبد، قول مغلوط، وليس أدل على صحة ما نقول به من مجموعة التصريحات والتقارير الدولية الأخيرة، التي تذهب في طريق التحذير من الاستكانة للهزائم العسكرية التي تعرضت لها في العامين السابقين في العراق وسوريا.

الارهاب بين القسوة والتطرف

إنّ ما يجعل التطرف والكراهية أمراً بالغ الفظاعة، وما هو أكبر من الإيذاء الحسي والمعاناة، هو تجريد الإنسان من آدميته، والتجرد من المعاني الإنسانية، وإذا شعر مرتكب السلوك، حتى لو كان عادلاً أو مبرراً، بالمتعة في الإيذاء، فإنّ سلوكه يعدّ شيئاً بغيضاً، وفي مرتبة الشرور تتفوق السادية وتعلو على غلظة القلب، وتجسّد الدرك الأسفل والأفظع من وحشية الإنسان؛ لذلك فإنّ أكثر ما يقلق في ظاهرة التطرف، سواء كانت جماعاتية أو فردية أو مجتمعية، أنّها تبرّر العنف وتسوّغه؛ بل تجعله عملاً جيداً!

وبالطبع، فإنّ العنف والإرهاب يمثلان أسوأ ما يمكن أن يصل إليه التطرف بالناس والمجتمعات، لكن يجب ألّا تشغلنا الظاهرة في نهايتها ومآلاتها، بقدر ما تشغلنا في منشئها وتفاعلاتها، فأن يغلب الاهتمام بعملية اعتداء إرهابية ضدّ المواطنين والمصالح، على منظومات الخلل في تنظيم العلاقات والمصالح في سياقها الشامل والممتد في المجتمعات والمؤسسات، سيجعل الفرصة كبيرة لتكرار هذه العمليات. وأسوأ من ذلك؛ أن يكون النجاح في المواجهة مع العنف والإرهاب، والخروج على القانون، قائماً فقط على الخوف والقهر، دون إنكار، بطبيعة الحال، لضرورة القوة المادية في حماية الدولة والمجتمعات والأفراد، لكنّها قوة لتعزيز وحماية الثقة وليس لأجل الخوف.

ظاهرة التطرف ومسوغ العنف

يمكن ملاحظة علاقة واضحة بين المشاعر والأفكار والمعتقدات، وبين الخوف الغريزي، ورغم أنّ هذه المشاعر والأفكار تتطور بسرعة وديناميكية إلى مواقف واختيارات لاتجاهات سياسية وفلسفية ودينية؛ فإنّها، في ابتدائها ونشوئها، تردّ إلى الخوف، وسواء كان هؤلاء الخائفون، محقين أم مخطئين، فإنّ مشاعرهم

القوية بالخوف على حياتهم أو مصالحهم، أو شعورهم بالتهديد والاستهداف، الذي تعزّزه ذاكرة عميقة ومتراكمة يستحضرونها في وعي ظاهر أو باطن، ثم يتشكل السلوك السياسي والاجتماعي، فيرون أنفسهم والآخر حسب حضور هذا الخوف وقوة تأثيره، ويفسرون الأزمات والأحداث العالمية ومواقف الدول والأنظمة والجماعات. ثم تتشكّل، بطبيعة الحال، أفكار ومشاعر التضامن والنفور، والتأييد والمعارضة، والانتماء، والرفض، والاحتجاج.

ربّما تكون، وغالباً ما تكون، مخاوف تملك قدراً كبيراً من الحجية الصحيحة والمنطقية، وتدعمها تجارب واقعية. وليس الجدل والخلاف مع المتطرفين؛ بمن هم الخائفون، سواء كانوا جماعات أو فئات أو طبقات أو طوائف أو جهات، بشأن صحة أو خطأ أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم، لكنّ العقد الاجتماعي، بما يفترض أنّه يتضمن، بداهة وتلقائياً، مواجهة التطرف والمخاوف والكراهية والعنف، ويقوم على إدارة المخاوف والصراعات وتنظيمها، لا إلغائها أو تصحيحها، فهي في الواقع ليست مواقف عقلانية، لكنها حالة نفسية اجتماعية اقتصادية تتشكل وتتطور وتسير في اتجاهات صحيحة أو خاطئة، مفيدة أو ضارة، حسب إدارتها ومعالجتها

الشعور بالخوف وعدم المساواة

يجب أن يكون الاعتماد متكافئاً، فعدم الشعور في تنظيم الدولة والمجتمعات بالمساواة، يحول العلاقة والاعتماد المتبادل إلى الخوف. إنّ عدم شعور أفراد أو طبقات أو فئات بالمساواة، سواء كان شعوراً بالانتقاص أو الأفضلية، يصيب العقد الاجتماعي بالخلل، ويقلّل قدرته على تنظيم العلاقات والمصالح، وتجب الملاحظة هنا أنّ الشعور بالخوف وعدم المساواة، ينشئ الاستعلاء والاشمئزاز والمفاصلة، والشعور بالتميز ورفض الاندماج والمشاركة، إلّا على قواعد الاختلاف ورفض الآخر وعدم تقبّله، والشعور الدائم بالنوايا السيئة. ولا تقف هذه المشاعر عند الانتخابات والانحيازات السياسية والفكرية والانتماء الاجتماعي والهويات، لكنّها تمتد أيضاً إلى الأسواق والمصالح، ثم إلى الأفكار والمعتقدات.

تعرّف (كاثلين تايلور)، أستاذة علم الأعصاب بجامعة إكسفورد، القسوة في كتابها "القسوة: شرور الإنسان والعقل البشري"، بأنّها إلحاق الأذى المعنوي أو الجسدي أو النفسي بأشخاص أبرياء لا يستحقون هذا الإيذاء. وتندرج في هذا التعريف منظومة هائلة من أنماط الأفعال والسلوك؛ تبدأ بما يجري في الحياة اليومية والمؤسسات والشوارع والأسر، وتصل إلى جرائم الإبادة والعقوبات الجماعية بحقّ فئة من الناس.

ويبدو مفهوم (القسوة)، لكثرة استخدامه في اللغة اليومية، فعلاً عادياً، لكنّه، في الحقيقة، فعل شرير، يحتاج كل إنسان إلى أن يخلّص نفسه منه، إلّا أنّ الأكثر أهمية في فهم "القسوة"، هو أنّها قد تفسر التطرف الديني والقومي والأيديولوجي، الذي يكتسح عالم العرب والمسلمين، ويشغل العالم ويقلقه أيضاً، ذلك أنّ التطرف، بما هو محاولة تطبيق أيديولوجيا على الناس، أو معاقبتهم باسم الأيديولوجيا على أفعالهم، أو إجبارهم على فعل، هو نوع من القسوة وأفعال الشرّ. وأستخدمُ قاصداً مصطلح "الأيديولوجيا" ليشمل التطرف بكل أنواعه واتجاهاته، سواء كان دينياً أو سياسياً أو قومياً أو طائفياً.

الخطاب الايدلوجي والتطرف

ثمة حاجة إلى التمييز بين الخطاب الأيديولوجي والتطرف الأيديولوجي؛ فالخطاب هو نموذج تطبيقي لفكرة أو فلسفة، وبما هو خطاب، فإنّه يحمل بنيوياً الإقرار باحتمال خطأ الذات وصواب الخطاب الآخر، بعكس التطرف الذي يرفض احتمال خطأ الذات وصواب الآخر؛ فالخطاب عقلاني، والتطرف معتقدات وأفكار ومشاعر لا يقبل أصحابها المساس بها، ويرفضون وصفها بالخطأ؛ بل ويحاسبون على أساسها الناس ويصنفونهم. ووفق هذا المفهوم، فإنّ القسوة والتطرف حالة مَرَضِيّة، تعكس الفشل أو الاضطراب العقلي والنفسي.

توصف الكيانات المعادية بالشرّ؛ بأنّها كائن شرير معادٍ يهدد وجودنا وأشخاصنا، لا نستطيع أن نفعل شيئاً يجعله يغير من سلوكه، كائن خطير ليس مثلنا، يهدف إلى الإيذاء والضرر والتدمير، ومسؤول أخلاقياً عن أفعاله، ولأنّ التهديد الذي يمثله هذا الكيان قاس وشديد، فلدينا ما يبرر اللجوء إلى أن نبطل أو نقضي على هذا التهديد.

ويلزم هنا التمييز بين القسوة والعدوان والعنف؛ فكلمة "عنيف" تصف سلوكاً، وتذكرنا بتأثيرات الفعل السريع؛ القوة، والقدرة البدنية، والقدرة على التدمير. أما كلمة "عدوان"، فتعبّر عن النية والقصد بالاعتداء. لكنّ "القسوة" غالباً ما تتضمن العنف المتناهي، والقسوة تنشأ في مواقف معينة، لكنّها لا تكون أبداً عشوائية، أو من دون تمييز، إلّا ربّما في حالات الاضطرابات العقلية الشديدة، والقسوة تحكمها الظروف، مثلما تحكمها الشخصية، والناس سيستمرون في اقتراف القسوة في مواقف معينة.

حرب الافكار والارهاب العائلي

أحد أهم وأخطر الأسئلة التي طرحت على موائد النقاش البحثية خلال الاشهر القليلة الماضية ذاك المتصل ومن جديد بالإرهاب، لكن في نسق مغاير لم نألفه من قبل بالمرة، إنه إرهاب العائلة مكتملة، ذلك أنه وإن كنا قد شهدنا من قبل إرهاب بعض الأخوة معاً، ومشاركتهما في عمليات إرهابية، كما الحال في بعض عمليات داعش في العراق على سبيل المثال، إلا أن ما جرى في إندونيسيا يستدعي رؤية تحليلية من علماء النفس، والاجتماع، الأمن والإرهاب معاً، فحين تقدم العائلة بأكملها الأب والأم والأبناء على ارتكاب جريمة إرهابية فهذا يعني أن الإرهاب لم يعد فقط قناعات فردية تأتي من وعي مزيف أو تأثيرات آيديولوجية تهب من خارج البيت، بل يضحى إيمان يدخل في قلب الأسرة ذات التركيبة الأبوية التسلطية.

يكاد ما جري في مدينة "سورابايا" الإندونيسية يشبه فيلماً من أفلام الحركة ، فبحسب تصريحات المتحدث باسم الشرطة ، فقد قاد رب الأسرة سيارة من طراز أفانزا تحمل متفجرات واقتحم بوابة الكنيسة فيما زوجة الرجل وابنتيه هاجمن كنيسة ثانية، بينما هاجم طفلاه كنيسة ثالثة، وكانا يستقلان دراجة نارية ووضعا قنبلة بينهما.

ولعل ما استدعي الانتباه بشكل كبير هو أنه وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة على الحادث الأول كانت أسرة أخرى من المتشددين تهاجم مركزاً للشرطة في المدينة عينها، مما يعني أن الفكر الإرهابي قد استطاع اختراق الأسرة الإندونيسية ليصل إلى هذا المستوى غير المتصور ذهنياً، فكيف لأب أن يضحي بأبنائه

وبناته وزوجه على هذا النحو؟
يبدو أن "داعش" قد اخترق إندونيسيا المهيأة بالفعل في جزء كبير منها لمثل هذا التطرف، سيما وأن وكالة المخابرات الإندونيسية، أكدت في تصريحات لاحقة لها أن جماعة أنصار الدولة التي تستوحي أفكارها من تنظيم داعش الإرهابي هي المسؤولة عن سلسلة الهجمات الأخيرة.
عدة أسئلة جذرية تواجه الباحث في شأن الإرهاب العائلي الإندونيسي ولماذا عاد الإرهاب يضرب هناك من جديد على هذا النحو الأسري سيما بعد أن كانت إندونيسيا قد حققت نجاحات كبيرة في التصدي للمتشددين منذ عام 2001؟

يمكننا بداية الإشارة إلى أمرين:
الأول يتمثل في وجود التربة الأصولية الحاضنة للأفكار المتطرفة في البلاد، والثاني التأثير الذي تركته أفكار "داعش" في شرق آسيا، وفي إندونيسيا تحديداً، وقد قدر لها كما تقول الشرطة الإندونيسية النجاح في اختراق مئات الأسر، كانت قد صدرت أبناءها إلى "داعش" في العراق وسوريا، ومؤخراً عاد منها نحو خمسمائة عنصر، بعضهم ظاهر للعيان، والبعض الآخر يقف وراء تلك العمليات الأخيرة.
هل وجد «داعش» طريقه إلى إندونيسيا انطلاقاً من أن عقليات كثيرة كانت مبطنة بجدار الأفكار المخترقة والمغلوطة منذ وقت مبكر جداً؟
من المقطوع به أن هناك ما يعرف بمدارس "بسانترن" التي تقوم على تدريس الأطفال منذ الصغر وتلقينهم مبادئ التطرف والتشدد، وهذه تاريخها يعود إلى مئات السنين في هذا البلد الآسيوي، الذي يضم أكبر عدد من المسلمين في العالم، وهناك صلة وثيقة بين تلك المدارس، والتي تشابه بدرجة أو أخرى طالبان في أفغانستان، وبين كثير من العمليات الإرهابية التي عرفتها البلاد في العقود الأخيرة، لا سيما تفجيرات بالي عام 2000 والتي قتلت أكثر من مائتي شخص.
والمثير أيضاً في شأن إندونيسيا أن الاختراق لا يقف عند مثل هذه النوعية من المدارس والتي عادة ما يذهب إليها أبناء الأسرة الواحدة في سن الطفولة، مما يعزز لاحقاً الطريق إلى الإرهاب العائلي، ذلك أنه هناك مصدر آخر يعمل كحاضنة أخرى للإرهاب، والأكثر غرابة أنه ينتشر في السياقات التعليمية العلمانية لا الدينية، فعلى سبيل المثال فإن مجموعة الدراسة القرآنية الراديكالية السرية، المعروفة بـ"بينجاجيان ترتوتوب" تنتشر بشكل كبير في الجامعات والمدارس ذات الطابع التعليمي المدني، لا الديني بخلاف مدارس "بسانترن".
من أي رحم جاءت "العائلة الإرهابية" الإندونيسية... هل من رحم مدارس التشدد أم من الأطر المغايرة لها كالجامعات وبقية المعاهد التعليمية ذات الطبيعة المدنية؟
مؤكد أن كلاهما أسوأ من صاحبة، فمدارس الـ"بسانترن" تؤجج نيران الأصولية عبر الالتحام العائلي، ذلك أن خريجيها، عادة ما تجدهم أكثر التصاقاً بالبيئة التي يعيشون فيها، ويتواصلون بشكل إنساني وثيق للغاية، ومن هنا تبدو قناعاتهم واحدة ومتشابهة، ويكون ساعتها لديهم التوافق على أي فعل إرهابي يسير ولا يحتاج إلى مجهود كبير لإقناع الآخرين به.
إحدى علامات الاستفهام التي تشغل تفكير

القائمين على الأجهزة الأمنية والاستخباراتية في شرق آسيا والتي ينظر إليها اليوم بوصفها المعين البشري الأكبر لـ "داعش": "هل ظاهرة الأسرة الإرهابية هي البديل المتاح في ظل تكثيف القوى الأمنية جهودها في دول المنطقة عامة وإندونيسيا خاصة، مما يمنع ظهور جماعات منظمة ذات تراتبية هيراركية، أو نظام عنقودي؟

قد يكون ذلك صحيحا، سيما وأن هناك عدة خبرات سابقة في هذا المجال، فأمام التضييق الأوروبي على أصحاب الفكر المتشدد، ولأن الإرهابيين لا يثقون في الغرباء، فقد شهدنا حالة الشقيقين بكري الانتحاريين البلجيكيين اللذين نفذا هجوماً زلزل قلب بروكسل وقتل ما لا يقل عن 34 شخصاً.

وكان هناك كذلك الشقيقان عبد السلام اللذان نفذا مجزرة باريس، وكذا الشقيقان مراح اللذان قاما بعملية "ميدي بيرنية" في فرنسا عام 2012.

في دراسة معمقة نشرت في مجلة "الفورين أفيرز" الأميركية في عدد فبراير (شباط) 2018، التي أجريت على بضع مئات من المقاتلين الأجانب، أكدت مؤخراً على أنهم وإن كانوا ينتمون إلى نحو خمسة وعشرين دولة مختلفة، إلا أن ثلثهم تقريباً لديه صلات عائلية مع أحد الإرهابيين سواء كان هؤلاء يقاتلون الآن إلى جانب التنظيمات الإرهابية في سوريا والعراق، أو من خلال الزواج، أو من خلال مشاركة أحد أقاربهم في عمليات جهادية في مناطق صراعية خلال فترات سابقة.

أما البيانات فنأخذ منها على سبيل المثال ما أوردته تقارير صادرة عن الاستخبارات الألمانية والتي تشير إلى أن 69 من أصل 378 من المقاتلين الألمان الذين سافروا إلى سوريا للانضمام للجماعات الإرهابية، كانوا بصحبة أحد أقاربهم، وهو ما يعادل نسبة 18 في المائة.

هل وجدت "داعش" في ظاهرة الإرهاب العائلي طريقها المؤكد والمضمون للولوج إلى الداخل الإندونيسي وبقوة؟

الجواب يقودنا بداية للاعتراف الإيجابي بأن الشعب الإندونيسي في إسلامه متدين بالفطرة، مستمسك بروح الدين ومفاهيمه بشكل متسامح ومتصالح مع الآخر، الأمر الذي اعتبره الدواعش مفتاحاً يسمح لهم بالترويج لنموذجهم الصدامي الإحلالي، وتوظيف تعلق الناس بالدين وانشغالهم بقضايا أمتهم، بزعم أنه الأكثر قدرة على نصرة تلك القضايا من الأنظمة القائمة.

ولعله من نافلة القول إن دور الأسرة كبير وضروري في تعزيز الأمن الفكري كما يؤكد متخصصون في العلوم الاجتماعية والنفسية، فكلما زاد وعي الأبناء وحماية عقولهم من الانحرافات الفكرية، تقلصت المسافات المتاحة لشغل الأدمغة بأفكار الإرهاب الأسود، والعكس بالعكس بمعنى أنه حال أفسحت الأسرة مساحة للأفكار المنحرفة، كان من اليسير لاحقاً تجنيد لا بعض أفراد الأسرة، بل كلها، وهذا ما حدث في جرائم إرهاب إندونيسيا الأخيرة.

ويبقى السؤال الجوهري... لماذا تحرص "داعش" وكل الجماعات الأصولية على نشوء وارتقاء ظاهرة الإرهاب الأصولي العائلي؟

يمكن أن تذهب الآراء في الإجابة مذاهب شتى، في المقدمة منها أن فكرة تجنيد عائلات بكامل أفرادها تأتي لضمان ولاء العدد الأكبر

من هذه العائلات، ثم تفاضل بينهم عند تنفيذ العمليات الإرهابية أو تتخذ قرارها بـ "تفخيخ العائلة" بأكملها كما فعلت في إندونيسيا.

فكر الوقاية

يتبدى لنا من خلال تحليل ظاهرة الإرهاب العائلي أن القائمين على تجنيد عناصر جديدة على دراية كبيرة بعلم الاجتماع، ذلك أنهم يعمدون إلى فكرة التمسك بالهوية التي تنسجها تلك الجماعات لهم، سيما وأن الإرهاب يعتبر كأي نشاط أمراً اجتماعياً للغاية وإن كانت عواقبه كارثية استثنائية، فبمجرد اهتمام أشخاص بالأفكار والآيديولوجيات الإرهابية يمكن أن يقود ذلك أشخاصا آخرين إلى الاهتمام بهذه الأفكار عينها، وحال راجت تلك الأفكار في سياق العائلة، فإن ذلك يضمن للتنظيم الأم سهولة التجنيد هذا في بداية الأمر، وثانياً وهو الأهم والأكثر هولاً يوفر الإرهاب العائلي فسحة واسعة للفرار من المتابعات والقيود الأمنية، فحين يكون التنظيم لعملية إرهابية لا يتجاوز أفراد العائلة، فإن فرص رصده ومتابعته، وصولاً إلى إبطال العملية الإرهابية قليل جداً، وعلى العكس حال وجود عناصر مختلفة، يمكن لها أن تختلف لأسباب ونوازع إنسانية أو مادية، مما يفشل الأمر بالكلية. في دراسة حديثة أجرتها جامعة بنسلفانيا، جاءت النتيجة لتؤكد على أن 64 في المائة من العائلات أو الأصدقاء يدركون ما كان ينوي عليه أفرادهم من المزاولين لنشاط يتعلق بالإرهاب، وأكدوا أن الفاعل قال لهم "حرفياً" ما كان سيقدم عليه، وعليه توضح الدراسة أن العلاقات العائلية هي الطريقة المثلى لتجنيد هؤلاء وتطرفهم.

على أنه في متابعتنا لقضية الإرهاب العائلي تتبقى جزئية مهمة وفاعلة وهي قضية العائدين من "داعش"، والتي تختلف بصورة مؤكدة عن العائدين من أفغانستان، فالأولون أكثر أدلجة إرهابية إن صح التعبير، هؤلاء يراهن عليهم "داعش" التي لحقت بها الجراح العميقة في سوريا والعراق، كي يضحوا عناصر فاعلة في تجنيد أطراف وأطياف أخرى في مجتمعاتهم، تبدأ من عند الأسر التي يعيشون في أكنافها مما يجعلهم قنابل موقوتة جاهزة للانفجار في كل لحظة وأي لحظة.

يفيد تحليل ظاهرة "الإرهاب العائلي" في التوصل إلى نتيجة قطعية، مفادها أن "داعش" بدأ يفقد قدراته البشرية بشكل كبير نتيجة للضربات الكثيرة التي وجهت إلى قياداته وكوادره في الفترة الماضية، وعليه فإنه يعمد إلى هذا النمط الإرهابي الجديد، لضمان "التعويض الآمن"، حتى وإن كلف ذلك اللجوء إلى الأطفال الأبرياء لاستخدامهم في الإرهاب الأعمى.

ويبقى أبداً ودوماً سؤال النهاية... كيف للجميع مواجهة هذا الإرهاب الأحدث؟ الجواب بالمطلق هذه المرة يتصل بفكر الوقاية، فيما هامش القمع يتضاءل إلى حد الاختباء والاختفاء، الوقاية داخل الأسرة، والتي هي نواة المجتمع، وقاية فكرية عبر وسائل عدة تعليمية وإعلامية، دينية واجتماعية، لمواجهة طروحات الإرهاب خوفاً من الأسوأ الذي لم يأت بعد

المعارك العسكرية .. هل تقضي على داعش

الفلول تعلّمنا أن الاستراتيجيات نوعان؛ نوع ظاهر معروف بالأسماء والصفات من الأجهزة الأمنية والاستخبارية كافة، وهؤلاء التصدي لهم أمره ممكن عبر فرق المشاة،

ولواءات المغاوير، وغيرهما من القوات المسلحة. أما الطامة الكبرى فموصولة بجماعات الفلول المؤدلجين، أولئك الذين لا يطفون على سطح الأحداث، لكنهم أخطر وقعاً، إذ يروجون للفكر المتطرف بهدوء ومن دون جلبة، معتمدين في ذلك على آليات التطرف المعاصرة المتمثلة في وسائط التواصل الاجتماعي، وعادةً ما يتم اختيار قيادات ''القاعدة'' و''داعش'' من أسماء غير معروفة، لكنها تمثل الشر في ذاته.

الكثير من المعلومات تتواتر مؤخراً عن إصابة أبو بكر البغدادي زعيم التنظيم، بنوع من الشلل يُقعده عن القيام بواجباته في متابعة أمر التنظيم الدموي، ولهذا فإنه أوكل لعبد الله قرداش إدارة شؤون الجماعة وإعادة ترتيب أوراقها. وفيما يبدو فإن الأجهزة الأمنية العراقية لديها الكثير من المعلومات عن الرجل الذي تدرج في صفوف التنظيم حتى أضحى حالياً الخليفة المنتظر.

لم يظهر قرداش الملقب بـ ''الأستاذ'' مرة واحدة على سطح الأحداث، بل تدرج عبر السنوات الخمس الماضية، ليصبح أحد أهم مساعدي البغدادي العسكريين، ويشير بعض التقارير الاستخباراتية إلى أن مهمته الرئيسة هي منع تفكك التنظيم، وإعادة ترتيب صفوفه، مستفيداً مما لديه من خبرة واسعة إبان عمله في الاستخبارات العراقية، ومعرفة بطبيعة وتضاريس العراق، ومعلوماته عن المجتمع وأفكاره، لا سيما ما يستجلب عناصر جديدة تزخم البناء الهيكلي للجماعة، وتعوض النقص الذي جرى في صفوفه بعد الاندحار العسكري والهزائم الثقيلة التي تعرض لها وقادته إلى ما يشبه الدياسبورا في المنطقة المجاورة، وعبر الإقليم بشكل أوسع.

تقول ''التايمز'' البريطانية في تقرير نُشر مؤخراً لها أن مهمة ''الأستاذ'' الثانية ستكون وأد الخلافات الواسعة بين أقطابه خصوصاً القيادات من الجنسيات العربية والأجنبية، هل لهذا الأمر علاقة بالتقرير الأميركي الأخير الذي توقع عودة الدواعش مرة جديدة وبشكل ربما أشرس مما عرفه العالم من قبل؟

في أوائل يوليو (تموز) الماضي كان معهد دراسات الحرب، وهو مؤسسة أبحاث غير حكومية مقرها واشنطن، يحذّر من أن ''(داعش) لم يُهزم نهائياً''، ويستعد للعودة مجدداً، وعلى نحو ''أشد خطورة''، رغم خسارته الأراضي التي أقام عليها ما سُميت ''دولة الخلافة''، في سوريا والعراق المجاور.

قراءة المعهد الأميركي المشار إليه جاءت في نحو ثمانين صفحة وتحت عنوان ''عودة (داعش) الثانية... تقييم تمرد (داعش) المقبل''، وتركز على فكرة أن التنظيم اليوم لا يزال أقوى من سلفه ''القاعدة'' في العراق عام 2011 حين بدا ضعيفاً.

ما ورد في التقرير الأميركي مثير بل مخيف، إذ يشير إلى أن تنظيم ''القاعدة'' في العراق كان لديه ما بين سبعمائة وألف مسلح آنذاك، بينما كان ''داعش'' لديه ما يصل إلى 30 ألف مسلح في العراق وسوريا في أغسطس (آب) 2018، وفقاً لتقديرات الاستخبارات العسكرية.

وفي تحليلات التقدير نرى أن ''داعش'' بنى من مجموعات صغيرة من الفلول عام 2011 جيشاً كبيراً للسيطرة على الفلوجة والموصل ومدن أخرى في العراق، واستطاع السيطرة على معظم شرق سوريا في ثلاث سنوات فقط.

هل سيقدّر لـ"داعش" أن يستعيد قوته بشكل أسرع بكثير وإلى مستوى أكثر خطورة من القوة الأكبر بكثير التي لا تزال لديه حتى اليوم؟

حسب التقرير الأميركي، المعتمد بالأصل على معلومات وبيانات استخباراتية من العراق وسوريا، فإن "داعش" بقيادة البغدادي، كان لديه خطة للعودة، مهيأة وجاهزة قبل أن يتعرض لسلسة الضربات العسكرية الأخيرة، بل إنه كان يقوم بتنفيذها في أثناء الحملة العسكرية التي شنتها قوى الأمن العراقية، عطفاً على قوات سوريا الديمقراطية، والكل بالطبع بجانب التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية.

أحد الأسئلة المدّعاة للتحري عن مستقبل "داعش": هل التنظيم لديه قوة مالية تكفي لاستمرار عملياته، وإعادة بناء هيكله التنظيمي ومن ثمّ مباشرة إرهابه إقليمياً وعالمياً؟

في تقرير قدمه الأمين العام للأمم المتحدة (أنطونيو غوتيريش) إلى مجلس الأمن الدولي، أشار إلى أن "داعش" يمتلك مبالغ تصل إلى 300 مليون دولار، ظلت معه بعد الزوال لتنظيم الخلافة المزعوم في العراق وسوريا. وذكر (غوتيريش) أن تهديدات "داعش" لا تزال مخيفة، على الرغم من انخفاض وتيرة الهجمات التي يشنها، وبخاصة أنه انخفاض مؤقت.

يقطع (غوتيريش) بقدرة التنظيم على توجيه هذه الأموال لدعم أعمال إرهابية داخل العراق وسوريا وخارجهما عبر شركات غير رسمية لتحويل الأموال، وتمتعه بالاكتفاء الذاتي المالي عبر شبكة من المؤيدين والجماعات التابعة له في أماكن أخرى بالشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا.

والثابت أن مسألة التمويل لم يكن ليهملها التقرير الأميركي الذي أكد أن "داعش" يحتفظ بشبكة تمويل موّلت إعادته الثانية إلى التمرد، وتمكن من إعادة بناء قدراته الإعلامية الرئيسية، وكذلك الحفاظ على الأسلحة وغيرها من الإمدادات في شبكات الأنفاق ومناطق الدعم الأخرى من أجل تجهيز قوات المتمردين المجددة. يتلفت النظر في خليفة البغدادي القادم على الطريق لاستكمال مسيرة "داعش" في نشر الفوضى والإرهاب إقليمياً وعالمياً، أنه يكاد يستلهم بعض تجارب وخبرات تنظيم "البعث" العراقي بنوع خاص.

في شهر يونيو (حزيران) الماضي، كانت الأمم المتحدة تنشر تقريراً بشأن "داعش" أشارت فيه إلى أن الجماعة الإرهابية تتغير وتتكيف وتوفر الشروط اللازمة للمقاومة داخل سوريا والعراق.

ولعل المثير أن الهيئة الأممية تشير أيضاً في أوراقها إلى أن المكان الأساسي لتجنيد عناصر جديدة هي السجون التي تسيطر عليها قوات سوريا الديمقراطية في شمال شرقي سوريا. فالظروف الصعبة في تلك المعتقلات مناسبة للحفاظ على آيديولوجية التنظيم حيّةً بين المعتقلين من مناصريه وتجنيد آخرين.

ويحاول التنظيم استغلال كل فرصة ليقول إنه حاضر ولم يُهزم، كما لا يؤكد الأنباء التي تفيد بمقتل أو اعتقال قادته من الصف الأول. وفي هذا يختلف عن تنظيم "القاعدة"، حسبما ينقل موقع "المونيتور" الإخباري الذي يهتم بشؤون الشرق الأوسط، عن أبو علي البصري قوله: "لقد تعلم تنظيم (داعش) من نظام البعث، والكثير من عناصر التنظيم كانوا جزءاً من نظام البعث، ويكذبون ويخدعون كما كان يفعل نظام صدام حسين".

داعش الثانية... اكثر قسوه

كارثة "داعش" الثانية اهتم بها ولها الإعلام الأوروبي، حيث نقرأ أحاديث مخيفة عن قيام عناصر مؤدلجة تابعة لـ "داعش" بالانتشار عمداً داخل السجون الأوروبية واللعب على أوتار الكراهية والقومية من جهة، والترويج للمفاهيم الدينية والإيمانية المغلوطة من جهة أخرى، بهدف اكتساب المزيد من العناصر الإجرامية إلى التنظيم في دورته التالية، لا سيما أن هناك احتمالات لعودة نحو 2000 عنصر من المقاتلين السابقين في التنظيم من العراق وسوريا إلى أوروبا.

«داعش» لن يعود هذه المرة من الشرق الأوسط فحسب، بل هناك احتمالات واسعة ومفتوحة لامتداد شره إلى أفغانستان، حيث حالة الانفلات الأمني تجعل نشوءه وارتقاءه من جديد أمراً وارداً وبقوة، فحسب تقرير أصدره مركز الدراسات الدولية في واشنطن "سي إس آي إس"، عقب تبني التنظيم مؤخراً الهجوم الانتحاري على عرس في كابل ومقتل العشرات، فإن عدد مقاتليه في أفغانستان يصل اليوم إلى نحو أربعة آلاف مقاتل، يرتكزون في إقليم ننغارهار. ويشير التقرير إلى أن فرع التنظيم في أفغانستان لديه طموحات للسيطرة على مساحات كبيرة من الأرض كما فعل في سوريا والعراق عام 2014. هل باتت عودة "داعش" الثانية معقودة بناصية الأستاذ ضابط استخبارات صدام؟

مهما يكن من شأن الجواب، فالمؤكد أن الخطر "الداعشي" سوف يتزايد وبنوع خاص ما دام بقي الشرق الأوسط فاقداً للاستقرار، وبقدر ما تظل دول بعينها في مقدمتها تركيا وإيران وقطر من الداعمين الظاهرين تارةً والخفيين تارة أخرى.

في كل الأحوال يمكن القطع بأن المعارك العسكرية بمفردها لن تقضي على "داعش"... حرب الأفكار هي الأصل والأهم.

المصادر:

1 - د. ايمان رجب - العراق بعد عام 2011 - التحديات في فترة ما بعد الانسحاب الاميريكي - مجلة المستقبل العربي - العدد 396 شباط - فبراير - 2012.

2 - رائد الحامد - الانسحاب الاميركي من العراق - المقدمات واشكال البقاء - مجلة المستقبل العربي - العدد - 392 - اكتوبر - 2012.

3 - د. معتز محي عبد الحميد - المنظومة الامنية وتداعيات الارهاب في العراق - بحث مقدم الى مؤتمر مركز الابحاث الاستراتيجية حول الامن والارهاب - كلية العلوم القانونية والاجتماعية - جامعة الحسن الاول - مراكش المغرب - 2017.

4 - وزير الدفاع الاميركي - لسنا في العراق من اجل النفط - رويترز - 20 شباط - فبراير 2017- http.//ava.reuters .com /articlc/topnews/id arakbn 15 zol a .

5- صحيفة المدى - نائب رئيس المخابرات الامريكية - cia- السابق - مخابراتنا اخطأت في احكامها بشأن العراق - لمزيد من التفاصيل من خلال الرابط –https//almada . paper news .net

6- محمد ابو سريع - صراع الطاقة واعاده تشكل التحالفات العالمية - السياسة الدولية - العدد - 213 تموز - يوليو - 2018.

7- احمد عمر - الاستراتيجية الدفاعية الاميركية لعام 2018 – مركز البديل للتخطيط والدراسات الاستراتيجية – 30 شباط – فبراير - 2018 - 2 / 30 /. http//elbadil. Pss. Org

8- صحيفة المدى - محللون عسكريون مستقبل القوات الاميركية في العراق – الخميس 13 - 12 - 2018 https // almada.Paper news.net

9- صحيفة المدى - امريكا والعراق ما بعد داعش - 8 - شباط - فبراير - 2018 - http//alada.paper News .net

10- الواشنطن بوست - بيبك ويست - لماذا لايريد الجنرالات الاميركيون نشر مستشاريهم في الخطوط الامامية في العراق – ترجمة علاء الدين ابو زينة - جريدة الغد - عمان - 30 - 8 - 2015 .

الدولة الوطنية والفصائل الحزبية المسلحة

لطفي حاتم

لطفي حاتم كاتب وباحث عراقي حاصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي/ تاريخ ونظرية الدولة والقانون. عميد كلية القانون والسياسة في الاكاديمية العربية المفتوحة في الدانيمارك. له عشرات البحوث المنشورة في مجال العلاقات الدولية. صدرت له عدة كتب: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية؛ اراء وافكار حول التوسع الراسمالي، موضوعات في الفكر السياسي المعاصر، التشكيلة الرأسمالية العالمية والشرعية السياسية الوطنية، المنظومة السياسية للدولة الوطنية والاحتجاجات الشعبية، العولمة الرأسمالية والكفاح الوطني الديمقراطي. كما نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة.

مرّت الدولة العراقية ومؤسستها العسكرية بكثرة من التبدلات حيث تلازمت تلك التغيرات مع تبدل أنظمة الحكم السياسية وتأثير القوى الوطنية على طواقمها القيادية وترابط فعالية القوات الشعبية المسلحة مع المؤسسة العسكرية في مراحل مختلفة من تطور الدولة العراقية خاصة بعد انهيار النظام الاستبدادي بعد الاحتلال الأمريكي.

انطلاقا من ذلك فقد مرّت المؤسسة العسكرية والقوى الشعبية المسلحة بتغيرات كثيرة ارتبطا بطبيعة المراحل السياسية في العراق وطبيعة الأنظمة السياسية التي سادت في الحقب الزمنية المختلفة من مراحل تطور الدولة العراقية وبهذا المسار سنعمد الى دراسة تغيرات المؤسسة العسكرية والقوى الشعبية المسلحة بمراحل مفصلية يمكن تحديدها بالآتي:

أولا - المرحلة الملكية

اتسمت المؤسسة العسكرية في حقبة الملكية بوعي الكثير من مراكزها القيادية بالمهام الوطنية الهادفة الى رفض التبعية للكولونيالية البريطانية واعتبار الاستقلال الوطني منطلقا لتحولات اجتماعية لصالح تشكيلة العراق الاجتماعية و سيادة البلاد الوطنية، وقد تفاعلت الاحزاب الوطنية بمختلف توجهاتها لسياسية مع ميول طواقم المؤسسة العسكرية الوطنية بأشكال مختلفة أبرزها التعاطف وتأييد توجهاتها الوطنية انطلاقا من رفض تلك الأحزاب للهيمنة الخارجية وتعاطفها الوطني مع الهموم الداخلية والقومية . استنادا الى ذلك شهدت المؤسسة العسكرية تنظيمات وطنية مترابطة والأحزاب السياسية العراقية الامر الذي افضى الى تعاونها وتشكيل اللجان

القيادية لقيادة كفاحها الوطني ضد الهيمنة الأجنبية.

ثانيا ـ مرحلة الجمهورية الأولى

ـ تكلل التعاون الوطني بين كوادر الجيش الوطنية والأحزاب السياسية الى انبثاق قيادة عسكرية على قاعدة الإنقاذ الوطني الامر الذي افضى الى انتصار ثورة 14 تموز ومساندتها من قبل الأحزاب العراقية الوطنية والدفاع عنها من الاختراقات الخارجية والانقلابات الداخلية.

ـ خلال مسيرة تموز الوطنية حاولت بعض القوى السياسية وخاصة القومية منها الانفراد بالسلطة السياسية مستندة على مباركة الخارج الإقليمي – الدولي لأنشطتها الانقسامية وما نتج عن ذلك من انبثاق المقاومة الشعبية المسلحة الى جانب الثورة ومناهضتها للقوى الراغبة بإسقاط القيادة العسكرية لثورة تموز الوطنية.

ـ لم تستمر المقاومة الشعبية الساندة لثورة تموز والتي رعاها الحزب الشيوعي كرديف للمؤسسة العسكرية نظرا لتعارض بعض توجهاتها السياسية مع توجهات القيادة العسكرية وخشية الحكم الوطني منها عمدت القيادة العسكرية الوطنية الى حل تلك المؤسسة الشعبية المسلحة والاعتماد على الجيش الوطني في صيانة الثورة الوطنية.

2 – الجمهورية الثانية والحرس القومي

بعد سلسة من التغيرات في توجهات الحكم الوطني العسكري ونزوعه نحو الفردية والديكتاتورية استطاعت القوى البعثية والقومية الانقلاب على حكم الجمهورية الأول والاطاحة بقيادة ثورة تموز الوطنية وإشاعة الإرهاب الدموي الشامل وما نتج عنه من ملاحقة الأحزاب والشخصيات الساندة لسلطة ثورة تموز الوطنية. وبهذا السياق شكلت سلطة الانقلابيين الحرس القومي كقوى شعبية عسكرية مسلحة اعتمدت الإرهاب المنفلت ضد الخصوم السياسيين وإشاعة النزعة البوليسية في البلد وبهذا السياق لابد من تسجيل بعض الاختلافات العامة بين التشكيلات الشعبية المسلحة لكلا الجمهوريتين أهمها:

أ- الاختلافات الاساسية بين المقاومة الشعبية للجمهورية الأولى والحرس القومي في الجمهورية الثانية تكمن في طبيعة المهام الوطنية حيث كانت المهمة الأساسية للمقاومة الشعبية الدفاع عن ثورة تموز من التدخلات الخارجية والانقلابات العسكرية الداخلية بعكس مهام الحرس القومي التي تمثلت مهامه بتعميم الإرهاب السلطوي ضد الاحزاب الوطنية المناهضة لسلطة الانقلابين الجدد.

ب- تركز مهام المقاومة الشعبية في الدور المساند لثورة تموز الوطنية عبر متابعة الأنشطة التخريبية للقوى الداخلية والخارجية بينما كانت مهام الحرس القومي ملاحقة وتعذيب القوى اليسارية والديمقراطية وإشاعة الإرهاب السلطوي ضد المواطنين وتخريب منظماتهم السياسية.

ج- تجسدت مهام المقاومة الشعبية في وطنية أهدافها المستندة الى صيانة الجمهورية من التدخلات الخارجية والاعمال الداخلية التخريبية بينما حمل الحرس القومي شعارات قومية بسبب ضعف قاعدته الاجتماعية واستبدال المهام الوطنية بالمهام القومية الوهمية.

د- لم تشع المقاومة الشعبية الإرهاب ضد الخصوم السياسيين بل تركت الامر للجهات القانونية بينما عمد الحرس القومي الى الارهاب السلطوي متلحفا بدور الأجهزة الأمنية.

هـ- لم تكن سلطات المقاومة الشعبية سلطات أمنية بل كانت سياجا شعبيا لصد التجاوزات الخارجية والداخلية بينما تداخلت مهام الحرس القومي بسلطات أمنية كثيرة شملت الاعتقال والتعذيب والابادة الجسدية.

و- جرى حل المقاومة الشعبية بقرار من قيادة الثورة الوطنية بعد إحالة المخالفين الى المحاكم العسكرية بينما جرى حل الحرس القومي بانقلاب عسكري دام وأحيل قادته الى القضاء العسكري.

3 – الجمهورية الثانية وعودة البعثين للحكم

أدى انقلاب السابع عشر من تموز الى انفراد حزب البعث بالسلطة السياسية وإشاعة الارهاب السلطوي في الحياة السياسية واتسمت عودته – البعث – الثانية بتداخل المهام الأمنية مع المهام الحزبية انطلاقا من:

1 - تحول منظمات حزب البعث الشعبية الى أجهزة أمنية حارسة للسلطة السياسية الجديدة.

2 - تشكيل أجهزة إرهابية خاصة -جهاز حنين الأمني – مرتبطة بقيادة حزب البعث لمتابعة وقمع المعارضين السياسيين في الداخل الوطني والمحيط الدولي– الاقليمي.

3 - العمل على تبعيث المجتمع والمؤسسة العسكرية وتداخل المهام السياسية بالمهام الأمنية.

4 - إشاعة الإرهاب الشامل في الدولة العراقية ضد القوى السياسية خاصة اليسارية والديمقراطية منها.

-5 هيمنة المهام القومية على المهام الوطنية عبر مساندة السلطة السياسية في العراق لتحركات القوى القومية والبعثية في البلدان العربية.

سمات الأجهزة الأمنية في الدولة البوليسية لحزب البعث يمكن رصدها بمستويين:

أ – المستوى الاول تعدد الأجهزة الأمنية في الدولة العراقية وتركيزها على محاربة وقمع القوى الوطنية.

ب – المستوى الثاني شخصنة الأجهزة الأمنية بمعنى ارتباطها بشخصيات بعثية في الهرم القيادي لحزب البعث وسلطته السياسية.

4 - الجمهورية الثالثة والفصائل الحزبية المسلحة.

- أدى التدخل العسكري الأمريكي الى انهاء النظام الاستبدادي وتبعثر أحهزته القمعية وبهذا الإطار جرى تفكك المؤسسة العسكرية والمؤسسات الامنية بعد انهيار النظام السياسي للدولة العراقية.

الفراغ الامني الذي احدثه التدخل العسكري الأمريكي أفضى الى ظهور قوى شعبية مسلحة اتسمت بجملة من السمات يمكن تأشير اهمها:

- قاد انهيار مؤسسات الدولة العراقية العسكرية وتخلل اجهزتها الأمنية الى ظهور قوى شعبية مسلحة تابعة لأحزاب الطائفة السياسية هذا إذا استثنينا قوى البيشمركة التابعة للأحزاب السياسية الكردستانية.

- تعدد مراكزها القيادية بسبب تبعيتها للأحزاب الطائفية والقومية وعدم خضوعها لسلطة الدولة المركزية ومؤسستها العسكرية.
- انحسار صفتها الوطنية بسبب طائفيتها السياسية ومحدودية تمثيلها للقوى الوطنية في تشكيلة العراق الاجتماعية.
- ضبابية برامجها السياسية بسبب تركيبتها الاجتماعية الضيقة المرتكزة على الشرائح الكمبورادورية وفصائل الرأسمالية الربوية.
- تنسيق بعضها مع الوافد الأجنبي (الدولي والإقليمي) وترابط توجهاتها السياسية مع مصالحه السياسية/ الاقتصادية.

استنادا الى ما جرى استعراضه ولغرض استكمال التحليل لابد من ترصينه بعدد من النتائج السياسية – الاجتماعية الأخرى المتمثلة في:

• تعدد المليشيات المسلحة عزز عجز الدولة وسلطتها السياسية من بناء أجهزة سيادية وطنية تتقدمها المؤسسة العسكرية.
• أفضت تعددية الفصائل المسلحة وتبعيتها الى الأحزاب السياسية الطائفية والقومية الى الاحتكاكات السياسية وتعدد التوجهات (الوطنية) وما يحمله ذلك من مخاطر جر البلاد الى النزاعات الداخلية والحروب الاهلية.
• أدى التنافس بين الأحزاب الطائفية والقومية الى التدخلات الخارجية وما يعنيه ذلك من مخاطر وضع الدولة العراقية الوطنية تحت الوصاية الدولية.

ان السمات والمخاطر التي أنتجها الفصائل المسلحة الطائفية تدعو القوى الوطنية الى العمل المشترك من اجل بناء دولة عراقية وطنية ديمقراطية يتم تشكيلها على أساس الثوابت الأساسية التالية:

- حل كافة الأجهزة الأمنية والفصائل المسلحة وضمها الى المؤسسة العسكرية الوطنية وإعادة تربيتها بروح الولاء الوطني.
- نزع الصفة الطائفية والقومية عن الفصائل المسلحة واستبدالها بالوطنية العراقية المبنية على أساس وحدة الولاء الوطني والدفاع عن التطور الديمقراطي لبنيته السياسية وتشكيلته الاجتماعية.
- استبدال الولاء الطائفي والقومي المستند الى تقسيمات طائفية- قومية سياسية بالولاء السياسي للدولة العراقية والعمل على الالتزام بالدستور العراقي الناظم لبناء الدولة وآلياتها الديمقراطية.
- بناء اجهزة الدولة الوطنية (المؤسسة العسكرية الأجهزة الأمنية) على أساس صيانة مصالح البلاد الأساسية الهادفة الى تطوير تشكيلته الاجتماعية وابعاد السمة الحزبية عن أجهزتها السيادية.

ان الإجراءات المفترض توفرها في بناء الأجهزة والتشكيلات العسكرية ترتكز على إعادة بناء الدولة وتشكيلتها الاجتماعية بما يضمن:

أولا – اعتماد الشرعية الانتخابية طريقا للوصول الى السلطة السياسية ونبذ الاكراه واستعراض القوى العسكرية في العلاقات الوطنية.

ثانيا – سلمية التداول للسلطة السياسية وذلك من خلال صناديق الاقتراع المعتمدة على برامج وطنية ديمقراطية مسندة من قبل القوى الشعبية.

ثالثاً – اعتماد البرامج الوطنية لتطوير

تشكيلة العراق الوطنية والابتعاد عن البرامج الطائفية السياسية التي ترتكز على اثارة المشاعر وتقسيم الوحدة الوطنية للدولة العراقية.

رابعاً – اعتماد الحوار الوطني وانشاء التحالفات بين القوى الوطنية ونبذ القوة المسلحة في العلاقات الوطنية.

خامسا – تعزيز البناء الفدرالي الضامن للتآخي القومي وتعزيز التربية الوطنية الهادفة الى الاخوة والمساواة في الدولة العراقية.

سادسا -- تعزيز العلاقات العربية ومع دول الجوار على أساس عدم التدخل في الشؤن الوطنية واعتماد توازن المصالح في بناء العلاقات الوطنية مع الجوار الإقليمي.

ان الدالات المشار إليها كما أرى تقود الى معافاة الدولة العراقية ونقل نظامها السياسي من هيمنة الطائفية السياسية الى الممارسة الديمقراطية الضامنة لتطور الدولة العراقية وتشكيلتها الاجتماعية المرتكزة على سلمية التعارضات الموضوعية بين القوى السياسية الديمقراطية وتعزيز العلاقات الوطنية.

قراءة في كتاب:
موفق جواد الطائي، بغداد جنة مع وقف التنفيذ
(بغداد: دار الرواد المزدهرة، 2019)، 246 صفحة

مصباح كمال

عنوان الكتاب مثير يحمل رؤية لبغداد، كما يتصورها المؤلف، من خلال عرض التطور المعماري الحداثي لهذه المدينة التاريخية. وأنا أتمعن بهذا العنوان يدور في ذهني ما يتوقعه المؤلف منا نحن القراء: أن نشاركه بإمكانية قيام بغداد الجنة، الفردوس المعماري، الذي لم يتحقق بفعل عوامل سياسية ومالية وأخرى إدارية لها علاقة بالفساد المالي والإداري وغيرها (ص 34)، يأتي على عرضها في فصول الكتاب.

تتوزع محتويات الكتاب على العناوين التالية، أعرضها هنا لأن الكتاب يخلو من ثبت بالمحتويات، وفي ذات الوقت التدليل على سعة شمول جوانب مختلفة في عمارة الحداثة البغدادية:

المقدمة – الدكتور طالب البغدادي. بغداد جنة ... مع وقف التنفيذ – المعمار الأكاديمي موفق جواد الطائي. جامعة آل البيت. تخطيط المدن. العمارة المعاصرة. شباط الأسود عام 1963. ساحة النهضة. أوصيكم ببغداد. ساحة التحرير والباب الشرقي. القصر الأبيض. المراقد الدينية. منطقة باب الشيخ. ساحة الميدان. ساحة الأمين. ساحة الخلاني. ساحة النافورة. مشاريع الحفاظ. شارع حيفا. تطوير منطقة البتاوين. مشاريع المتنزهات والحدائق. الرصافة: المركز التاريخي لمدينة بغداد. مشروع جامع الدولة الكبير. ضفة النهر والمنطقة الخضراء. مشاريع الإسكان. منطقة الجادرية واستدارة النهر. التحريض الحضري. الخاتمة. المصادر[1].

يقدم لنا المؤلف سلسلة من المشاريع العمرانية، بتسلسل تاريخي منذ تأسيس الدولة العراقية، والتي لم تتحقق أو تحققت جزئياً، وهو بهذا يقترب من/يتشارك مع

موقف عرضه د. خالد السلطاني في كتابه عمارة الحداثة في بغداد:

لم يقتصر المفهوم الموضوعي لعمارة الحداثة في بغداد، على ما تم تحقيقه من منجزات بنائية ملموسة وواقعية، وإنما شمل أيضا ما تمَّ تداوله من أفكار ومخططات ومواضيع بنائيـة لم يتم انجازها. وإذ يعرف أحد الألمان >التاريخ >كونـه "حاصل الممكنات التي تحققت"؛ فان تاريخ عمارة الحداثة البغدادية والعراقية عموماً، ووفقاً لهذا السياق، لا يعني "فقط" حاصل ممكنات المبانـي التي تحققت"، بـل يعني كذلك "حاصل ممكنات المبانـي التي لـم تحـقق، وكان يمكن لـها ان تتحـقق"؛ انـه لا يعنـي مـا "كان" فحسـب، بل أيضا ما "كان ينـبغي أن يكون!"[2].

إن ما يؤرق المؤلف ويثير غضبه هو ضياع، سرقة، فرص تحقيق ما كان ممكناً في مجال عمارة الحداثة التي اشتغل عليها معماريون أجانب وعراقيين. فالكتاب يضم ما يمكن وصفه بالفضائح لدى الجهات الرسمية المتنفذة والمسؤولة عن إقرار التصاميم المعمارية وتنفيذها. ويعرّفنا المؤلف، من موقع المطّلع على بواطن الأمور، على ما كان يجري من مفاوضات وقرارات عملت على تعطيل أو إجهاض تنفيذ التصاميم المعمارية، وهو بذلك يكمل السر المفضوح من خلال عرض التفاصيل بفضل عمله مع أمانة العاصمة.

فيما يلي سأتناول بعض أفكار الكاتب وأقدم ما تولد عندي من انطباعات كتعليقات قصيرة.

يُفهم من الكتاب أن بوادر عمارة الحداثة بدأت مع مشروع جامعة آل البيت (1922) الذي وضع تصاميمها جيمس مولسون ولسون (1867-1965). "كان مخططاً للجامعة أن تضم ست كليات وهي: كلية العلوم الدينية، وكلية الفنون، كلية الطب، وكلية الحقوق، وكلية التعليم والتربية، وكلية الهندسة، مع بناء مقر رئاسة الجامعة." (ص 13). ويعرض المؤلف تفاصيل ما تم تشييده والملابسات التي حالت دون إكمال التشييد. ويرجع بعض هذه الملابسات إلى الاختلاف في وجهات نظر فهمي المدرس، الذي أصبح أميناً للجامعة، وبين ساطع الحصري، الذي كان معاوناً لوزير المعارف ومن ثم مدير المعارف العام. وفي ظني أن الاختلاف كان نابعاً من موقف التشدد العلماني لدى الحصري ليكون التعليم ذو طابع مدني علماني غير طائفي، وربما كان هناك تحيزاً طائفياً أيضاً، كما يرد في بعض الدراسات. ولكن من المفارقات أنه "لم ينفذ من تلك المخططات سوى مبنى واحد هو مبنى (الكلية الدينية) – وهي إحدى الكليات الست، المؤلفة للجسم الأكاديمي للجامعة لم ينفذ من تلك المخططات سوى مبنى واحد هو مبنى (الكلية الدينية) – وهي إحدى الكليات الست، المؤلفة للجسم الأكاديمي للجامعة"[3].

يؤكد المؤلف في أكثر من مكان في الكتاب على تلك التصاميم المعمارية التي سيكون إنجازها مشجعاً للسياحة، و"تجعل العراق محط أنظار العالم وتجعل المشهد الحضري تظاهرة معمارية عراقية وعالمية." (ص 128)، "وقد يدر أموال طائلة كاستثمار في طبيعة بغداد الجميلة." (ص 186). وهو بهذا التأكيد يبرز القيمة الوظيفية والجمالية في آن واحد، والنظر إلى بعض المشاريع كمصادر للدخل. لكنه في ذات الوقت يُحذر من سوء استخدام الاستثمار إذ يقول بأن مشاريع الاستثمار صارت تنفذ اليوم في بغداد بعيداً

عن الشفافية "والمعرفة المنقطعة عن واقع العراق ومشتتة لا تتفق مع المعايير العالمية والمحلية." ويقول أيضاً بأن:
كلمة استثمار هي الهدف وليس المعنى الحقيقي له المعتمد على المعايير التخطيطية والتصميمية والاستدامة فكل شيء أضحى مهيئاً للتهديم (تفليش) وليس للتطوير." (ص 231).
والإشارة هنا هو لمشروع مركز بغداد الأساسي (الباب الشرقي) المتلكئ المعروض للاستثمار منذ عام 2008، كما يخبرنا المؤلف.
قد يجئ الهدم لأسباب سياسية كما يبين الكاتب في فصل "شباط الأسود عام 1963" الذي شهد سجن فنانين وأدباء ومثقفين ومعماريين، وينقل، ولكن دون توثيق، حديثاً "لأحد الانقلابيين يذكر [فيه] أنه كان يقود إحدى دبابات الهجوم وعند اعتلائه جسر الجمهورية وباتجاه ساحة التحرير أمره رئيسه أن يوجه مدفع الدبابة نحو نصب ساحة التحرير لقصفه ولكنه توسل إليه أن لا يفعل ذلك ونجح في عدول أمره من عدم قصف هذا الصرح العظيم." (ص 75). ليس هذا بغريب لمن لا يحترم الإنسان كقيمة قائمة بذاتها، وعدا ذلك هناك تاريخ للاستهانة بالتماثيل والصروح والآثار التاريخية وتدميرها تجلت بعد 2003 وشهدنا أبشع أشكالها في التدمير والتخريب الداعشي.
كما يبرز المؤلف حاجات الناس ومتطلبات البيئة المكانية والتراثية في المشاريع المعمارية: فصل "منطقة باب الشيخ" (ص 111 - 130)، أي الجمع بين الاعتبارات الجمالية وحاجات الناس وليس التأكيد على الترف المعماري الساذج. ويؤكد على أن مهمة المعمار التراثي "لم ولن تكن أبداً بالسهلة إن لم يتسلح بالمعرفة المخلصة والإدراك الخلقي العالي الهادف لإنتاج عمارة أصيلة للناس، كل الناس، كتلك التي حدثت في مشروع باب الشيخ." (ص 130).
ويعرض ذلك أيضاً بالنسبة لمشروع "ساحة النافورة" الذي احتوى على شقق سكنية بعمارات شاهقة وأسواق ضخمة ومباني إدارية وتجارية (ص 146).
لقد خرجت بانطباع أن تطور العمارة الحديثة في بغداد، والعراق عموماً، كما تجسَّد في المنشآت المبنية وتلك التي بقيت محفوظة في أدراج الدوائر الحكومية ذات العلاقة، كان مرتبطاً بشكل عام بالدولة العراقية منذ تأسيسها سنة 1921، وهو تقليد له جذوره في العراق القديم. هل ترى أنه كان من المناسب أن يقوم المؤلف بتأشير هذا الحال وتعليل ضعف، وليس غياب، مساهمة القطاع الخاص في تشييد صروح معمارية للاستخدام العام تتجاوز بناء الدور السكنية؟
الانطباع الآخر الذي خرجت به من قراءة الكتاب هو عدم تطور الذوق الجمالي العام خارج إطار النخب المثقفة، المعمارية والتشكيلية. تلاحظ ذلك، على سبيل المثل، في تشويه واجهات المباني باللافتات والصور والإعلانات والتي ازدادت بعد 2003. وكذلك تدهور الذائقة الجمالية لدى أصحاب القرار في الدولة وغياب الحس المعماري السليم "والحد الأدنى من المعلومات العامة وليس [فقط] المعمارية،" وكما تجلّى في إعلان مسابقة معمارية من قبل دائرة التصاميم في أمانة بغداد، إذ "لم يكن الهدف هو التطوير وإنما التهديم والاستحواذ على الأرض المحيطة بالصحن [الكاظمي] الشريف ...

لقد أوجدت هذه المسابقة سبب شرعي للتهديم وليس للتطوير ... وبذلك خسرنا أكبر رصيد لمباني تراثية في العراق.'' ويعرض المؤلف ذلك في الفصل المعنون ''مشاريع الحفاظ'' (ص 170-153).

وقد ارتبط هذا التدهور بالفساد المالي والإداري. ففي مكان آخر من الكتاب يشير المؤلف إلى إلغاء مشروع تطوير المناطق الخضراء (مشروع نهر الخر): ''ولاحقاً وزعت أرضه كبيوت للمتنفذين.'' (ص 187). وتكررت ذات الظاهرة في تطوير جزيرة عند ملتقى نهر ديالى بنهر دجلة عام 1981 ''لتحويلها إلى حديقة حيوان ونبات ومركز للأبحاث في علوم الحيوان والنبات وبنفس الوقت لها دور تعليمي معرفي في علوم البيئة الطبيعية ... أهملت هذه التصاميم الرائدة واستفاد من أرضها المتنفذين الذين لم يكن يعوا الطبيعة الفريدة لهذا الموقع ...'' (ص 193-194).

ويتجسد التشويه وتدهور الذائقة في العديد من المشاريع، ومنها مشروع إعادة تشكيل وهيكلة متنزه الزوراء، فما كان مصمماً لم يطبق بالكامل وكما يجب إذ:

شوهت بمعالم لا تمت لتصميم الحدائق وحتى الذوق العام بصلة فتشاهد حديقة الحيوانات ملئها الأكشاك الرديئة والمشاتل والأرض السيراميكية والشناشيل التي في غير محلها. لعل حتى الحيوانات تستغرب مكانها في هذه البيئة غير الطبيعية فما بالك بالمشاهد الذي يضج من مكبرات الصوت العالية التي يستخدمها أصحاب الأكشاك لترويج محالهم بأصوات موسيقاهم النشاز. (ص 188)

لقد التقط الكاتب علي حسين مسألة في غاية الأهمية في كتاب موفق الطائي لخصها في عنوان مقالته ''إنهم يكرهون بغداد''[4].'' يقول الكاتب ''استفزني كتاب المعماري الطائي، خصوصاً أن الرجل يتحدث بالوثائق عن المشاريع التي قدمتها خيرة العقول العراقية لتطوير بغداد، لكنها حوصرت بعقوق سياسييها الذين يكرهون بغداد!'' عرفنا بعضاً من هذا الكره في اختفاء تمثال أبو جعفر المنصور، وفي ازدراء اسم شارع الرشيد ووجوب تغييره، وغيرها. كتب المعماري معاذ الآلوسي ان ''من يحب بغداد الخالدة، يعرف أن لها وجوهاً حضارية عدة ... لقد كانت المدينة نوّاسية بامتياز قبل أن تغتصب وتُخصى وتصاب بالجهل والتخلف والخوف من قبل تجار السياسة والدين''[5]. وما زاد الوضع سوءاً هو فقدان أو هشاشة الذاكرة التاريخية عند الطبقة السياسية الطائفية والجمهرة الواسعة من الناس. وهو ما يعبّر عنه المؤلف ضمناً عند الإشارة إلى فقدان الوثائق أو إهمالها في خزانات أمانة العاصمة.

إن المؤلف يقدم لنا عرضاً لما كانت ستكون عليه بغداد، الجنة المُتصورَة، لو اعتمدت ونفذت التصاميم المعمارية التي أبدعها معماريون عراقيون وأجانب. إن الألم الممزوج بالغضب يعتصره وهو يكتب عن إجهاضها، مثلما فعل المعمار معاذ الآلوسي. ولكننا نظل بحاجة إلى التعمق في تشغيل منهج المادية الثقافية للتوصل إلى فهم نقدي للقيم، والمعتقدات ووجهات النظر التي تنتظم الممارسة والمنتج الثقافي، المعماري، في الفترة قيد البحث، وربط ذلك بالبنية الاجتماعية وقضايا العمران العراقي (بالمفهوم الخلدوني). ونلمح بعضاً من هذا المنهج في فصل

"تخطيط المدن" عندما يكتب بأن شارع الرشيد "لم ينمو بشكل طبيعي من الحاجة الإنسانية الاجتماعية العضوية التي تتطلبها المدن وإنما كان نتاج الحاجة الموضوعية التي فرضتها الحروب." (ص 29). مقابل ذلك يكتب عن شارع المستنصر (شارع النهر) "الذي جاء كنتاج طبيعي للعلاقات التجارية المتطورة في حينه والقريبة من مرسى البواخر النهرية التي كانت ترفد البلد بالبضائع الواردة والصادرة وأسست المركز التجاري لبغداد." (ص 30).

ليس ضرورياً للمرء أن يكون ماركسياً ويستحضر مفاهيم البناء التحتي والفوقي للنظر إلى العمارة كاستجابة للحاجات الوظيفية للمجتمع (تخطيط المدن والمرافق الأساسية والشوارع، المباني كمحال للعمل والإنتاج المادي، وكمساكن لائقة للناس، وكفضاءات عامة مفتوحة لهم ولأطفالهم) وكمجال للتعبير عن جماليات الخلق والتأثير السلبي أو الإيجابي الذي يرشح من ذلك التأثير على البيئة. ربما يكفي أن نستكشف ما يسمى بروح العصر لنفهم سماجة وفساد الذائقة المعمارية التي يعرضها موفق الطائي.

ويروي المؤلف، في فصل "تخطيط المدن"، الدراسات القطاعية للرصافة والكرخ والكاظمية والتصاميم الخاصة بها. وكان من العاملين فيه، كمدير مشروع، المخطط الياباني (يمادا) مع معماريين آخرين من داخل وخارج العراق، وحجزهم كرهائن أثناء حرب الخليج، ومحاولة لفيف من أساتذة جامعة بغداد تقديم دراسة لاحقة رفضتها أمانة بغداد. ومن ثم قيام (يمادا) عام 2013 بالاتصال بأمانة بغداد عارضاً عليها العمل بالمجان لتحديث التصميم، لكنه قوبل برفض أمانة العاصمة. وكان هذا، كما يكتب المؤلف، إجراماً "بحق بغداد مع سبق الإصرار لأن وجود أي تصميم مُقرّ قانونياً يقض مضاجع الإداريين المرتشين." (ص 34). كنت أتمنى أن أقرأ المزيد من التعليل لموقف أمانة العاصمة والكشف عن عملية اتخاذ القرار فيها ورسم معالم الإجراءات التي تحول دون اتخاذ القرارات الاعتباطية في المستقبل.

ويختتم المؤلف فصل "تخطيط المدن" بعد الحديث عن تصاميم أخرى لبغداد بالقول:

هكذا اغتصبت في الأمس وتنتهك اليوم أحلام وآمال كبار المصممين في العالم والعراق الهادفة لجعل بغداد جنة، ولكن تبقى هذه الأفكار والآمال الحاضر الغائب لدى كل مختص بالعمارة والتخطيط الحضري يسعى لتنفيذها لأنها تمثل السعادة لشعبنا العراقي الحر العظيم." (ص 41)

لقد مهَّد المؤلف بكتابه الأرضية لتفسير فشل تحقيق حلم الجنة المرجوة. وهو ما يزال يحمل معه هذا الحلم: "دعونا لا نلعن الظلام ولنضيء شمعة ونجعل هذه المشاريع ذات فائدة لخططنا ومشاريعنا المستقبلية ..." (ص 242). أتراه يدعو المجتمع المعماري العراقي إلى إعادة النظر في تكوينه ليتحول من التحصن بالعمل الفردي نحو تجميع موارده ليكون قوة ضاغطة تعمل على إعادة تشكيل الذائقة الجمالية، وقواعد ترخيص الإنشاء، للمساكن والمحلات التجارية، وضبط معالم الواجهات لتجنب القبح في العمارة، وضمان احترام البيئة والفضاء العام؟

يبدو لي أن مسودة الكتاب لم تخضع لمراجعة لغوية من قبل الناشر أو المؤلف إذ أن الكتاب ملئ بالأخطاء الطباعية والإملائية واللغوية،

وهو ما يؤسف له لكتاب يحمل سمة توثيقية. ومن المؤسف أيضاً عدم توافق أرقام بعض الأشكال المذكورة في المتن مع الأشكال ذاتها. على سبيل المثل، ترد إشارة إلى "أكبر تشويه بصري في بغداد [في ساحة الطيران] شكل (68)" (ص 94) في حين أن الشكل نفسه يحمل الرقم (67)؛ وكذلك عدم وضوح الإشارة إلى الشكل "شكل (و140139)" (ص 178). لقد أفسدت مجموع هذه الأخطاء متعة قراءة الكتاب.

لم أر ضرورة لاستخدام صفات التبجيل: أكبر معماري عالمي في الوقت الحالي (وماذا عن الآخرين؟)، ثورة تموز الخالدة (الخلود لا معنى له، وفي أحسن الأحوال هو التكلس عبر الزمن)، الرائد الكبير (هل هناك رواد صغار؟) وغيرها.

يمكن تلافي هذه الأخطاء عند إصدار طبعة ثانية، وعندها يمكن إضافة الآتي:

- ثبت بمحتويات الكتاب.
- ضمان وضوح الأشكال والصور فهي مهمة في إيصال المعلومة المناسبة للقراء وتوضيح مقاصد المؤلف، عدا أنها جزء مهم من توثيق العمارة العراقية.
- مسرد ألفبائي بالمصطلحات باللغتين العربية والإنجليزية، مع شرح قصير بالعربية للمصطلح لتسهيل الفهم على القارئ غير المتخصص. على سبيل المثل، مصطلح "الرسمانية" (ص 49)، ما هو معناه، وهل هو مشتق من "رسم"؟
- مسرد بأسماء المعمارين وغيرهم ممن يرد ذكرهم في الكتاب.
- فهرس عام.

هذا الكتاب يستحق القراءة والتأمل فيما يرمي إليه مؤلفه.

الهوامش:

1 - سأعمد في هذه المراجعة القصيرة إلى الاقتباس من الكتاب، بدلاً من الاكتفاء بالإشارة إلى الموضوع قيد المراجعة والتعليق.

2 - د. خالد السلطاني، عمارة الحداثة في بغداد: سنوات التأسيس (عمان: مطابع دار الأديب، 2014)، ص 9. يمكن قراءة هذا الاقتباس تحت عنوان "عمارة الحداثة في بغداد .. سنـوات التأسيس وروح المكان،" المدى الثقافي، 2 أيار/مايو، 2013، باستخدام هذا الرابط:
http://www.bonah.org/%D8%B9%D9%85%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%A8%D8%BA%D8%AF%D8%A7%D8%AF-%D8%B3%D9%86%D9%80%D9%80%D9%80%D9%80%D9%80%D9%88%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AA-2/

3 - د. خالد السلطاني، مصدر سابق.

4 - علي حسين، "إنهم يكرهون بغداد،" جريدة المدى، 10 آذار 2019:
https://almadapaper.net/Details/217186/العمود-الثامن-إنهم-يكرهون-بغداد

5- معاذ الآلوسي، نوستوس: حكاية شارع في بغداد (قبرص: دار منشورات الرمال، 2012)، ص 183.

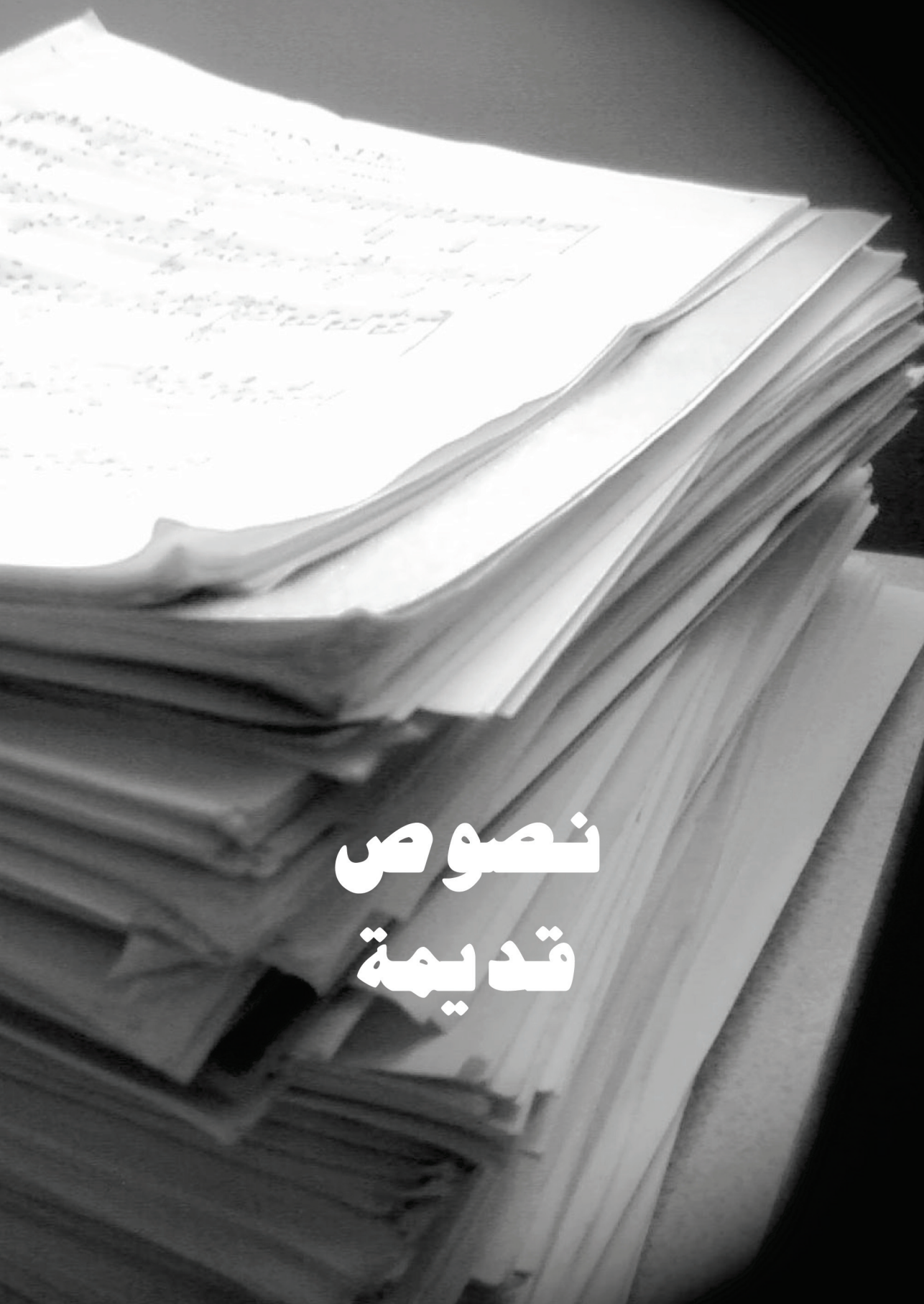

نصوص قديمة

بواكير الحركة الوطنية *

الحلقة الاولى

في لقاء مع الاستاذ حسين جميل

اذا كان التاريخ اكبر معلم للانسانية، فلأنه خزين هائل لتجارب الشعوب والأمم، لتجارب الانسانية في درب الحرية والانعتاق، وخزين ثر العطاء في نضالها من اجل أهدافها السامية.

لذلك كان الإنسان، ولما يزل، يعود الى التاريخ من ابواب متعددة ومتباينة ويحاول الدخول فيه من نوافذ يختارها هذا المفكر وذلك السياسي.

وهيئة تحرير (الثقافة الجديدة) في سياق لقاءاتها التي عقدتها مع المعنيين من الساسة والاختصاصيين لاستيضاح بعض جوانب بدايات وتطور الحركة الوطنية والتقدمية العراقية، التقى ممثلها الرفيق الدكتور صفاء الحافظ اليوم مع الاستاذ حسين جميل الشخصية السياسية المعروفة، اطلالا منها على صفحات من تاريخنا المعاصر، واستطلاعا لمختلف الآراء، التي ليست بالضرورة تعبيرا عن وجهة نظر المجلة.... انها نوافذ من الحاضر على الماضي، تستحث آراء الآخرين من الساسة والمفكرين المعنيين، ليجري التفاعل ويكتمل التناول الشامل الموضوعي، فتجري الافادة في بناء الغد الذي نطمح به.

(الثقافة الجديدة)
نيسان 1978

• يسر مجلة الثقافة الجديدة أن تلتقي بالاستاذ حسين جميل الشخصية السياسية المعروفة في أوساط الحركة الوطنية الحديثة في العراق، وتستوضح منه - مشكورا - عن العديد من النقاط التي تحتاج في الوقت الحاضر الى تثبيت لتكون مادة تفيد في دراسة تاريخ الحركة السياسية في العراق، فأهلا وسهلاً بالاستاذ حسين جميل.

• شكرا.. دكتور صفاء على ثقتكم وعلى رجوعكم لي للاستفسار عن بدايات الحركة الوطنية الحديثة وبدايات الحركة التقدمية في العراق .

نعم، حيث ان عمري يساعد على ان اتذكر تلك البدايات وانا الآن في السبعين. لقد بدأ نشاطي مبكرا بالنظر للفراغ الذي كان موجودا في الحياة العامة في العراق في أوائل العشرينات، هذا الفراغ شجع الطلاب أن يتقدموا هم لملء بعضه، وحسب امكانياتهم.

للتعرف إلى بدايات الحركة التقدمية في العراق يجب ان نضع انفسنا في ظروف الاحتلال البريطاني في الحرب العالمية الأولى. بدأت الحركة الوطنية في الواقع بدايات سياسية ثم تطورت الى ان اصبح لها مضمون اجتماعي.

أقصد كانت بدايات سياسية وانها بدأت بالمثل من أجل الاستقلال والتخلص من الإحتلال البريطاني، وبدات من ناحية أخرى، بحركات سياسية على صعيد الوطن العربي وتأثر بها العراق . أود أن أوضح هذه النقطة:-

بداية الوعي السياسي لدينا كانت، في الواقع الثورة العربية في الحجاز اواخر ايام الحرب، ففي سنة 1917، سنة احتلال بغداد بدأنا نسمع اقصد جيلنا بدأ يسمع لأول مرة عن استقلال العرب والتخلص من الإستعمار عن طريق نشر اخبار الثورة العربية في الحجاز، حيث كان للانكليز المحتلين لبغداد مصلحة في نشر اخبار هذه الثورة لأنها ثورة ضد اعدائهم الأتراك؛ فمنذ ذلك الوقت كنا نسمع ونقرأ في الجرائد اخبار ثورة الحجاز وانها تطالب بالتحرر من الأتراك والاحتلال التركي للبلاد العربية وطلب الاستقلال والوحدة العربية. هذه الحركة فتحت اذهاننا لشيء جديد لم نكن نعيه في ذلك الحين. تطورت الدعاية لثورة الملك حسين الى مطالبة باستقلال العراق وتطورت الى حركة سياسية ضد الانكليز ايضا. بدأت الحركة الوطنية بالحقيقة هذه البداية التي ذكرتها.

وجاءت اخبار بقيام حكومة عربية في الشام برئاسة احد أنجال الشريف حسين وهو فيصل، ومن المعلوم أن كثيرا من العراقيين الضباط الذين ساهموا وشاركوا في الثورة العربية الذين كانوا في الشام، لهم اقارب واصدقاء في العراق وكانوا على اتصال بهم، وهؤلاء شجعوا الحركة الوطنية للتخلص من الانكليز واقامة حكومة وطنية حتى يتيسر لهم العودة من الشام الى العراق، وأرادوا أن يكون لهم موطن يعملون فيه فشجعوا الحركة الوطنية في العراق. بدأ التهيؤ لثورة ضد الإنكليز وهي الثورة التي قامت فعلا أي (ثورة العشرين).

واتذكر الحركات الأخرى التي أثرت على جيلنا وكانت نواة الوعي السياسي في الأوساط العراقية. في تلك الأيام انتشرت

الدعوة لمبادىء ويلسن الأربعة عشر، وحق تقرير المصير. ثم جاءتنا اخبار ثورة مصطفى كمال ضد الاحتلال الانكليزي وضد الخليفة في استنبول الذي كان مواليا للانكليز، ومن ناحية اخرى ضد احتلال اليونانيين لأزمير ومنطقتها. هذه الحركات نشرت الوعي السياسي في اعقاب الحرب العالمية الأولى. كانت هذه بالنسبة للعراقيين قد أحدثت الوعي السياسي الذي تطور إلى الثورة (العشرين) ثم الى تكوين أحزاب تطالب بالاستقلال وان كانت الأحزاب لها جذور اقدم تمتد الى عام 1908 عندما تحقق الإنقلاب العثماني الدستوري، وتوصل جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم ونشأت مقابل الحركة التركية جمعيات عربية مثل جمعية (العربية الفتاة) و(العهد) و(جمعية اللامركزية)، التي تطلب اللامركزية للبلاد العربية. هذه الحركات نشرت الوعي السياسي.

ثم في العشرين جاءت اخبار الثورة البلشفية في روسيا، ثورة اكتوبر. الناس ايضا تأثروا باحداث هذه الثورة لأنها اولا ضد اوضاع الناس السيئة. كانت مشاعرهم ضد القيصرية حتى بسبب دعايات تركية قديمة، فثورة تقوم ضد القيصرية تلقى قبولا عند الناس ثم لدى فئة صغيرة واعية ممن تأثروا في دراساتهم في اوربا بوجه خاص وكانوا يعون الثورة البلشفية اكثر من كونها حركة ضد القياصرة، ففهموا وجهها التحرري ودعوتها الاجتماعية وتأثروا ايضا بكشفها النوايا الاستعمارية وكشفها اتفاقية (سايكس بيكو) وتآمر فرنسا وانكلترا، وروسيا القيصرية ضد البلاد العربية وتقرير تقسيمها بينهم الى مستعمرات.

ثم وصلت الى أيديهم نسخ مترجمة من البيان الشيوعي (المانيفستو) وتأثروا بدعوته التحريرية. وثم بالدعوة الى حق الشعوب في الاستقلال، وحق تقرير المصير ومكافحة الاستعمار.

هذه الدعوة حررت مشاعر الناس، ان لم اقل اصبح بعض الشباب يؤمنون بالمبادىء الفكرية او النظرية للثورة البلشفية؛ فكان هنالك تعاطف بدون شك بينها وبين عدد كبير من المثقفين والشباب.

واخبار الحركة الوطنية في مصر بقيادة سعد زغلول والوفد، كانت تؤثر في جيلنا تأثيرا كبيرا. وبعدها كنا نتابع اخبار الثورة في سوريا ضد الفرنسيين.

مجموع هذه الحركات احدث الوعي السياسي اولا ثم عن طريق الثورة البلشفية، ادخل الى الوعي السياسي الوعي الاجتماعي، بأنه لا يكفي لبلد أن يتحرر من الأجنبي وينال الاستقلال، انما يجب أن يتحرر الى جانب ذلك من الاستغلال الداخلي. كانت بدايات الوعي الاجتماعي في اوائل العشرينات، استطيع ان اقول في اعقاب الثورة العراقية ومنذ عام 1922 – 1923. ويجب ان نذكر من ساهم في نشر هذا الوعي وفي مقدمتهم الأستاذ المرحوم (حسين الرحال) الذي تأثر بظروف وجوده في اوربا في اعقاب الحرب العالمية الأولى في المانيا بالذات، واطلاعه على الثورة البلشفية في روسيا من جهة ثم الحركة التي قامت في المانيا في أعقاب الحرب العالمية الأولى من جهة ثانية، تأثر بهاتين الحركتين. ولما عاد الى العراق كان مستوعبا للمضمون السياسي والاجتماعي للثورة البلشفية وهو الذي بشر بمفاهيم هذه

الثورة ودعواتها الاجتماعية والسياسية، وعن طريقه انا شخصيا اطلعت على البيان الشيوعي ليس مباشرة من يده (ففارق السن بيني وبينه كان يحول دون لقائنا) ولكن عن طريق صديق، مشترك لي وله وهو (فاضل محمد البياتي) المهندس الذي اصبح في سنة 1958 - 1959 وكيلا لوزارة الإسكان، وهو اكبر مني في العمر قليلا، واصغر من حسين الرحال، بحيث كان صديقا مشتركا بيننا واخذ من حسين الرحال البيان الشيوعي المترجم الى العربية، واعطاه لي وأنا كشاب تستهويني الأفكار الجديدة، واقرأ كثيرا ما يقع تحت يدي، وقرات البيان الشيوعي وتأثرت بمضمون هذا البيان، ولا استطيع ان اقول بأني قد استوعبته تماما، وفهمت جميع مفاهيمه وانما بعض نواحيه.

نرجع الى هذه الحركات التي ايقظت الناس وهزتهم. يعود الفضل في ذلك الى مجموعة من الشباب في ذلك الوقت وهم : حسين رحال، سليم فتاح، مصطفى علي، محمود احمد السيد، عوني بكر صدقي.

وهذه المجموعة بدأت تنشر وتكتب مقالات في الصحف، كراسات (وقصصاً بالنسبة لمحمود احمد السيد) كانت بدايات كتاباتهم هي دعوة الى تحرر الفكر من مفاهيم قديمة كانت سائدة، ولا يجادل الناس في صحتها. شككوا في صحة المعتقدات القديمة ودعوا الى حرية التفكير. قالوا إن الشخص عندما يتلقى فكرة جديدة أو يقرا شيئا جديدا يجب ان لا يمنعه من قبوله عقيدة سابقة له تتعارض مع الفكرة الجديدة، وانما يستوعب الجديد موضوعيا، فاذا وجد فيه صحة قبله، وان تعارض مع معتقدات كان يعتقد بها. إن على المرء أن يناقش وان يجادل وان ينقد. أن لا يكون أسير أفكار قديمة مسيطرة واذكر مثلا، محمود احمد السيد كان ينشر في هذا المضمون قصصا ومقالات وكذلك عوني بكر صدقي، كلاهما نشرا كتابا بعنوان (السهام المتقابلة). وكنا نقرأ هذه الكتب جميعها لقلة المطبوعات، فقد كان قليل من الكتب يطبع في العراق، وقليل من الكتب تأتي من مصر. ثم أصدر هؤلاء الشباب التقدميون صحيفة أو مجلة نصف شهرية تصدر كل اسبوعين بعنوان (الصحيفة). الصحيفة لها الفضل الكبير في نشر الفكرة التقدمية والوعي الاجتماعي في العراق، دعت ـ الى جانب التحرر الفكري ـ الى مفاهيم محددة علمية في الاقتصاد والسياسة وفي النظام الاجتماعي والنظام السياسي دعت اولاً الى السفور، وكان في ذلك الوقت في نظر الجمهور اقرب إلى الكفر والى اتهام من يدعو اليه بالفجور. مجرد دعوتهم الى السفور ودعوتهم إلى تحرر المراة والى حقوقها في الحياة والى انها مساوية للرجل، والى انها نصف المجتمع، هؤلاء الشباب كانوا يجتمعون في مقهى في محلة قنبر علي التي كنت اسكنها في ذلك الوقت، وهي قهوة (النقيب). وهؤلاء الشباب هم اولا حسين الرحال وسليم فتاح ومصطفى علي وعوني بكر صدقي ومحمود احمد السيد، وسبب رؤيتي لهم انهم أولا يجتمعون في محلتنا بالقهوه التي تبعد عن بيتنا بحوالي خمسين مترا، وكان يجلس معهم اخي الكبير مكي جميل، وابن عمي عبد العزيز جميل. مكي جميل وعبدالعزيز جميل في الحقيقة ليسوا من مجموعتهم الفكرية،

يعني ليس لديهم اية علاقة معهم في التفكير السياسي، وإنما كانوا أصحابا، ومن محلة واحدة وكأصدقاء كانوا يلتقون، فطبعا كنت اراهم بسبب وجود أخي وابن عمي معهم، وبسبب جلوس فاضل محمد، الذي كان صديقا لي، معهم ايضا؛ فمجلة الصحيفة نشرت الوعي. ولأول مرة بدأنا نقرأ مفاهيم جديدة تختلف عما هو مألوف في قراءاتنا. لأننا كنا نقرأ بعض المجلات والصحف التي تأتي من القاهرة والتي كانت تاتي الى المعهد العلمي وهو نادي اسسه بصورة أساسية ثابت عبد النور، ومحله في مدخل محلة جديد حسن الباشا، والآن قريب من شارع الرشيد، وكنا نذهب إليه لقربه من بيوتنا وهو كذلك في طريقنا الى المدرسة (الثانوية). فكنا نقرأ في المعهد العلمي الصحف المصرية والمجلات المصرية فهناك وجدنا في الصحيفة اتجاها آخر فتأثرنا به.

س – ما هي العوامل الخارجية والداخلية التى اثرت في تفكيركم السياسي والاجتماعي آنذاك؟

ج - استاذ صفاء الخص المؤثرات الخارجية التي اثرت على تفكيري واعتقد انها اثرت على الجيل الذي انا منه، حتى أعود الى المؤثرات الداخلية في داخل العراق والتي أثرت على تكويننا السياسي ثم الاجتماعي واتجاهاتنا السياسية في مستقبل حياتنا. اول المؤثرات الخارجية الثورة العربية في الحجاز، الثورة الكمالية في تركيا، والثورة البلشفية في روسيا، ومبادىء ويلسن الأربعة عشر منها حق تقرير المصير. اما اهم المؤثرات الداخلية العراقية فهي ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني التي أثرت على تفكيرنا وعلى جونا ووعينا بالواقع، لأننا اول ما بدأنا نشعر بوجودنا كنا نرى الاجتماعات الوطنية في جامع الحيدرخانة، تحت ستار قراءة المنقبة النبوية او في الحسينيات حيث كانت تقرأ المآتم الحسينية، وتلقى ايضا الخطب السياسية والقصائد. ثم الثورة.. بدأت الثورة وكنا طبعا نتعاطف مع الثورة ونتعقب أحداثها ونفرح بانتصاراتها ونحزن لانتكاساتها. ثم انتهت الثورة (ثورة العشرين-المحرر) بعد اربعة اشهر من قيامها طبعا اصبنا بخيبة امل. وبدأ الوضع الداخلي يتغير بمجيء فيصل وترشيحه الى عرش العراق. وبدأت الحركة الوطنية في العراق تأخذ طابع التخلص من الانتداب. كان الشعار ذلك الوقت التخلص من الانتداب وكحركة مقابلة من الانكليز واخفاء اسم الانتداب الذي كان يلقى معارضة كاملة من الشعب العراقي اوجدوا طريق التحالف عن طريق المعاهدة وهي تتضمن كل احكام الانتداب، ولكن دون ذكر اسمه. كل أوضاع الانتداب ومفاهيمه صيغت في معاهد، فكانت معاهدة 1922. ونحن كنا تلاميذ في الثانوية نلمس معارضتها عندما عرضت أولا. كنا نقرأ في الصحف معارضتها. ثم جمع المجلس التأسيسي لتصديقها، وكنا نرى المظاهرات المحيطة بالمجلس التأسيسي للضغط على النواب حتى لا يصدقوا عليها. وكنا في ذلك الوقت في الصف الاول الثانوي مايسمى الان بالاول المتوسط (المتوسطة تعبير لم يكن مستعملا حينذاك وكانت الدراسة التي تلي

الإبتدائية تسمى بالثانوية مباشرة) وكنا في الصف الأول ونرى المظاهرات ونعرف موضوعها ونتعاطف مع المعارضين ضد المعاهدة.

الآن ندخل في المؤثرات الداخلية. قلت انها اولا المطالبة بالاستقلال، ثانيا التخلص من المعاهدات والانتداب. ثم جاءت اوضاع داخلية أمرّ عليها مرا سريعا. وهي مثلا: العمل على ابقاء الموصل جزءا من العراق ضد مطاليب تركيا، طبعا كنا نتعاطف مع الحركة ضد انسلاخ الموصل. ومادمت اتحدث عن الوقت الذي كنت فيه طالبا في الصف الأول الثانوي اسجل ذكرى شخصية جميلة، كان لها اثر في مواقف قادمة، صادف أن جلست على رحلة واحدة مع عبد القادر اسماعيل. وعند جلوسنا الاول تعارفنا (كان ذلك في سنة 1923 في الثانوية المركزية التي كانت تشغل طابقا واحدا من المدرسة المأمونية الابتدائية والتي هدمت واصبحت الآن ساحة سيارات بجانب وزارة الدفاع في الميدان). جئت انا من العمارة لان والدي كان حاكما في العمارة وتخرجت من الابتدائية في العمارة وجئت الى بغداد. وعبد القادر اسماعيل تخرج من مدرسة العوينة من الصف السادس الابتدائي. وصدفة وبدون اختيار جلسنا على رحلة واحدة وبدأت صداقتنا منذ جلوسنا الأول. أنا سالته عن اسمه ومن اية مدرسة جاء، وهو كذلك سألني عن اسمي ومن اية مدرسة جئت، وأصبحنا اصدقاء الى الآن اذكر هذا لأنها بداية عمل سياسي مشترك بيني وبين عبد القادر اسماعيل. فالحقيقة ومن الصدف ايضا تنامي صداقتنا، بعد ان وجدنا انفسنا في تفكير متقارب جدا، ان لم يكن واحدا. أتجاوز المسائل الشخصية وادخل في حديث عن أول حركة مشتركة ساهمنا فيها، وهي اضراب ضد مدرس اللغة الانكليزية. وكان عبد القادر اسماعيل وانا من الفعالين في حركة الإضراب كان اضراب صف واحد وليس اضراب المدرسة كلها، لأن هذا المدرس وكان اسمه (كود اول)، اهان العراقيين بسبب موضوع المعاهدة ومعارضتها، وقال في الصف (ان العراقيين حمير) لانهم يرفضون المعاهدة. بينما الإنكليز يريدون أن يمدنوهم ويحضروهم ويعملوا على تقدمهم .... الخ.. استعمل كلمة (حمير) ضد العراقيين. ونحن قررنا أن نضرب عن دخول دروسه واعلمنا الإدارة أننا نرفض أن يدرسنا هذا المدرس بعد أن أهان العراقيين وسماهم (حمير)، وفعلا نجح الاضراب ونقل (كود اول) من الثانوية الى الموصل، ونقل معلم اللغة الانكليزية في الموصل المستر (برايز) محله بنجاح الاضراب شعرنا بقوتنا واننا نستطيع أن نفعل شيئا.

نجاح هذا الاضراب شجع الطلاب وشعروا بمعنوية قوية، تصور انه في زمن الانتداب، ان طلابا صغارا في الصف الثالث المتوسط يستطيعون أن ينقلوا مدرسا انكليزيا من المدرسة. وفي السنة التالية نشر استاذ كتاب الدولة الأموية في الشام، فانهى وزير المعارف عقده، لانه كان لبنانيا من بيروت الأستاذ انيس زكريا النصولي. فنحن انتصارا للاستاذ وتحت شعار (حرية الفكر وحرية البحث العلمي)

اعلنا الإضراب في المدرسة، وليس في صفنا فقط وانما في كل صفوف المدرسة الثانوية. وأنيس زكريا النصولي، كان يدرس في دار المعلمين ايضا. وطلاب دار المعلمين باتصالنا معهم اضربوا ايضا. وقررنا القيام بمظاهرة سارت الى وزارة المعارف والتي كان محلها في شارع الجسر، والان شارع المامون بجوار المتحف البغدادي وكانت وزارة المعارف في البناية المشغولة الآن بالقسم البلدي، وكان بجوارها حينذاك المتحف العراقي وكانت مظاهرة قوية وعنيفة، لم يستطيعوا تفريقها، لا الشرطة ولا الإطفائية، حيث جاءوا بالاطفائية ترمينا بخراطيم المياه، لكننا استطعنا ان نتغلب عليهم ونأخذ الخراطيم من ايديهم، لأن عددنا اكبر، ونوجه المياه عليهم وفي هذه المظاهرة طردت انا وعبد القادر اسماعيل نهائيا من المدرسة الثانوية في كانون الثاني 1927 . كانت ظروف انتخابات واجتمع المنتخبون الثانويون لانتخاب النواب، فطالبوا رئيس الوزراء جعفر العسكري بالغاء امر طرد الطلاب، والجرائد الوطنية ساندتنا مثل جريدة (الاستقلال)، كما أن الرأي العام كان يتعاطف معنا، وبعد حوالي شهر الغي قرار طردنا وعدنا الى المدرسة. وكانت هذه الحركة أول عمل مهم لحركتنا الطلابية وبالنسبة لي شخصيا وللاخ عبد القادر اسماعيل. كان بداية تعاون استمر حتى صدور جريدة (الأهالي). ذكرت هذا كمقدمة حتى نصل للظروف التي أسسنا فيها جريدة (الأهالي) وقبل تأسيس الأهالي اشتركنا في المظاهرة ضد زيارة (الفريد موند) الزعيم الصهيوني للعراق. وبعد الغاء طردنا نجحنا في الامتحان الوزاري للدراسة الثانوية.

تخرجنا انا وعبد القادر اسماعيل من الثانوية، ودخلنا كلية الحقوق وتأتي الحركة ضد (الفريد موند) في شباط عام 1928، وكنا انا وعبد القادر اسماعيل طالبين في الحقوق وبسبب دورنا في الحركات الطلابية في الثانوية (الأضراب ضد المدرس الانكليزي والمظاهرة في قضية النصولي)، اصبحنا على علاقة وثيقة مع الطلاب الواعين وبسبب طردنا نهائيا اخذ الطلاب ينظرون الينا نظرة متميزة عن الطلاب الآخرين، وبتعبير آخر كانوا يشعرون بأننا قادة للحركة الطلابية بسبب طردنا. ولو لم نكن قد طردنا سابقا لكنا مثل باقي الطلاب الآخرين، نشتغل في الحركة، ولا نتميز عنهم، لكن طردنا نهائيا لفت انظارهم إلينا. ابقينا صلتنا بطلاب الحركة في الثانوية ودار المعلمين، ونحن في كلية الحقوق .

س – من كان في دار المعلمين بارزا؟

ج – في دار المعلمين اذكر مزاحم ماهر وسعيد عباس السامرائي.

س – وعزيز شريف هل كان موجودا؟

ج – عزيز شريف كان بالرابع الثانوي، وتخرج من دار المعلمين الابتدائية في عام 1924 وعين معلما في مدرسة عنه عام 1925 – 1926 وبقي سنتين في بلدة عنه وفي عام 1927 قبلت وزارة المعارف خريجي دار المعلمين الابتدائية طلابا في الصف المنتهي من الثانوية، وكان لهم حق الاشتراك في الامتحان الوزاري

ويمنحون شهادة الثانوية اذا نجحوا وهو سلك هذا الطريق فقد استقال بعد سنتين من التدريس في (عنه) ودخل في عام 1927 الصف المنتهي في الثانوية، وانا كنت في اول حقوق واشترك معنا في مظاهرة الفريد موند، وليس في مظاهرة أنيس النصولي لأنه في حركة أنيس النصولي، كان معلما في عنه، ولكن لما قمنا بمظاهرة ضد الصهيونية عام 1928 هو كان في الصف المنتهي في الثانوية، واشترك فيها كطالب ثانوية رغم انه اكبر منا ويكبرني بسبع سنوات. ولكن بسبب اشتغاله بالتدريس تأخر عن الدراسة.

الآن نرجع الى نادي التضامن ودوره في الحركة السياسية، في سنة 1927، وقت تخرجي في المدرسة الثانوية، انتميت الى نادي التضامن الذي كنا نعرف رئيسه والعنصر الفعال والنشيط فيه وهو الاستاذ يوسف زينل، الذي كان مدرس الكيمياء في الثانوية، ويتميز عن المدرسين الآخرين، باتجاهه الوطني وكان يوسف زينل يحدثنا، وخصوصا الطلاب الذين عندهم نشاط مواضيع اخرى، غير مادة الكيمياء. فكنا نشعر بقرب منه، فلما اسسس نادي التضامن، انتمينا إليه، وكنا نجتمع في نادي التضامن ونقرأ الجرائد، ونلتقي مع الطلاب وغير الطلاب، ونتحدث مع يوسف زينل في شؤون عامة وكان في ذلك الوقت يدرس في مدرسة للطائفة اليهودية اسمها مدرسة (التعاون) والاستاذ يوسف زينل، هو الذي اخبرنا عن موعد وصول (الفريد موند) وكان قد عرف ذلك من المدرسة التي يدرس فيها مساءً، مدرسة (التعاون)، الأمر الذي مكننا من الإعداد المسبق لمظاهرة الاحتجاج ضد زيارة هذا الزعيم الصهيوني. ونتيجة قيامنا بهذه الظاهرة طردنا انا وعبد القادر اسماعيل من كلية الحقوق (كان اسمها مدرسة الحقوق)، انا ذهبت الى الشام، لأكمل دراستي بعد أن أخذت وثيقة من مدرسة الحقوق، بسبب طردي وهو اشتراكي في مظاهرة ضد الصهيونية وضد الفريد موند وذهبت الى الشام وكان المسيطر على معهد الحقوق آنذاك في الشام الكتلة الوطنية، فارس الخوري وفائز الخوري وفوزي الغزي وعبد القادر الميداني واساتذة آخرون يتعاطفون طبعا مع كل حركة وطنية ويرفضون الاستعمار والانتداب الفرنسي. فهؤلاء تعاطفوا مع قضيتي وقبلوني رغم أنني ذهبت في نهاية الشهر الثالث الى الشام ووصلت بتاريخ 29/3/ 1928 وكان باقيا من السنة الدراسية شهران فقط. قبلوني واعتبروا أن دوامي في بغداد كدوام في معهد الشام وقبلوني في الصف الأول، ونجحت في حزيران ووصلت الى الصف الثاني. وبتأثير الحركة الوطنية في العراق من النواب والصحافة والرأي العام والضغط على الوزارة الغي قرار طردنا أو عدل بأن تعتبر سنة دراسية وهي السنة الماضية وسمحوا لنا في السنة الثانية أن نعود الى صفنا الأول، أنا كنت ناجحا الى الصف الثاني، لذا قررت البقاء في الشام، لاكمال دراستي وفعلا تخرجت في عام 1930 في معهد الحقوق في الشام، وعبد القادر اسماعيل رجع إلى مدرسة الحقوق في بغداد، ولما تخرجتُ سنة 1930 عدتُ من الشام الى بغداد.

س - حسب معلوماتي الشخصية ولو انها قد تكون ناقصة كان لك اتصال بالحركة الوطنية في الشام اثناء وجودك فيها؟

ج - انا سوف اذكرها واتحدث عن الشام وعلاقاتي حسب تسلسل الأحداث تاريخيا. وانا في الشام كطالب في معهد الحقوق زارني شخص لا اعرف ان كان قد اخبر من بغداد بمجيئي الى الشام واسمه (فؤاد شمالي) كان شغله عامل تبغ من شمال لبنان وهو من الحزب الشيوعي اللبناني آنذاك. قدم لي نفسه وأخبرني أنه علم بوجودي وانه يعرف اني من الطلاب الذين اشتغلوا في الحركة الوطنية بالعراق وتعارفنا اولا وسررت به وكنا نتحدث بشؤون عامة سورية وعراقية وغيرها، وتكرر لقاؤنا وجاءني الى الشام في عام 1929 وتحدثنا أحاديث عامة في الشؤون الوطنية وعن الأحداث السياسية ثم سألني عما اذا كنت أوافق أن أسافر في بعثة الى موسكو للدراسة دون أن أتكلف بالمصاريف فاخبرته عن دراستي، دون ان اتكلف بالمصاريف، وذكرت له دراستي الماضية، وكوني الآن اصبحت في الصف الثاني لكلية الحقوق، ويهمني ان اكمل دراستي الحقوق، ولا اريد ان اغيرها الى دراسة اخرى، لا اعرف ان كنت انجح فيها او لا انجح واي شيء يكون اختصاصي فيها. والحقيقة أني كطالب وشاب صغير مرتبط بوالدي وعائلتي وكانوا يزودوني بالمال للدراسة. شعرت انه يوجد علي التزام بأن اكمل دراستي في معهد الحقوق فقلت له اني ارجع لإكمال دراستي في كلية الحقوق، واضمن مستقبلي ونحن مهما تحررنا نربط بين كياننا وبين الشهادة. يعني اننا نشعر بان الشهادة هي ضمانة لمستقبلنا ولعملنا، لذا كنت حريصا بأن أأخذ شهادة الحقوق. قلت له بعد أن أخذ شهادة الحقوق لا يوجد لدي مانع من الدراسة في موسكو او غير موسكو، اما قبل شهادة الحقوق لا استطيع ان اترك دراسة الحقوق. وقلت له اذا تريد ان ارشح شابا عراقيا واحدا أو اكثر وارجح انه يقبل، وهو أهل للدراسة فرشحت له (عاصم فليح).

س – لماذا عاصم فليح بالذات؟

ج – عاصم فليح اعرفه من بغداد، كنت أتردد على محل عمله وكان عنده محل للخياطة، وهو يمارس الخياطة بنفسه، ولديه صانع او صانعان، وهو شاب بعمرنا او يكبرني بسنة واحدة أو اثنتين، وكان متحرر الفكر واتجاهاته قريبة من تفكيرنا وبمفاهيم ذلك الوقت نسميه (تقدميا)، وكانت اتجاهاته طيبة وهو متفرغ وليس طالبا، وقد فكرت اني اذا رشحتُ طالبا فقد يكون لديه نفس المانع الذي منعني من قيود الترشيح وهو الرغبة في اكمال الدراسة، وكان عاصم فليح اقرب الى العمال، يعني انه كان يعمل بيديه وليس صاحب عمل، فيمكن أن يكون ترشيحه مقبولا.

وفعلا اتصل فؤاد شمالي بعاصم فليح، ووافق هذا على الفكرة وسافر الى موسكو ودرس في موسكو، وبعد سنتين عاد من موسكو الى العراق.

س – هل شاهدت احدا من الشيوعيين اللبنانيين او السوريين غير فؤاد شمالي؟

ج – واذكر في فؤاد شمالي، ويعني ما

استطيع ان اذكر اسما آخر، وحتى خالد بكداش لم اكن اعرفه في ذلك الوقت، ولم اكن اسمع عنه شيئا في الشام، وبمناسبة سؤالك ايضا اريد ان اوضح حقيقة ان تكويني العقلي لم يكن متبلورا في ذلك الوقت .. عندي جذور وطنية وقومية بتأثري بثورة الحجاز وبثورة العراق عام 1920 والمطالبة بالاستقلال. وقراءاتنا كنا نقرا في الأغلب ماهو قومي ووطني، وفي ذلك الوقت كانت الدعوة العربية والقومية قوية وتأثرت ايضا بالكتلة الوطنية في الشام واتجاهاتها القومية في الحقيقة كان تفكيري قوميا بالأصل، تأثر وانطبع بطابع تقدمي، فصار له مضمون اجتماعي وانما لم اتحول من القومية الى الماركسية - اللينينية او الشيوعية وانما أصبح للمفاهيم القومية عندي لون تقدمي ومضمون اجتماعي. اي انه لا يكفي ان نكون أمة عربية مستقلة، وانما يجب ان يكون لهذه الأمة العربية وفي كل قطر من اقطارها نظام اجتماعي عادل وعلاقات اقتصادية عادلة. في ذلك الوقت لا استطيع ان اقول اني فكرت بمحو الطبقات انما بعدالة اجتماعية وزوال الفوارق الكبيرة بين الطبقات.

س – في ذلك الوقت هل برز تفكير اجتماعي الى جانب التفكير الوطني والقومي؟

ج – نعم، كان في العشرينات اشخاص ذكرت بعضهم، ولا استطيع ذكر كل العاملين معهم، مثل حسين الرحال وسليم فتاح ومصطفى علي وعوني بكر صدقي ومحمود احمد وعبدالله جدوع وفاضل محمد. وانا طبعا لا اعرف كل العاملين وانما ذكرت الذين اعرفهم شخصيا.

هؤلاء كانوا يعطون الحركة الوطنية طابعاً اجتماعيا. وكانوا يطالبون بانصاف العمال وتحديد ساعات العمل وزيادة الأجور. في العشرينات كانت الحركة هذه غير سائدة يعني تجدها موجودة كنواة ولكن ليس غالبة، اما تفكيرى في ذلك الوقت فكان اقرب الى القومية التقدمية التي لها مضمون اجتماعي. واؤمن بان النظام الذي يجب أن يسود العالم استقلال كل امة في حدود اقليمها ووطنها، وانه يجب أن يسود المجتمع نظام عادل وتنال فيه الطبقات الفقيرة من الناس حقوقها بالعيش والسكن والأجور وتحديد ساعات العمل ... الخ. كان اتصالي في الشام مع الكتلة الوطنية اكثر مما كان مع العناصر اليسارية، يعني اني كنت اتصل بالكتلة الوطنية ولي اصدقاء كثيرون وأزورهم حتى ولو كانوا أكبر مني بكثير منهم فخري البارودي وفائز الخوري ورجال الكتلة الوطنية في الشام من الطلاب الذين كانوا معنا من الكتلة الوطنية، مثل سهيل الخوري ومصطفى العظم واسعد كوراني. والحقيقة اني تأثرت في حركة الكتلة الوطنية والتي كانت غالبة في الشام في السنين 1928 ، 1929، 1930 وهي سنوات وجودي في الشام، كانت الكتلة الوطنية المسيطرة على الوضع السياسي وعلى المجتمع وعلى الشارع وعلى الانتخابات. وكنت احضر الانتخابات في عام 1928 وكانت الكتلة الوطنية آنذاك مسيطرة. الصحافة معهد الحقوق كلها مع الكتلة الوطنية والحقيقة فقد تأثرت بالكتلة الوطنية أثناء وجودي في

الشام. اما فؤاد شمالي الذي ذكرت أتصالي به، فهو ايضا عزز الجانب التقدمي في تفكيري، يعني حافظ عليه اثناء مداولاتنا وأحاديثنا تأثرت به، وبآرائه، ولا استطيع ان انكر أثره علي. وكان تفكيري وتكويني قومي وليس ماركسيا بالمفهوم العلمي قبل عودتي إلى العراق.

وقد جئت الى العراق بعد ان تخرجت من معهد الحقوق عام 1930 وواجهنا معاهدة نوري السعيد في عام1930 وتجمعنا اول نواة انا وعبد القادر اسماعيل ضد المعاهدة وكان مستمرا في عمله في الحركة الوطنية في بغداد. كان متصلا بحركة بغداد أكثر مني، لأني كنت بعيدا في الشام، وفي ذلك الوقت التقينا بشبان آخرين بعضهم ممن كان معنا في الحركات الطلابية، وتجمعنا لمعارضة المعاهدة فأذكر لك من جملة الاشخاص الذين كانوا يعارضون معنا المعاهدة، عبد القادر اسماعيل وعزيز شريف وفائق السامرائي ويونس السبعاوي وخليل كنه، وجميل عبد الوهاب ويمكن ان تستغرب اسم جميل عبد الوهاب، لأنه اصبح بعد ذلك من جماعة نوري السعيد، ومن اعوانه ولكن في ذلك الوقت كان معنا في النشاط.

وبالمناسبة اذا اردنا الحديث عن المجتمع واعطاء صورة تنقلنا الى الجو الذي كنا فيه اذكر لك أن جميل عبدالوهاب في سنة 1931 - 1932 كون مكتب محاماة مع كامل الجادرجي، واتخذا المكتب في سوق دانيال والذي كان سابقا خان جغان، ثم بنى بناية جديدة وانا كنت محاميا، وكان مكتبي بجوارهم ومستقل لوحدي، وكامل الجادرجي كان في حزب الاخاء الذي كان يعارض المعاهدة، وجريدة الحزب كانت جريدة الاخاء الوطني، وكان كامل الجادرجي المدير المسؤول عنها.

بدانا ننظم معارضة ضد المعاهدة ودعونا الى عقد اجتماع في مقهى البلدية المسماة - الأوبرا- في الميدان ركن سوق هرج، وكتبنا منشورا وطبعناه في مطبعة الاداب شارع المتنبي قرب المحاكم (صاحبها عبدالمجيد حسن) دعونا فيه الناس الى الاجتماع في الساعة الفلانية، وفي اليوم الفلاني لمناقشة المعاهدة. والمنشور هذا كان فيه مضامين اكثر من الدعوة الى الاجتماع، كان بيانا سياسيا ومن جملة ما كان فيه مفاهيم اجتماعية ايضا كنا نخاطب الشعب قائلين (أنتم تجوعون وتعرون والانكليز سبب جوعكم وعراكم، فهم ينهبون خيرات البلاد... الى اخره ..).

س – هل لديك صورة من هذا البيان؟

ج – عندي مقتبسات منه، ويجوز أن أجده في اوراقي لأنني تنقلت بحكم عملي في القضاء في مدن متعددة، وأخذت الى دورة الاحتياط وغبت عن البيت، ويمكن ان اجده في اوراقي، ولكن اذكر مقتبسات منه (انتم تجوعون وتعرون والانكليز سبب جوعكم وعراكم انهم، ينهبون خيرات البلاد). وهاجمنا اعوان الانكليز. استغلت الحكومة هذه الجمل على اساس اننا نفرق بين طوائف الشعب العراقي، ونحرض على كراهية الحكومة. وفي البداية منعت الاجتماع والقي القبض علينا لأننا وزعنا المنشور. واتذكر نقطة اخرى ايضا وهي اننا قدمنا طلباً الى متصرف بغداد للموافقة على عقد اجتماع وفق قانون الاجتماعات.

فرفض طلب الاجتماع والقي القبض علينا. وفي دعوة طلب الاجتماع أنا لم أوقع، انما اخواني هم الذين طلبوا مني عدم التوقيع، لانني كنت قد قدمت طلبا لاصدار جريدة، وقالوا لي توقيعك يعرقل اجازة الجريدة، ويجب ألا تلفت النظر الى اسمك ولا توقع. القي القبض علينا وبقينا في التوقيف. فائق السامرائي وعبد القادر اسماعيل ويونس السبعاوي وخليل كنه وجميل عبدالوهاب وانا. اما عزيز شريف فانه لما ذهبوا اليه ليلقوا القبض عليه اختفى. وبعد ذلك عرفت بأنه هرب الى مزرعة لابن خالته مالك فتيان الراوي. وثم احلنا الى محكمة الجزاء وحاكمونا واعتبر الحكام، المسؤولين عن المنشور هم الذين قدموا البيان الى المتصرف بعقد الاجتماع، فأنا برأت وحكم على الآخرين بالسجن وأول مرة حكموا لمدة - -6 اشهر حكمهم حاكم الجزاء ولدى استئناف الحكم لدى المحكمة الكبرى خفضت المدة الى 4-- اشهر، وكان حاكم الجزاء شهاب الدين الكيلاني.

س – هل البيان كان موقعا باسم شخص او باسم تجمع؟

ج – لم يكن فيه اسماء، وانما موقع باسم لجنة الاجتماع، فاعتبر أن الذين قدموا البيان الى المتصرف هم المسؤولون عن محتوياته، ونسب اليَّ الاشتراك في توزيعه وشهد بعض الشهود من مراقبي الشرطة بأنهم شاهدوني اوزع المنشور في مقاهي الباب الشرقي. وعلى كل حال برأت واعتبر حاكم الجزاء، المسؤولين عن محتويات البيان هم لجنة الاجتماع الذين قدموا طلبا للاجتماع الى متصرف بغداد؛ فهذه كلها مقدمات حتى اصل الى المرحلة التالية.

بعد أن خرج الإخوان من السجن بدأنا مشروعا جديدا، فأنا لم اعط اجازة اصدار جريدة، فقررنا التعويض عنها باصدار كراسات صغيرة باسعار رخيصة ننشرها للجمهور، لغرض نشر الوعي السياسي. اول كراس صدر كان لي عنوانه (انكليز في جزيرة العرب)، تضمن استعراضا لاستعمار الانكليز لاجزاء من البلاد العربية: عدن والكويت والبحرين والعراق. وأعلنا عن الكراس الثاني وهو (عدم التعاون). بالمناسبة كان تفكيرنا في ذلك الوقت بأننا كشعب اعزل ليس عندنا امكانية كفاح مسلح فالطريقة المجدية للعمل السياسي ضد الانكليز واعوانهم هو المقاطعة والسلبية وعدم التعاون وعدم دفع الضرائب ومتأثرين بالهند ودعوة غاندي.

فأردنا أن ننشر مفهوم عدم التعاون، أعلنا عن كراس اخر عنوانه عدم التعاون بقلم فائق السامرائي، وبسبب حبس الأخوان لم يصدر الكراسي الثاني، لانه سجن وبعد أن خرج الإخوان من السجن، شعرنا بوجود بعض التباعد في تفكيرنا لاسيما في نواحي النظام الاجتماعي، في موضوع الاستقلال وموضوع مكافحة الانكليز، كنا متفقين، لكن التباعد في تفكيرنا انصب حول النظام الذي نريد. وكنا أنا وعبد القادر اسماعيل في جانب واحد. وتلاحظ اني اذكر عبد القادر اسماعيل بالذات لكي اصل الى اشتراكنا بتأسيس جريدة (الاهالي).

اتجه بعض اصحابنا اتجاها آخر. وأصبحوا نواة تسمى في العراق بالحركة القومية. قسم أيدنا وقسم ايد العاملين في

الحركة القومية، وقسم من أصحابنا اعتزلوا لما شاهدوا الخلاف، ولا يريدون أن يشاركوا في الانقسام. والحقيقة في ذلك الوقت بدأ التباعد بين شباب اشتغلوا يوما ما في حركة واحدة، وعندما استعيد الآن تاريخ تلك الحقبة، ألاحظ اننا ليس فقط ابتعدنا في العمل المشترك، انما تخاصمنا.

بعدئذ بعد سنة 1931 - 1932 يعني انا وعبد القادر اسماعيل اللذين كنا في اتجاه اليسار، وهم بدأوا يتهموننا بالشيوعية والشعوبية. نعتونا بالشعوبيين لاننا لم نقل بالدولة العربية الواحدة، ونحن في ذلك الوقت، لم نكن نؤمن في دولة عربية واحدة وقلنا أن النظام الصحيح هو النظام الفيدرالي. ومنذ ذلك الوقت كنا ندعو الى النظام الفيدرالي وهم يدعون الى الدولة الواحدة. نحن قلنا لهم سعة الرقعة الجغرافية العظيمة الواسعة والتباعد بين اجزاء الوطن العربي والاختلاف في الأنظمة الإقتصادية، يجعل الدعوة الى الدولة الواحدة غير واقعية، فأخذنا بالتباعد. تفكيرنا حينذاك كان يسوده أن نجد نقاط الخلاف مع بعضنا، ولم نكن نفكر بنقاط الالتقاء. وهذا خطأ استمر الى عام 1948 في الوثبة الوطنية، حيث توحدت الصفوف بالعمل ضد معاهدة بورتسموث. إن العمل على إسقاط معاهدة بورتسموث وحّد الحركة الوطنية. يعني اشعر القوميين والوطنيين الديمقراطيين والشيوعيين بحاجتهم لان يقيموا معسكرا واحدا، فأن هناك نقاط التقاء كثيرة مع بعضهم وانهم يستطيعون أن يعملوا لخدمة وطنهم في مجالات كثيرة، ويجب أن يتحركوا من نقاط الالتقاء بينهم. هذه النقطة ذكرتها من باب العرض التاريخي للاحداث حيث ستأتي ايام تقيم فيها هذه الجهات في ما بينها جبهة كما سنتحدث.

س – ذكرتم قبل قليل انكم فكرتم باصدار جريدة الأهالي... ماذا تم بشأنها؟

ج – اتحدث اليكم الان عن تأسيس جريدة الأهالي.

بعد أن افترق الأصحاب بعد سنة 1930 على الوجه الذي اشرت إليه، بدأنا نفكر أنا وعبدالقادر اسماعيل بصورة أساسية في اصدار جريدة حيث توقف صدور الكراسات واتفقنا مبدأيا على ان الجريدة يومية سياسية، لأن الأسبوعية اثرها ضئيل والناس ينسونها. واليومية تستطيع ان تنشر دعوتها عن طريق الأخبار والبرقيات، وما شابه، وعن طريق انتشارها نستطيع أن نبلغ رسالتنا وآراءنا الى الجمهور. وبعد اتفاقنا على اصدار جريدة يومية سياسية فكرنا في من يتعاون معنا في اصدارها؟ عبد القادر اسماعيل اقترح اسم عبد الفتاح ابراهيم الذي كان قد عاد حديثا من الدراسة في جامعة بيروت اولا ثم من جامعة كولومبيا في امريكا.

وأفاد عبد القادر اسماعيل أن آراء عبد الفتاح ابراهيم مثل آرائنا. ويحمل نفس العقيدة ويستهدف نفس الهدف. فأنا أخبرته بأنني احب اللقاء معه واتحدث معه بالموضوع.

(وبالمناسبة اذكر لك انه توجد علاقة قرابة عن طريق المصاهرة بين عبد القادر اسماعيل وعبد الفتاح ابراهيم) التقيت بالاستاذ عبد الفتاح ابراهيم عدة لقاءات ووجدنا انفسنا اننا نحمل آراء متقاربة،

وأخبرت عبد القادر اسماعيل بأن العمل مع عبد الفتاح ابراهيم سليم، وبعد ان فاتحنا عبد الفتاح ابراهيم بموضوع اصدار الجريدة وقبلَ المبدأ، وعبد الفتاح ابراهيم اقترح اسم الأستاذ محمد حديد، الذي كان قد عاد حديثا من جامعة لندن بعد أن تخرج فيها.

وأيضا التقينا به وتحدثنا معه ووجدنا آراءنا متقاربة وأهدافنا واحدة. فاتحناه في موضوع الجريدة، وقبِلَ الفكرة فبدأنا نضع منهجا للجريدة، ماهي المبادئ التي نعمل من اجلها، وماهي الرسالة التي نستهدفها، وما هو الهدف الذي نريد أن نصل إليه؟ فبدأنا نضع رؤوس اقلام في المبادىء للنظام السياسي في نظام الحكم في الأوضاع الاقتصادية، في علاقات الإنتاج، في العلاقات العربية، وفي جميع الميادين: الزراعة، المرأة، العائلة، وكل الأمور استعرضناها. وبعد احاديث ومحاورات ثبّتنا النقاط التي اتفقنا عليها، فكانت هي المبادىء التي نشرت بعدئذ في سنة 1932 ونشرت بعنوان (الشعبية المبدأ التي تسعى الأهالي الى تحقيقه).

وبعد اتفاقنا على هذا بدأنا الإجراءات العملية لاصدار الجريدة (يعني راس المال) الذي كان يجب أن نوفره من اجل اصدار الجريدة. واتفقنا على انه يجب ان نشتري مطبعة ويكون لنا دار نشر مستقلة حتى لا تخضع لمؤثرات الآخرين بمنع الجريدة عن الصدور بعدم طبعها. نحن قدرنا باننا سنلقى مقاومة لأن الجريدة فكرتها جديدة ودعوتها جديدة بالنسبة الى ذلك الوقت. ذكر كل واحد منا المبلغ الذي يستطيع المساهمة به، ووجدنا أن ما نستطيع دفعه غير كاف لشراء مطبعة واستئجار دار وشراء ورق وما يتطلبه اصدار جريدة يومية من مصاريف. فاقترح بعض الاخوان اسماء اشخاص يستطيعون مساعدتنا من الناحية المالية على ان لا يتدخلوا في سياسة الجريدة ويعتبرون أنفسهم كمشاركين في مؤسسة تجارية ـ مطبعة وجريدة ـ بدون مساهمة في التحرير او رسم سياسة الجريدة، فأقترح اسم ابراهيم بيثون الذي كان متخرجا من بيروت ويعرفه كل من الاستاذ عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد من بيروت. وقالوا بأنه رجل طيب ولا يثير اية متاعب واقترحنا احد اصحابنا الذين كنا نتعاون معهم سابقا وهو خليل كنه وقبل الاثنان وساهما بمبلغ للجريدة واشترينا مطبعة كانت مستوردة من قبل المرحوم عبد اللطيف الفلاحي لجريدته الفلاح، ثم انتقل الى رحمة الله، بعد وصول المطبعة وقبل استلامها وكانت في الكمارك، ولما توفي كان وريثه اخوه (عبد الرحمن الفلاحي) وهو حاكم في المحاكم المدنية في ذلك الوقت، وراجعاه فأبدى استعداده لبيعها واتفقنا معه واشتريناها منه واستلمناها من الكمرك وكانت في الصناديق، نصبناها. اخذنا امتياز (جريدة الأهالي) وكان في ذلك الوقت قانون المطبوعات يوجب صدور الجريدة خلال مدة ستة أشهر من منح الامتياز. هذا النص وضعوه حتى يتجنبوا، اخذ امتيازات متعددة من قبل المعارضين وحفظها، وعندما تتعطل جريدة لهم يصدرون جريدة اخرى حاصلين على امتيازها. وعندما انجزنا اجراءاتنا بنصب المطبعة كانت مدة الستة اشهر تكاد تنتهي وقبل انتهاء المدة

بيوم واحد وفي 1 /1 /1932 اتممنا طبع العدد الأول وصدرت (الأهالي) في اليوم الأخير وهو 2 /1 /1932 وحافظنا على الامتياز واستمرينا باصدارها وان كانت بدأت بعدئذ تتعرض للتعطيل بين مدة ومدة في فترات متقاربة حتى كانت مدة تعطيلها اكثر من ايام صدورها.

س – هل كانت الجريدة ذات مضمون اجتماعي واضح؟

ج – بدون شك انها كانت ذات مضمون اجتماعي واضح نجده في المبادىء التي عنوانها (الشعبية) ثم مقالات الجريدة الافتتاحية كان عنوان المقال الافتتاحي الأول (منفعة الشعب فوق كل منفعة)، وحتى اسم الجريدة اخترناه معبرا عن مبادئنا. وقد اقترحت الاسم وقد كانت تصدر ذلك الوقت جريدة اسمها (البلاد)، والبلاد معناها الأرض بينما (الأهالي) معناها الشعب، سواد الشعب. واردنا أن نعبر بأننا نستهدف خدمة السواد والناس.

س – هل برزت انذاك مفاهيم ضد الاقطاع ومع الفلاحين والعمال؟

ج – فعلا كنا مع العمال، وكنا نطالب بحقوقهم بدعوة مباشرة وضد الاقطاع يجوز بصورة أوضح وابرز، لأن بلدنا بلد زراعي والطبقات التي تعاني من الاقطاع كثيرة واكثر من العمال، فلذلك نحن عارضنا قانون وحقوق واجبات الزراع بعنف، وكتبنا سلسلة مقالات ضد هذا القانون، عندما شرع في سنة 1933 وحتى طريقة عرضنا مناقشات مجلس النواب لقانون حقوق واجبات الزراع، كان عرضنا مثيرا، والجريدة موجودة الآن وبمراجعتها يتبين اننا كنا بجانب الفلاح ضد استغلال المالك، ولاسيما من يمتلك ارضا واسعة.

س – في ذاك الوقت كان هناك تياران؛ تيار اشتراكي واضح يمثله الاتحاد السوفياتي، وتيار آخر فاشي تمثله ايطاليا ثم ألمانيا. هل اتخذت الجريدة موقفا ازاء هذه التيارات؟

ج – فعلا، كنا نؤيد اتجاهات الاتحاد السوفياتي وسياسته، وكنا نعمل للتعريف بانجازاته ونشرنا منذ الأيام الأولى للجريدة كتابا بصورة متسلسلة بعنوان (التربية في الاتحاد السوفياتي) والاستاذ عبد الفتاح ابراهيم هو الذي ترجم هذا الكتاب. ودعونا الى تحديد ساعات العمل. في ذلك الوقت كانت هذه الدعوة مبكرة، وكان تحديد ساعات العمل بمدة 8 ساعات يوميا، دعوة تقدمية، وكنا بجانب تأسيس النقابات، ونحن أول من دعا الى حق العمال بتكوين نقاباتهم، واستمرت دعوتنا لسنين طويلة، ونحن كنا من دعاة الفكرة. وثم الحياة اليومية للناس كنا نواكبها. حدثت في سنة 1934 حركة مقاطعة شركة الكهرباء وكانت شركة بلجيكية، وقفت جريدة الأهالي بجانب المقاطعة بصورة قوية، ووقفت بجانب جمعية عمال الميكانيك. وكانت هذه الجمعية بمثابة نقابة يعني تقوم بدور النقابة فنحن كنا بجانبها. وكان رئيسها محمد صالح القزاز من اعواننا في الجريدة وبعد ذلك تعاون معنا فعلا في حزب واحد، بعد ان طورنا جماعة الأهلي الى (جمعية الإصلاح الشعبي)، وكان يمثل العمال

وحقوق العمال وقام بدور أساسي وفعال في مقاطعة شركة الكهرباء وفي الوصول الى تخفيض أجور الكهرباء، فكنا نتعاون مع العمال فعلا .

س – هل كانت لديكم علاقة في ذلك الوقت مع الاتجاه الماركسي؟

ج - يوسف اسماعيل كان محررا في جريدة الأهالي كان يتلقى البرقيات ويترجمها وينشرها، وكان يضع عناوين البرقيات وكثيرا ما كان يعبر عن افكاره التقدمية حتى عن طريق هذه العناوين. وكان يوسف اسماعيل يكتب في الجريدة في الشؤون الخارجية بالاضافة الى عمله في الأخبار الخارجية والبرقيات، فكانت اتجاهات يوسف اسماعيل واضحة عن طريق كل ما يكتبه.

س – هل كان يوسف اسماعيل فقط يتعامل معكم؟

ج – في المرحلة الأولى، كان معنا يوسف اسماعيل، ثم كانت هناك بعد ذلك عناصر تقدمية، تتعاون معنا مثل جميل توما، علي حيدر سليمان، وكان علي حيدر سليمان حينذاك من العناصر التقدمية المعروفة، وحتى انه اتهم بالشيوعية وفصل من التدريس لانه كان حر الفكر، لكنه لم يكن شيوعيا.

س - وجميل توما؟

ج – جميل توما بالحقيقة كان يتصل بالجريدة. لا أستطيع أن أقول بأنه كتب فيها، وانما كان من أصدقاء الجريدة هو ونوري روفائيل، لكن الذي اعرفه ان علي حيدر سليمان كان يكتب بعنوان مذكرات شمالي، وكانت كتاباته تقدمية.

س – هل كانت لكم علاقة مع الحركة القومية الكردية في ذلك الوقت حتى العشرينات؟ وهل كانت هناك سمات حركة كردية منظمة؟

ج – بعدئذ صارت لدينا صداقات مع بعض العاملين في الحركة القومية الكردية وليس في اول الثلاثينات. انا في الثلاثينات لا اذكر بأنه كانت لدينا علاقات لكن في سنة 1936 - 1935 صارت لنا علاقة مع حمزة عبدالله وابراهيم احمد ورشيد عارف وشباب من الأكراد.

س – ما هو موقفكم من حركة محمود الحفيد؟

ج - انها مرحلة قديمة في سنة 1924.

س – ذيولها على الاقل، مع من كان بارزا في الجانب الكردي؟

ج - الأثر الكردي لم يكن بارزا في جريدة الأهالي، والحقيقة يجوز في عام 1935 - 1936 برز اكثر. والحقيقة ان بدايات الحركة كانت قبل صدور الأهالي.

س – هل يمكن القول بأن الأهالي تأثرت بالفكر الماركسي؟

ج – بدون شك. فانها تاثرت بالفكر الماركسي، واخذت منه وادخلته في مفهوم الوطنية. يعني أن أهمية الأهالي برأيي عندما أسأل: ما هي ابرز ميزة للأهالي؟ اقول ان ابرز ميزة للأهالي انها ادخلت المضمون الاجتماعي في الحركة

الوطنية. قبل الأهالي كان مضمون الحركة الوطنية هو المطالبة بالاستقلال، التحرر من الحكم الأجنبي بصرف النظر عن النظام القائم. يعني يذهب الانكليز وياتي حكام يستغلون المجتمع. نحن قلنا لا يكفي أن نتحرر من نفوذ اجنبي، ويخضع الشعب باكثريته الى استغلال اناس ولو كانوا وطنيين من البلد. الاستقلال له مفهوم هو التحرر من كل استغلال سواء كان أجنبيا او وطنيا داخليا، والحركة الوطنية لا تتكامل الا بالتحرر من الإجنبي ومن الاستغلال الداخلي. اي استغلال الانسان. الانسان يعني انه كان واضحا جدا عندنا المضمون الاجتماعي، وبسبب هذا بدات توجه الينا الاتهامات بالشيوعية. ولكننا استمرينا نبلغ رسالتنا. كان في ذهننا آرء وأفكار في المضمون الاجتماعي اكثر مما كتبنا. ولكننا فضلنا أن ندعو الى آرائنا بهدوء، دون تسرع، لم تكن الأذهان متهيئة له، حتى لا نصدم الناس بعنف في المعتقدات المستقرة في اذهانهم. كانت خطة عملية بالنظر لذلك الوقت لانه يجب أن نضع انفسنا في الثلاثينات عندما كان يتهم بالشيوعية كل من يقول بأن العمال لهم حقوق، يجب ان يحصلوا عليها. وكل من يقول ان الفلاح يجب أن ينصف ويجب ان يأخذ حصة من الحاصل اكثر، او يتملك ارضا، كان يقال عنه انه شيوعي ويحارب. نضع أنفسنا في ذلك الوقت يعني لو نأتي بكتابات الأهالي الآن فيمكن أن ينظر اليها على أنها لا تواكب الأفكار السائدة في الوقت الحاضر، لكنها في وقتها تعتبر ثورة على الأوضاع القائمة. كانت الجريدة تثير الناس الذين بيدهم السلطة، وكانوا يشعرون بأننا اعداؤهم من الملك الى الوزراء والنواب والاقطاعين، الى بعض اصحاب الأعمال الكبيرة.

س – هل كان هناك انسجام ما بين جماعة الأهالي؟

ج – انسجام تام. اخبرك الآن وللتاريخ فعبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد وعبد القادر اسماعيل وحسين جميل لم تكن بينهم اية خلافات مبدأية او اساسية. ومع ذلك استطيع ان اعطيك صورة أوضح فاننا اذا اعتبرنا محمد حديد وانا (حسين جميل) في الوسط فيمكن القول أن عبد الفتاح ابراهيم كان يسارنا وعبد القادر اسماعيل على يساره. ومع ذلك فقد كنا جميعا متفقين على المبادىء التي حددناها ونشرناها في الكراس المعنون (الشعبية المبدأ الذي تسعى الأهالي لتحقيقه)، ومتفقين على أسلوب العمل الديمقراطي. وقد حدث بيني وبين عبد القادر اسماعيل خلاف على أسلوب العمل في خطة الجريدة، اي مدى ما ننشره فيها من آرائنا. انا كنت اقول ان دعوتنا جديدة، ويجب أن لا نغالي في نشرها، بحيث تعطل الجريدة وتوقف الدعوة كليا، يمكننا أن ننشر الآن عشرة بالمائة من آرائنا، ثم نتدرج بنشر المزيد مع الوقت. كنت أدعو الى الاعتدال في طريقة النشر وجعل الجريدة معتدلة.

وكان عبد القادر اسماعيل يريد أن تكون الجريدة جريدة دعوة بآرائنا في كل مواضيعها. وسوف أبين ما ترتب على هذا الاختلاف بيننا.

س – ماعلاقتك بالاستاذ قاسم حسن؟

ج – قاسم حسن بدأ اولا كصديق، يعني انا واياه من جيل واحد، وفي الثانوية معا وانه اشترك في الحركات الطلابية، وطرد مدة مؤقتة، وليس مؤبدا وانما طرد لمدة شهر، ونحن كنا اصدقاء. ثم انه عين موظفا في وزارة المعارف بدرجة كاتب. ثم تأخر في الدراسة بسبب توظفه، ثم لأسباب سياسية وبقينا اصحابا نلتقي. وبسبب نشاطه واتجاهاته واتصالاته بالمعارضين في الثلاثينات، نقل من بغداد الى بعقوبة. ثم الغيت وظيفته. ثم أوقف في سنة 1935 بتهمة الشيوعية، وأرسل الى سجن الناصرية واتهم معه في نفس القضية، وأوقف ايضا الاستاذ احمد جمال الدين، بقيا موقوفين لمدة (6) أشهر في الناصرية، ثم افرج عنهما وعن آخرين معهما. بعد هذا التوقيف وبعد الإفراج انضم إلى جماعة الأهالي في عام 1936. هذه علاقتي بقاسم حسن.

وفي كراس الشعبية الذي أصدره عبد الفتاح ابراهيم آنذاك، موضوع العائلة استفز الشيوعيين، وكتب قاسم حسن ردا بعنوان (اراء في الشعبية)، وكامل الجادرجي (وقد اصبح من جماعة الأهالي، وأصدر جريدة صوت الأهالي بدل الأهالي. الجريدة التي عطلها جميل المدفعي في سنة 1934) اقول كامل الجادرجي – عندما سمح بالكراس الذي طبعه قاسم اتصل به واقنعه بعدم توزيعه وفعلا لم يوزع ولم ينشر. واخذه منه الأستاذ كامل الجادرجي. انا لدي صورة مصورة بالدفلوب من هذا الكراس، والأصل لدى الأستاذ كامل الجادرجي. اما جميل توما فكان من اصدقاء الجريدة، ويتردد على الجريدة وعلى جماعة الأهالي عموما، وكان مهندسا في السكك، وانما حسب علمي بانه لا يكتب وليس من الكتّاب، وانما هو متحدث ويتصل بالجمهور ويلتقي بالتجمعات.

س - بعد تأسيس الحزب الشيوعي سنة 1934 هل تكونت لكم علاقة به، ولو بصورة غير مباشرة؟

ج ـ انا شخصيا لا. في ذلك الوقت الحقيقة بسبب الخلاف في كيفية اصدار الجريدة وقد اشرت الى ذلك، قبل هذا، تعينت في القضاء، حتى لا يتوسع الاختلاف بيني وعبد القادر اسماعيل. ووزير العدلية الذي عينني حاكما في المحاكم المدنية، وهو الاستاذ محمد زكي، وكان ذلك في صيف 1933 وكان يتعاطف معنا، سمعت بعدئذ انه ساعد جريدة الأهالي، مساعدة مالية في مرة من المرات. وكانت بمبلغ صغير مقداره خمسون دينارا، ولم يكن حينذاك في الحكم، فلما عين وزير عدلية في سنة 1933 طلب مني أن أوافق على ان عمل حاكما، وقد قبلت هذه الفكرة، وعينت حاكما لكي احول دون توسع الخلاف بيني وبين عبد القادر اسماعيل، لو كنا بقينا كلانا نعمل جنبا الى جنب.

س – ما هو الخلاف بينك وبين عبد القادر اسماعيل وعبد الفتاح ابراهيم؟

ج - الخلاف هو في الأسلوب. يعني ماذا ننشر في الجريدة؛ عبد القادر اسماعيل كان يريد أن تكون الجريدة جريدة دعوة كليا. المقال الافتتاحي والاخبار وكل شيء منها تبشر بآرائنا، وان نوجه الناس الى

حقوقهم. أنا قلت له ان الجريدة يجب ان تجد قراء على اوسع مدى، مثلا أن شخصا يأخذ الجريدة من أجل قصة ثم يقرأ منها خبرا يوعيه وينبهه، ويأخذ أحدهم الجريدة ليقرأ موضوعا عن السينما، او عن فيلم، ثم يقرا فيها ما يوجهه الى آرائنا، او يأخذها من اجل اخبار رياضية، ثم يصبح من قراء الجريدة. يجب ان تتغلغل بين الناس. لا يجوز أن تكون كتابا ذا مضمون واحد. عبد القادر اسماعيل كان يميل الى اقتباس اسلوب جريدة تصدر في مصر اسمها (الشورى)، كانت كلها تتحدث عن القضايا الوطنية والاتجاهات العربية، وعن الاستعمار الى آخره. وكان يريدها من هذا النوع، لكن مضمونها تقدمي ويساري. والشورى كانت جريدة قومية عربية. فقلت له انني اختلف معك في هذا. ووجدت في عملنا اليومي، اني اقترح اشياء للنشر وهو يعارض وهو يقترح اشياء لتنشر، وانا أعارض، ووجدت ان هذه الحالة يجب ان لا تدوم لذلك وحتى لا يتوسع الخلاف ويتهدم المشروع، وقلت له باني ليس لدي مانع بان تكون مسؤول الجريدة. وبسبب ان اسمي كان على الجريدة، فانا لا اوافق على خطتك، وانا ليس عندي مانع، ان اتنازل لك عن الجريدة، وانت تقوم بإصدارها وانا لا اعترض على أي شيء تقرره، فيما ينشر أولا ينشر، وفعلا تنازلت عن مسؤولية الجريدة، وحل محلي مسؤول اخر، اظن انه كان عزيز شريف، ثم تنازلت عن الامتياز لعبد القادر اسماعيل، وبعد ذلك تعينت حاكما في المحاكم المدنية في العراق، وكان ذلك في صيف سنة 1933.

* (الثقافة الجديدة)، العدد 104/ نيسان 1978

نصوص مترجمة

النقد الماركسي والكينزي للبرالية الجديدة*

الفريدو سعد - فلحو**
ترجمة: سوران قحطان

خسرت اللبرالية الجديدة الكثير من شرعيتها سياسيا، وتقريبا كل جاذبيتها الشعبية خلال العقد الاخير. فالدفاع عن السياسات المرتبطة صراحة بالإصلاحات اللبرالية الجديدة من قبيل الخصخصة، والتقييد المالي، ومعدلات فائدة عالية، وتحرير حساب راس المال[1] ، وسحق النقابات وغيرها في تراجع مستمر. وبعد ان تنقلت ظافرة لتهيمن على العالم طيلة فترة ثمانينيات وتسعينيات)القرن العشرين(، اصبحت اللبرالية الجديدة عبئا سياسيا. فخطابها عالي النبرة امسى متعبا ، واصبح لا يجلب مصوتين – بل بالعكس تماما؛ وعلى منصاتها ان تُقنع الان. ان الانكماش السياسي للبرالية الجديدة اصبح جليا خصوصا منذ ازمة)دول(شرق اسيا، وانفجار فقاعة الانترنت (dot.com bubble)[2]. كما ان فضائح الفساد التي سُلط عليها الضوء خلال فترة حكم بوش الابن ساعدت على فضح الطبيعة الرجعية للمشروع اللبرالي الجديد وارتباطاته العضوية مع إعادة بناء الامبريالية الامريكية. إن التراجع السياسي للبرالية الجديدة واضح بصورة تدعو للدهشة في كل مكتبة حسنة السمعة: فعناوين الكتب التي تدعو الى الدفاع عن الاصلاحات اللبرالية الجديدة هبطت اعدادها بصورة حادة، سواء من ناحية الكمية او من ناحية طلبات الاسواق، بينما عدد اكبر من الاعمال النقدية اصبح متوفرا ولأعداد متزايدة من القراء[3].

وعلى الرغم من هذه الهزائم السياسية، فإن اللبرالية الجديدة لم تواصل كونها السياسة الاقتصادية المهيمنة فحسب، ولكنها ايضا واصلت كونها النمط المهيمن لإعادة الانتاج الاجتماعية والاقتصادية في اغلب البلدان. يمكن الجدال بسهولة بان القبضة الاقتصادية للبرالية الجديدة تصبح اقوى حتى بعد ان تخبو شرعيتها السياسية. هذا الارتباك سيختبر لاحقا في ما سيأتي، ومن خلال زاوية محددة: مناشيء النقدين الكينزي والماركسي للبرالية الجديدة، واهميتهما، ومضامينهما السياسية. وهي اسئلة مهمة لقراء مجلة (Socialist Re-ister) لسببين. الاول، الواضح تماما، هو ان النظرية الماركسية تفقد الكثير

من أهميتها اذا ما انفصلت عن الفعل السياسي. وتوضيح الفرق بين التفسير الماركسي والتفسيرات المنافسة الاخرى للبرالية الجديدة يمكن ان يساعد في تقوية الاولى (الماركسية – المحرر) وتعزيز أهميتها السياسية وندائها الشامل. ثانيا، ان الجدال المطور في ما سيأتي يقترح ان اللبرالية الجديدة هي نظام تراكم مرن، لن ينهار تلقائيا، ولن تزيحه ببساطة العملية الانتخابية. فالفعل الجماهيري يبقى الرافعة الجوهرية للتحول الاجتماعي في عصر اللبرالية الجديدة. ولأن اللبرالية الجديدة بدّلت انماط اعادة انتاج الطبقة العاملة ونطاق استقلالية نشاطها، لذلك يجب ايجاد نماذج جديدة من المشاركة السياسية، وتطوير صيغ جديدة من التنظيم، من اجل تحدي هيمنتها (هيمنة البرالية الجديدة - المحرر).

الكينزية واللبرالية الجديدة

بحسب نظرية الاقتصاد الكلاسيكي الجديد وخطاب اللبرالية الجديدة، فإن الاقتصادات الرأسمالية،) اقتصادات(السوق، تنجذب تلقائيا باتجاه العمالة الكاملة، والاستعمال الاكثر فاعلية للموارد، ما لم تعِق عيوب السوق مسار التكيف. هذه العيوب يمكن ان تشتمل على سياسات حكومية مُضللة، او نشاط نقابي، او خصوصيات في البنية الصناعية او في التقنية، ومعها ايضا مجموعة كاملة من ''التشوهات''. ان هذه ''التشوهات'' هي، فعليا، من يفصل العالم الحقيقي عن الوهم المستحضر من قبل المدافعين عن رأسمالية مطلقة العنان.

احد اهم انجازات جون مينارد كينز الفكرية المهمة هو تصوره البديل للاقتصاد الكلي الرأسمالي. بالنسبة لكينز فإن المستوى الكلي للإنتاج والعمالة مقيد بالطلب الكلي (خاضع لحدود الاستيعاب). فإذا كان الطلب غير كاف، بسبب توقعات سلبية للربح من جانب المستثمرين مثلا ، او بسبب فشل الدولة في تبني سياسات مالية ونقدية استباقية بما فيه الكفاية، فإن الشركات ستخفض الانتاج والعمالة. وهذا قد يحفز ركودا لن يتمكن الاقتصاد ان يتعافى منه تلقائيا. والعكس صحيح، فاذا زاد الطلب الكلي بإفراط، فإن الانتاج سيرتطم بحدود الاستيعاب، ويؤدي الى تضخم وتوازن في عجز ميزان المدفوعات.

لقد طور كينز هذه الرؤية الاساسية في خضم الكساد العظيم (1929 - 1933- المحرر). وقد قادته لأن يؤمن أنه في اقتصاد رأسمالي متطور، من الممكن ان يستقر مستوى النشاط بأي مستوى من البطالة. واذا لم يكن هناك اي ميل تلقائي باتجاه عمالة كاملة، فإن الاقتصاد يمكن ان يجد نفسه، والى اجل غير مسمى، مثقلا ببطالة عالية، كلفتها الاقتصادية والاجتماعية كبيرة. ومن الممكن ان يؤدي هذا ايضا الى عدم استقرار سياسي. ان حجة كينز تشكل انقطاعا حادا مع الاثار المترتبة على منطق

وسياسة اقتصاديات الكلاسيكية الجديدة. فالأخيرة تؤشر الى ان التدخل الحكومي اساسي من اجل استقرار الاقتصاد على المستوى المنشود من البطالة، والتي يجب ان لا تكون عالية جدا (لتجنب الحرمان غير الضروري) ولا واطئة جدا (بسبب احتمالية التضخم). بينما كينز يؤمن ان الحكومة يمكن ان تؤمن عمالة كاملة وفي الوقت ذاته مستوى تضخم واطئ، اذا ما ضبطت بدقة الطلب الكلي باستخدام ادوات مالية ونقدية بالإضافة الى سياسة الدخل. مثلا، تنظيم مستوى وبنية فرض الضرائب والانفاق الحكومي، خفض معدلات الفائدة، تنظيم العلاقات الصناعية، وما الى ذلك).

مستلهمين كينز، طور اقتصاديون تقنيات واجهزة مؤسساتية لافتة تمكن الاقتصاديات الغربية من تجنب تكرار الكساد الكبير. ان الاستقرار الاقتصادي النسبي - وبالتالي الاستقرار الاجتماعي والسياسي- كان انتصارا ثابتا للكينزية. فاتباع كينز يزعمون ان سياساتهم المفضلة كانت مسؤولة الى حد كبير عن ''العصر الذهبي'' لفترة ما بعد الحرب، حيث اختبرت خلاله اغلب البلدان الرأسمالية معدلات نمو عالية، وعمالة شبه كاملة، وارتفاعا في مستويات الدخل، مع مستويات غير مسبوقة من الاندماج المجتمعي. لكن الكينزية بدأت بالتراجع منذ اوساط السبعينات تقريبا. حيث ألغت التحولات اللبرالية الجديدة في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ومناطق اخرى، جوانب مهمة مما اجمعت عليه الكينزية. من ابرز هذه التحولات الخصخصة واسعة النطاق لأصول الدولة الانتاجية مثلا، وتخفيض مستوى التسامح مع النشاطات النقابية، واعادة الادماج/ التبعية للطبقة العاملة من خلال سياسات البطالة العالية، ونمو اقتصادي منخفض، وتركيز الاصول والدخل، وايضا التراجع الجزئي عن دولة الرفاهية. ان ما اجمعت عليه الكينزية، قد اختفى منذ مدة طويلة. وعوضا من ذلك، فإن الرأسمالية المعاصرة قد تحولت باتجاه اشكال محددة من اعادة الانتاج الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية المرتبطة باللبرالية الجديدة.

لقد فسر علماء الاقتصاد الكينزيون تراجع الكينزية هذا بصورة نمطية بعمليتين رئيسيتين[4]. الاولى، ان نجاح التدابير الكينزية خلال فترة ما بعد الحرب كانت كاملة الى درجة بدت فيها ان مشاكل توزيع الدخل والبطالة الجماعية في الاقتصادات المتقدمة قد تم حلها مرة واحدة والى الابد. ومع اختفاء الاعراض الاكثر وضوحا للفقر واللامساواة، وما بدا من استقرار لا رجعة فيه للرأسمالية، اصبح الكثير من الناس مقتنعين انه لم تعد هناك حاجة للسياسات، والمؤسسات، والتدابير الكينزية. الثانية، ان الكينزية كانت منقسمة بعمق بين الكينزية الامريكية المحافظة نسبيا وما بعد الكينزية البريطانية اليسارية نسبيا. الاخيرة ترتكز تقليديا في جامعة كامبردج، وهي

المكان حيث درس فيه ذات مرة كلا من كينز، وسترافا[5]، وجوان روبنسون[6] وتلاميذهم. كلية كامبردج للاقتصاد هي اليوم كلاسيكية جديدة وبصورة شرسة. ان يتوه جمل في البيت الابيض أسهل من ان يوظف اقتصاديون من خارج التيار السائد في كامبردج. هذه الانقسامات بين الكينزيين ترتبط والى حد بعيد بنظرياتهم المختلفة حول توزيع الدخل. كان كينزيو الولايات المتحدة الامريكية على العموم ملتزمين بالنظرية الكلاسيكية الجديدة حول التوزيع والتي تقوم على اساس المنتج الهامشي للعمل (والذي كان مقبولاً من قبل كينز نفسه) والذي يفهم ضمنيا ان التوزيع الحالي للدخل في اقتصاد تنافسي عادل بالأساس - وعلى الحكومات ان تعنى فقط بتصليح التوزيع في الحواشي، وان مرونة الاجر الحقيقي يمكن لها ان ترفع من مستوى العمالة. هذه الاستنتاجات كانت مرفوضة من قبل ما بعد الكينزيين البريطانيين، فبالنسبة لهم يتوقف توزيع الدخل في المقام الاول على المتغيرات المؤسسية وعلى علاقات السلطة. كما ركز كينزيو الولايات المتحدة وبصورة اكثر ضيقا بكثير على الادارة الاقتصادية على المدى القصير. وفيها تكون البيئة المستقرة مهمة من اجل تعزيز الثقة بالأعمال. بينما مال كينزيو المملكة المتحدة الى التركيز على الاستقرار الديناميكي طويل المدى والى تحسين اللامساواة الراسخة. ساهمت الصراعات النظرية بين الكينزيين في مفاقمة شللهم. كما ساهمت، في النهاية، في استحالة بروز ايديولوجيا كينزية واضحة، تنافس بالضد من الخطاب اللبرالي الجديد، والذي اصبح شعبيا منذ اواخر الستينيات والسبعينيات.

إن الخلافات الداخلية بين الكينزيين اصبحت اشكالية خصوصا عندما دخل العالم الاقتصادي انكماشا طويلا في بداية السبعينيات، والذي لم يستطع الكينزيون لا تفسيره ولا معالجته. وفي النهاية، تلاشت مدرستهم الفكرية الى الفوضى. خمس سنوات فقط تفصل بين تصريح ريتشارد نيكسون (1971) "اننا جميعا كينزيون الآن" عن اقرار جيم كلاكان[7] المثير للشفقة في كونفرنس حزب العمال خلال ازمة الـ(IMF) سنة 1976 "لقد اعتدنا التفكير انه يمكننا الخروج من الركود الاقتصادي وان نزيد التوظيف عن طريق اقتطاع الضرائب وزيادة الانفاق الحكومي. اقول لكم وبكل سلامة نية ان هذا الاختيار لم يعد موجودا".

ان تراجع الكينزية فتح الطريق امام اصلاحات اللبرالية الجديدة، والتي طالما اكد الكينزيون على انها لا تؤدي إلا الى ارتفاع كبير في البطالة، والى تحول في توزيع الدخل والسلطة باتجاه رجال الاعمال، وايضا المزيد من التقلبات الاقتصادية. بينما السياسة الكينزية بدلا من ذلك كانت ستزيد من تدخل الدولة الاقتصادي من اجل إعادة التوازن في توزيع الدخل و السلطة الاجتماعية، وتوفير السلع والخدمات العامة بوفرة

أكبر، وتعزيز القدرة التنافسية النظامية، ونشر التقنيات الجديدة من اجل تأمين معدلات ادخار واستثمار عالية واستقرار الطلب الكلي.

البديل الماركسي

التحليل الكينزي للبرالية الجديدة الذي أوجز في المقطع السابق يتضمن افكارا مهمة مع العديد من المقترحات السياسية المناسبة. بالرغم من ذلك، فهي لا تذهب بعيدا ولا عميقا بما فيه الكفاية. ولهذه الاسباب، هي تقدم آمالا مضللة، ثلاثة منها ستمحّص هنا: مستوى التحليل، ومشكلة الوسيلة، ودور الدولة ونطاق السياسات الاقتصادية البديلة.

1- مستوى التحليل

ان التعليل الكينزي للانحدار عن "العصر الذهبي" وصعود اللبرالية الجديدة، والتي تم تبيانها فيما سبق، مجرد الى حد بعيد وغامض، وذلك لأنه يفشل في تأطير التحولات في الانتاج الرأسمالي، وفي المؤسسات الاقتصادية ومؤسسات الدولة التي وقعت بين اواسط الاربعينيات والسبعينيات. بدلا من ذلك، فالتحليل يركز على صراعات التوزيع الافقية بين المجموعات الاجتماعية المتنافسة وبين الدول. هذه الصراعات تشمل النزاع بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد الاوربي واليابان، وبين الحكومات والقطاع الخاص، وبين رأس المال المالي والصناعي، وبين رأس المال الصناعي والعمال. هذه الصراعات لا تفسر بالتفصيل، وعادة ما يتم الاكتفاء بمجرد وصفها كنزاعات حول الحصص من الدخل القومي (أو الدخل العالمي في حالة الدول). وهذا التحليل غير كافٍ لأنه يتجنب تماما شروط العمل وتوزيع النفوذ في موقع العمل وفي المجتمع. بإختصار، التحليل الكينزي يميل الى وصف النزاعات حول عملية التراكم، بينما يشوش او يتجاهل تماما الصراعات بخصوص طبيعة تراكم الرأسمالية[8].

وبالتالي، قدمت تفسيرات ضئيلة لازمة الربحية في الستينات والسبعينات، باستثناء ان الاجور كانت عالية جدا. فلم تكن هناك محاولات ذات اهمية من اجل تضمين التحليل الصراعات الاجتماعية المضادة للنظام في البلدان الغنية، أو الصراعات المجتمعية المضادة للإمبريالية في البلدان الفقيرة. كما لم يكن هناك حتى اعتراف رمزي بتآكل الشرعية السياسية للعلاقات الرأسمالية في الستينات والسبعينات. وبالتالي، فإن التحليل الكينزي فشل تماما في استيعاب ان اللبرالية الجديدة كانت مشروعا لإعادة انتاج هيمنة الرأسمال في ظروف جديدة من التراكم.

لقد اتخذ الكينزيون من انتزاع القيمة الفائضة أمراً مفروغاً منه؛ فالكعكة يجب ان تكبر حتى يتمكن الجميع من الحصول على المزيد. اما المتبقي فهو

مسألة تفصيل فقط: كيف يتم توزيع المزيد من الزينة على الكعكة، هي جزئية يمكن مناقشتها بطرق حضارية سواء في البرلمان او عبر المفاوضات الثنائية أو عبر اتفاق اجتماعي بتوسط الدولة "المحايدة". ان التحليل الكينزي تدارك تماما الحاجة الى الانضباط الاجتماعي من اجل الحفاظ على شروط انتاج وتراكم فائض القيمة، وايضا ضرورة الشرعية والتنظيم الاجتماعي من اجل الاستقرار الاقتصادي.

ما يفتقده التحليل الكينزي هو تفسير منهجي لطبيعة التراكم الرأسمالي، وتعليلا لعدم استقراره الجوهري. وهذا لا يكمن في ان المستقبل غير معروف، او بسبب صراعات التوزيع على صعيد التبادل (كل منهما ظاهرتان عابرتان للتاريخ)، ولكن بسبب عدم اليقين الجذري في مجال الانتاج، والذي ينشأ من الصراعات على استخلاص فائض القيمة تحت انماط محددة من التراكم الرأسمالي. لقد فشل الكينزيون عموما في تفسير لماذا وكيف تفاعلت سياساتهم المفضلة مع عملية التراكم بين الاربعينات والسبعينات، وكيف ان تفاعلاتها اطلقت القوى التي شأنها تحويل الكينزية نفسها الى شيء عفا عليه الزمن، وترك الساحة لتقدم اللبرالية الجديدة.

2- الوسيلة

المشكلة الثانية تتعلق بالوسيلة. في التحليل الكينزي للاقتصاد، المحدد الرئيسي للسلوك الجماعي هو المصلحة الاقتصادية الضيقة، سواء كانت على مستوى الفرد او على مستوى مجموعة مصالح (Interest group). هذه المصالح المتنافسة تتبارى ضد بعضها البعض في سياق مؤسسي تكون فيه الدولة منفصلة عن المجتمع وعن السوق، وهي محايدة جوهريا ايضا، حتى لو تم الاستيلاء عليها مؤقتا من قبل مجموعات مصالح (من ضمنها مثلا المعسكرات المتنافسة اللبرالية الجديدة او الكينزية). وهذا (المنطلق) يدعم الالتزام الكينزي بالقوة التغييرية للديمقراطية، بوصفها الطريقة الأفضل لإزالة قبضة اللبرالية الجديدة واسترجاع شروط النمو المستقر والتطور.

لكن اللبرالية الجديدة ليست فقط مجرد مجموعة من السياسات الاقتصادية والاجتماعية، التي يمكن استبدالها بسهولة بمجموعة بديلة عن طريق العملية الديمقراطية. ان اللبرالية الجديدة -مثلها مثل الكينزية التي حلت محلها - لديها اساس مادي محدد[9]. اللبرالية الجديدة تجمع بين استراتيجية للتراكم، ونمط لإعادة الانتاج الاجتماعي والاقتصادي ونمط للاستغلال والسيطرة الاجتماعية، يرتكز على الاستخدام المنظم للدولة من اجل فرضه، تحت القناع الايديولوجي لعدم التدخل، واخيرا مشروع للهيمنة يسعى من اجل اعادة انتاج سلطة راس المال في جميع مناحي الحياة الاجتماعية.

وهذا المشروع يسترشد بالضرورات الحالية لإعادة الانتاج الرأسمالي على المستوى الدولي، وهي ممثلة بوضوح في مصالح الاسواق المالية والمصالح العالمية للرأسمال الامريكي.

في ظل اللبرالية الجديدة، قيدت السياسات الداخلية بإحكام، بسبب الحاجة الى عزل عملية التراكم (السوق) عن المطالب الشعبية، خصوصا مع ضرورة السيطرة على العمل لضمان القدرة التنافسية الدولية. وهذا خفض بشكل جذري نطاق السياسة الاجتماعية، وأدى الى زيادة في البطالة وانعدام الامن الوظيفي في اغلب البلدان. كما ان هذا ادى الى نشوء ديناميكيات تركز الدخل في التراكم، والتي من الممكن تحديدها لكن لا يمكن إلغاؤها بواسطة التدخلات الهامشية الكينزية.

عند النظر لها من هذه الزاوية، نجد ان انعدام قدرة اللبرالية الجديدة سيئة السمعة على دعم معدلات استثمار عالية او معدلات نمو كبيرة في الناتج المحلي الاجمالي هو حقا لا علاقة له بالموضوع. وعلى اي حال، فاللبرالية الجديدة قادرة على دعم معايير عالية من الاستهلاك للفئة العليا من السكان، بسبب ديناميكيات التركز الخاصة بها وتشجيعها لديون المستهلك. ان ادعاء الكينزية بأن الاصلاحات اللبرالية الجديدة قد زادت من عائدات راس المال المالي على حساب الصناعة هي مسألة مضللة ايضا. لأن غاية الاصلاحات اللبرالية الجديدة ليست تعزيز النمو، أو تخفيض التضخم، أو حتى زيادة خيرات المحفظة للمؤسسات المالية. إن هدف الاصلاحات اللبرالية الجديدة هو اخضاع الطبقات العاملة المحلية والتراكم المحلي للضرورات الدولية، وتعزيز تكامل الاقتصاد الجزئي لدورات رأس المال، بواسطة المال، وايضا توسيع نطاق تحكم النظام المالي بالمصادر الثلاثة الرئيسية لرأس المال في الاقتصاد: الموارد المالية للدولة، والادخار المحلي، والروابط بين راس المال الحلي والاجنبي.

إن تحويل الرافعات الرئيسية للتراكم نحو رأس المال العالمي، بتوسط المؤسسات المالية المتكاملة والمقادة امريكيا، وبتنظيم المنظمات المالية الدولية المسيطر عليها امريكيا، قد وحد الاسس المالية للبرالية الجديدة عالميا. إن صدارة [قطاع] المال تعبر عن استيعاب المصالح الرأسمالية القطاعية من قبل مصالح رأس المال ككل. سياسيا، إنه يضمن أن التراكم، خصوصا في البلدان الفقيرة، لم يعد خاضعاً للتحالفات القطاعية الطارئة، وانما يخضع للطبقة الرأسمالية.

من الواضح انه لا يوجد اي افتراض ان هناك علاقة خصومة[10] بين الانتاج والمال في ظل اللبرالية الجديدة، ولا يمكن ان نتوقع ان رأس المال الصناعي سوف "يتمرد" ضد المال ويدفع باتجاه إحياء الكينزية. ان راس المال الصناعي

لديه ركيزة في النموذج اللبرالي الجديد، وهو ملتزم بنيويا بإعادة انتاجه. إن تدويل دورانات راس المال، وسيطرة سوق المال على الموارد المالية للدولة، جعلا من الاستثمار وتحقيق الارباح خاضعين لشروط السوق العالمية ولمصالح رأس المالي الدولي. وهذا سيجعل اي محاولة للفصل عن الميثاق اللبرالي الجديد مكلفة جدا بالتأكيد – وهذا اقتراح عمل غير جذاب.

3- دور الدولة واطار السياسة الاقتصادية

المشكلة الثالثة تتعلق بدور الدولة واطار السياسة الاقتصادية. في التحليل الكينزي الدولة منفصلة عن المجتمع، والحكومة الكينزية يمكن ان ترتفع فوق المصالح القطاعية - التي تختطف الدولة في ظل اللبرالية الجديدة - من اجل تنفيذ السياسات الاكثر مساواتية، وكذلك الاكثر انسجاما مع راس المالي المنتج بدلا من رأس المال المالي.

هذا الافتراض جذاب سياسيا ولكنه خاطئ من ناحية تحليلية. اذا كانت الدولة منفصلة عن المجتمع، فلماذا يجب عليها ان تختار السياسات التي تعظم معدل التراكم أو توليد العمالة، او تفادي الازمات المالية؟ من ناحية المبدأ كل شيء مباح؛ كل ما يحتاج اليه المعسكر التقدمي هو توحيد نشاطهم الانتخابي. لكن الدولة، والمؤسسات التي تتألف داخلها، تتشكل بواسطة التقنية والايديولوجيا، وايضا بواسطة الروابط، والنزاعات، والمصالح الطبقية. في ظل هذه الظروف المعقدة، فإنه من السذاجة الى حد اليأس ان نتوقع امكانية تحويل الاسس الاجتماعية للدولة بواسطة العملية الانتخابية لوحدها. وبما ان اللبرالية الجديدة قد طورت اسسها المادية، فلا يمكن إلغاؤها بكل بساطة من خلال العملية الانتخابية.

وبالتالي فإن الوصفة الكينزية، ونظرا لقوة الاسس المادية للبرالية الجديدة، تفشل في ادراك ان السياسات التقدمية سوف تميل الى صقل وتعزيز المنظومة الحالية، بدلا من تقويضها. فمثلا، نجد ان مبدأي الاقليمية المفتوحة[11] التدخل اللبرالي[12] يحدان من نطاق السياسات الصناعية والتجارية الناشطة. كما ان عضوية صندوق النقد الدولي والبنك الدولي تلغي امكانية فرض ضوابط على التمويل وعلى ميزان المدفوعات، وايضا فإن تأييد منظمة التجارة العالمية سيحد من امكانية استيعاب نظم التوفير، وهو امر جوهري من اجل استقرار الاقتصاد الكلي ومن اجل نمو مستدام طويل الامد. بما ان اللبرالية الجديدة هي الشكل المعاصر للرأسمالية؛ فالتراكم المستقر اصبح مترادفا مع التراكم في ظل اللبرالية الجديدة. وأي تغيير اساسي في نظام التراكم السائد سيزعزع دائما الاستقرار. هذا التغيير الاساسي ضروري – لكنه لن يكون سلسا كما انه لن يكون دون تكلفة.

خاتمة

ان التفحص الماركسي للأساس المادي للبرالية الجديدة يسلط الضوء على عدد غير قليل من نقاط قصور الكينزية. اثنتان من نقاط القصور هذه لها اهمية خاصة. الاولى، كثيرا ما جادل الكينزيون انعدم استقرار الاقتصاد الكلي وتكرار الازمات المالية وازمات ميزان المدفوعات يظهر ان اللبرالية الجديدة (بصفتها الشكل المعاصر للرأسمالية) متصدعة ومعابة على نحو جوهري. بنفس المعنى بالضبط، من الصحيح تماما ان يؤشر ان الازمات الاقتصادية تظهر لنا ان الرأسمالية هي نظام انتاجي متصدع. وكما ان الازمات تقدم فرصة لاستعادة التوازن في التراكم الرأسمالي، فإنها تلعب دورا بناء – بل وحتى دورا تأسيسيا – في ظل اللبرالية الجديدة. فهي تساعد على فرض انضباط سياسي على الحكومات، كما انها تجبر الرأسماليين والعمال على التصرف بطرق تدعم إعادة انتاج اللبرالية الجديدة. وبصورة غريبة، تبين الازمات الاقتصادية والمالية ان النظام يعمل، كما انها تساعد على جعله يعمل بصورة اكثر سلاسة وعلى المدى الطويل. ثانيا، من المعروف وعلى نطاق واسع ان اغلب وعود الحكومات بإدخال سياسات بديلة قد اخفقت. وهذه الاخفاقات ترينا بصورة واضحة ان تجاوز اللبرالية الجديدة صعب ومكلف. وعلى مستوى اعمق، فهي ترينا ان الابتعاد عن اللبرالية الجديدة او تجاوزها لا يمثل مشكلة ذاتية في المقام الاول باختيار السياسات الصناعية أو المالية أو النقدية "الصحيحة". ان تجاوز اللبرالية الجديدة سوف يشتمل على تحولات اقتصادية وسياسية لا يمكن معالجتها إلا من خلال تشييد نظام بديل للتراكم. وسيتطلب هذا المشروع تفكيك الاسس المادية للبرالية الجديدة بشكل منهجي من خلال مجموعة من مبادرات اعادة توزيع جذرية، وايضا مبادرات سياسة اقتصادية ديمقراطية. هذه السياسات سوف تدعم تحولاً حاسماً نحو توزيع اقل ظلما للدخل، والثروة والسلطة، كشرط اساسي للديمقراطية. وهذه التدابير السياسية لا يمكن ان تعهد ببساطة الى المبادرات الحكومية. بل يجب ان تكون موجهة بطبقة عاملة معاد صياغتها سياسيا، كواحدة من الرافعات الاساسية في سبيل اعادة تشكيلها هي ذاتها اقتصاديا. المشكلة ان هذه الحلقة القوية لا يمكن تتحقق عبر تمنيها. انها تتطلب تطوير بنى جديدة للتمثيل السياسي، يتوافق مع نمط وجود الطبقة العاملة في ظل اللبرالية الجديدة. كما يتطلب دعم انشاء وسائل جديدة لإعادة انتاج هذه الطبقة. هذه المنجزات لا يمكن حلها نظريا او من خلال تحليل مفاهيمي بحت. إنها مشاكل سياسية، يجب معالجتها استراتيجيا في عملية الصراع من اجل انبثاق حركة جديدة للطبقة العاملة لعصر اللبرالية الجديدة.

الهوامش:

Saad-Filho, Alfredo; 'Marxian and Keynesian Critiques of Register; (2008) London: Merlin Press, pp. 337-345.Neoliberalism; Socialist

يمكن قراءة المقال على موقع مجلة (Socialist Register) على الأنترنت على الرابط التالي:
https://socialistregister.com/index.php/srv/article/view/5890

مجلة (Socialist Register) : اسسهارالف ميليباند و جون سافيل سنة 1964، لتمثل وجهة نظر اليسار الجديد المستقل. يحررها الان ليو بانتش وكريك ألبو وبمساعدة مجموعة من المحررين المختصين البارزين من افريقيا، آسيا، اوربا وامريكا. (المترجم)

كل ما سيرد بين قوسين في المتن او الهامش هو من عند المترجم

** الفريدو سعد- فلحو: بروفيسور في الاقتصاد السياسي من البرازيل، كلية الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن (SOAS). يتصدى للعديد من المهام، منها: محرر مشارك في مجلة (Socialist Register) ، وعضو هيئة تحرير مجلة (الاقتصاد السياسي البرازيلية). من مؤلفاته (قيمة ماركس: الاقتصاد السياسي للرأسمالية المعاصرة، 2002)، (اللبرالية الجديدة: قارئ نقدي، 2005)، واخرها (البرازيل: اللبرالية الجديدة بالضد من الديمقراطية، 2018). [المترجم].

1 - بمعنى تخفيف القيود عن تدفق رأس المال عبر حدود البلد. ويمثل نهجا حكوميا للانتقال من النظم المنغلقة تجاه حركة راس المال الى الاقتصاد المفتوح. [المترجم].

2 - ازمة دول شرق اسيا: بدأت الازمة في تموز 1997 في اعقاب انهيار العملة في تايلند، ثم انتشرت الازمة بعد ذلك الى كل من كوريا الجوبية وإندونيسيا وماليزيا ولاوس وهونغ كونغ والفلبين. كما عانت منها ايضا اقتصادات الصين وتايوان وسنغافورة وفيتنام. أما فقاعة الانترنت (dot.com bubble) او فقاعة تكنولوجيا المعلومات: فهي فقاعة اقتصادية، نمت خلالها اسواق البورصة المتعلقة بشركات المعلومات في الدول الصناعية دون الاستناد الى قاعدة اقتصادية حقيقية. امتدت الفقاعة للفترة 1995 - 2000 [المترجم].

3 - ينظر كأمثلة:

D. Harvey, The New Imperialism, Oxford: Oxford UniversityPress, 2005; D. Harvey, A Brief History of Neoliberalism, Oxford: OxfordUniversity Press, 2005; D. Harvey, Spaces of Global Capitalism: Towards a Theoryof Uneven Geographical Development, London: Verso, 2006; K.S. Jomo, ed.,Globalization under Hegemony: The Changing World Economy, Oxford: OxfordUniversity Press, 2006; K.S. Jomo and B. Fine, ed., The New Development Economicsafter the Washington Consensus, Oxford: Oxford University Press, 2006;R. Kiely, Empire in the Age of Globalisation: US Hegemony and Neoliberal Disorder,London: Pluto Press, 2005; R. Kiely, The New Political Economy of Development:Globalization, Imperialism, Hegemony, London: Palgrave, 2006; and J. Stiglitz,Globalization and Its Discontents, Harmondsworth: Penguin, 2003.(المؤلف)

4 - ينظر كأمثلة:

T. Palley, Keynesianism: What it is and why it still matters, 2005,available from http://www.thomaspalley.com.(المؤلف)

5- بيرو سترافا، عالم اقتصاد ايطالي (1983-1898). درس الاقتصاد في جامعة كامبردج. [المترجم].

6- جوان روبنسون، عالمة اقتصاد بريطانية (1983-1903). تمثل شخصية محورية فيما اصبح يعرف لاحقا بما بعد الكينزية. [المترجم].

7- JimesCallaghan :رئيس وزراء بريطانيا (1976 – 1979) و رئيس حزب العمال خلال الفترة (1976-1980). والـ (IMF) هو مختصر لصندوق النقد الدولي International Monetary Fund (المترجم).

8- من اجل تفاصيل اضافية:

A. Saad-Filho, 'Monetary Policy in the Neoliberal Transition: A Political Economy Review of Keynesianism, Monetarism and Inflation Targeting', in R. Albritton, B. Jessop and R. Westra, eds., Political Economy of the Present and Possible Global Futures, London: Anthem Press, 2007.(المؤلف)

9- انظر:

A. Saad-Filho, 'Introduction' in Saad-Filho, ed., Anti-Capitalism: A MarxistIntroduction, London: Pluto Press, 2003; and A. Saad-Filho and D. Johnston, 'Introduction' in Saad-Filho and Johnston, eds., Neoliberalism: A Critical Reader, London, Pluto Press, 2005.[المؤلف]

10- وردت كلمة خصومة في النص بين معقوفين ' ' وباللغة الرومانية antagonic (المترجم).

11- الاقليمية المفتوحة = Open Regionalism : تم تبنيه كقاعدة رئيسية من اجل تحرير التجارة من قبل منتدى التعاون الاقتصادي لدول آسيا والمحيط الهادئ (APEC) عام 1989. ويمثل احدى محاولات ايجاد حل لمشاكل سياسات التجارة المعاصرة. لمزيد من التفاصيل انظر:

Yi, Sang-Seung; Open Regionalism and World Welfare; Eastern Economic Journal; 22(4); February 1996. Available in:
https://www.researchgate.net/publication/5220553_Open_Regionalism_and_World_Welfare[المترجم].

12- مبدأ التدخل اللبرالي= Liberal Interventionism : قاعدة سياسية خارجية تعنى ببساطة ان الدول اللبرالية يجب ان تتدخل في شؤون دول اخرى ذات سيادة من اجل تحقيق اهداف لبرالية وتحررية. واشكال التدخل متنوعة، فقد تكون مساعدات انسانية وقد تمتد لتشمل الغزو والعدوان. (المترجم).

أدب
و
فن

"ادب وفن" مسار يتواصل

حسب الله يحيى

لأن الحياة.. حركة وتغيير واستمرار وتواصل، كان لا بد ان نكمل المسار الذي اختطه زميلنا الراحل الشاعر إبراهيم الخياط.. ذلك انه انطلق من حيث أسس له زملاء سبقوه الى العطاء الادبي والفني الجاد والرصين والدؤوب على تقديم ثقافة تقدمية مضيئة لتكون صنو مساره ومسارنا وتواصلنا كذلك، ومع قيمه وجسوره التي بناها ومع كل الخيرين من الادباء والفنانين الذين يملكون رصيداً راسخاً من الفكر النيّر والمنجز المزدهر.

.. ولأن الحياة فيها من العقبات بقدر ما فيها من المسرات، كان لا بد ان نشد العزم على ان نتواصل في غابات الكلمات والأفكار والجمال.

من هذه المنطلقات تبدأ صفحات "ادب وفن" التي توليها مجلتنا العريقة "الثقافة الجديدة" الكثير من الرعاية والاهتمام، انطلاقاً من فهم عميق يتعلق بضرورة إيلاء الثقافة والمثقفين كل الانتباه، ذلك ان البلاد لا يمكن تقويم تقدمها وازدهارها الا من خلال أجيال متعاقبة من المفكرين والمبدعين والكفاءات العلمية التي من شأنها ان ترقى بالحاضر والمستقبل.

كذلك.. لا تحيا الحياة على ما هي عليه من عقبات وازمات ومحن ومشكلات وعقد شتى، انما تحيا بالجمال والبهاء والأمان والعافية والبناء الإنساني والعمراني معاً.. ذلك ان الانسان وجد لكي يغيّر ويحيا ويحمل الأشياء على وفق ما يراد للحياة ان تكون كأحسن ما يكون..

وفي "ادب وفن" لا يمكن ان نستسلم للفكر الظلامي الذي يحيط بنا ويضيق على آفاق عملنا، بل نحن على العكس من ذلك، نتوجه للكشف عن طبيعة هذا الفكر التدميري المتخلف وما يزرعه من فتن وجهل وسوداوية في حياة الناس، وما يدبره من أوهام وغيبيات لا يراد منها إلا إشغال البشر ليكونوا على بعد وتجاوز لما هم فيه من واقع مزرٍ وزمن شاق وحياة مُرة ..

نعم.. نحن نتوجه الى إشاعة الفكر التنويري من خلال الكلمة الرصينة والفنون الجميلة، والثقافة التي تعتمد التنوع واحترام الرأي الآخر.. ذلك اننا كائنات لا يمكن ان تكون نسخة من الآخر بأي شكل من الاشكال، وانما نكون مع الآخر.. والآخر، حضورنا الإنساني الفاعل والمؤثر الذي يغني الحياة ويجعلها اكثر سعادة واشراقاً.

وفي "ادب وفن" نشرع الصفحات لكل الأقلام التقدمية والديمقراطية التنويرية، فنحن نبحث عن الجدة والجدية معاً.

وعلى هذا الأساس وهذا المنطلق سنتواصل في هذه الصفحات التي نعمد الى ان تكون متنفساً للابداع المتميز والجمال الأخاذ والنقد البناء.

والأمل معقود بتفاعل كل الخيرين الذين يحبون الحياة ويشرعون الأبواب للاحتفاء بالجمال وكلمات الصدق والبهاء والخير..

وهذه دعوة مفتوحة الى الجميع للكتابة الينا على البريد الالكتروني الخاص بـ "ادب وفن" مع وافر الاعتزاز..

Culture1944@yahoo.com

عدنان حسين .. موقف وطني وحبر شجاع

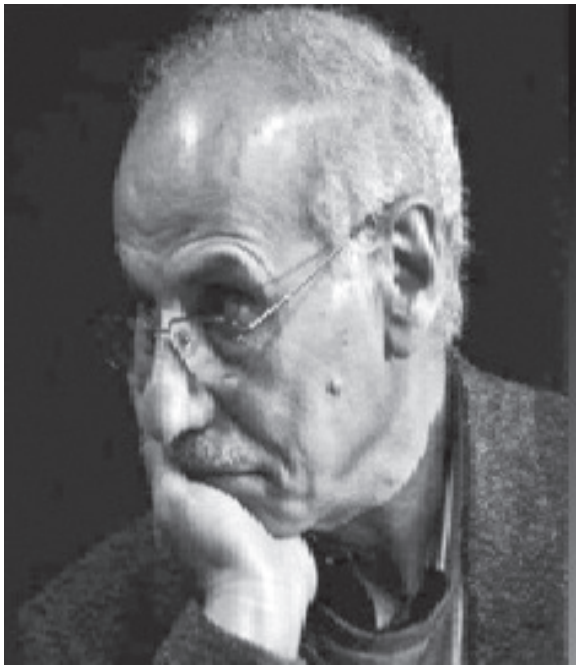

ليست حالة طبيعية وعابرة يغيب فيها قلم جريء، وموقف ثابت وانسان نقي، وليس سهلاً ان نودع كاتباً تنويرياً بنى حياته على خزين معرفي تقدمي يقدم خلاصته للناس.

ليس سهلاً ان نبدأ الصباح بـ ''شناشيل'' مصحوبة بقدح شاي. ثم فجأة نجد مكان الشناشيل بياضاً، فيما يعاني قدح الشاي لوحده بلا حياة يحياها مع ''شناشيل'' عدنان حسين.

الرفقة الطيبة.. مشروع انساني كبير وراسخ، ليس من السهل اقتلاعه من جذوره ابداً، وهذه الرفقة مع عدنان حسين لا تقاس بالعلاقات الودية اليومية، وانما بروح هذه العلاقة، بوجودها الصميمي مع كلمات تشرق مع الشمس في كل صباح لـ ''المدى'' المفتوحة الأفق.

نعم.. عدنان حسين، بصمة نضالية وصحفية يسارية مخلصة تواصلت مع ''طريق الشعب'' وانتقلت بصاحبها الى بيروت ودمشق ولندن.. لكنها لا بد ان تعود.. بصمة عدنان حسين المضيئة لتحط في بغداد بوصفها ميلاد الفرح الذي تباهى به اسماً وفعلاً وأملاً.

من هنا كانت حرقتنا على: كامل شياع، وفالح عبد الجبار، وإبراهيم الخياط، وفائق بطي، وهادي المهدي، و .. عدنان حسين.

أسماء فذة راسخة في الذاكرة، لانها في أساس وجودها، لا تحمل في عوالمها واحلامها وخزائنها سوى الكلمات التي آمنت بها وعملت على ان تزرعها في عقول الناس، حتى لا تتسرب اليهم تلك الأفكار الظلامية المعتقة بالأذى والعنف والجريمة والفساد.

عدنان حسين كان من هذا الرعيل الطيب الذكر الذي آخى بين العقل والممارسة، بين الوعي وتنوير الناس به.. ذلك ان حضارة وقيما مثلى ومسارا نحو النور، نحو الامل.

العدنان البهي كان عارفاً بالاحداث مسبقاً، يكشفها لقرائه قبل وقوعها، وهذا من طبع المهني البارع، والسياسي الذي يرى ابعد من عينيه.. وهو يتجه الى بصيرته الخبيرة والمجربة والواثقة من مصداقية خطواتها.

لذلك وجدناه يكتب عن حاضر عراقي متشابك في ازماته ومحنه وتقاطعاته ونقائضه واوجاعه التاريخية التي تمضي (قدما) لتضج دما وسجنا وعوقا ومصائب ونكبات لا تتوقف..

لكن هذا العدنان.. عصي على التشاؤم، وعصي على التراجع، وصعب على اليأس والإحباط.. ومن هذه القواعد الثابتة في حياته واصل آماله في "شناشيل".

نعم.. كان عدنان حسين حذراً حين يكتب، حذر لا علاقة له بالخوف ابداً، وانما له علاقة بطبع المتلقي ومدى استقباله لهذه المفردة او تلك.. ومن منطلق هذا الحذر المهني العالي؛ اذكر انني اختلفت معه في تفسير "هيبة السلطة الحاكمة" حتى وصلنا حدّ الاختلاف الأقرب الى الخلاف، لكنه احتمل خلافي، وحوّله الى اختلاف يحترمه ويجله ويباركه كذلك، وهذا هو طبع الكبار عقلا وموقفا وقلبا كذلك.

ومن زاد هذا العدنان الذي ارخ موته بالشناشيل، انه كان يحرص على عمله، حرصه على نبض قلبه، والضوء في عينيه، والامل في نفسه الحية الباسمة التي لا تعرف الغضب ولا القطيعة ولا الجفاء مع الآخر.

عدنان حسين منشد كلمات، امتلك جرأة الموقف وشرف المهنة ونبل المواقف الإنسانية الشريفة..

ان صحافتنا الوطنية وهي تفقد احد بُناتها البارزين، وشمعتها اليقظة، وصوتها الشجاع؛ لا بد ان تجد في صدى اسم عدنان حسين انموذجها البارز وحبرها الذي لا تغيّب حضوره الأزمنة..

انه واحد من كتابنا الذين حفروا عميقاً في حياة مملوءة بالعقبات والظلمات، فكان مناراً في مسيرتنا الصحفية التي اختطت لنفسها طريق النضال من اجل المسيرة التنويرية والعقل الراجح علماً ومعرفة وابداعاً.

له المجد معلماً، ولنا من زاد كلماته.. زاداً نعتز به ابداً.

هيئة تحرير مجلة الثقافة الجديدة

"الرأي.. عقل واع له بصماته وصداه، واحتراماً واكراماً للرأي والرأي الآخر، سنتواصل مع جملة آراء تستحق الجدل والمناقشة الجادة التي قد نختلف او نتفق فيما ورد فيها.. لكنها في مجملها تستحق الوقوف عندها وتأملها ومراجعتها".

(ادب وفن)

القاع والقناع: احتباس الوعي بين التاريخ الايديولوجيا ((حالة العقلية العراقية انموذجاً))

ثامر عباس

في المجتمعات التي لها باع طويل في إنتاج خرافات الأصول ونسج أساطير البدايات، غالبا ما يختلط التاريخ بالدين، ويمتزج المدنس بالمقدس، ويتلابس الواقعي بالرمزي، وبالتالي يعلق (الوعي) الاجتماعي بين شقي رحى الواقع المعيش والمتخيل المجيش. ولهذا السبب تبقى جماعات هذا النمط الاجتماعي العتيق حبيسة ضمن أطر من المفارقات الوجودية المتوالية والنكبات الحياتية المتسلسلة، التي لا تلبث أن تخرج من واحدة حتى تسقط في أخرى أشد هولا من سابقتها، على خلفية احتباس وعيها بين ماض مسكون بالالتباسات المتقادمة، وحاضر مشحون بالتناقضات المتراكمة، ومستقبل مرهون بالتكهنات المتضاربة . ولعل الجماعات العراقية المعاصرة تعد من أنقى النماذج التي تعكس هذه الحالة وتبرهن عليها في الآن نفسه، لاسيما بعد أن أظهرت إلى النور تداعيات الغزو العسكري الأمريكي منذ عام 2003 ولحد كتابة هذا المقال، كل ما كان مضمرا بين طيات الذهنية من خرافات تحت بند المحرّم التفكير فيه، وجميع ما كان مخفيا تحت بطانة السيكولوجيا من عصبيات تحت بند الممنوع الإفصاح عنه.

نستخدم هنا تعبير (القاع) للدلالة على ذلك (المخزون الانثروبولوجي) الهائل من رواسب الماضي المجهول وأطياف الذاكرة المشوشة، والتي لا تزال دينامياتها شغالة في بنى الوعي وانعكاساتها مؤثرة في مطمورات اللاوعي للجماعات السوسيولوجية والمكونات الانثروبولوجية، وذلك كل حسب نوعية وخصوصية

سردياتها الأسطورية وانحداراتها الاثنية وخلفياتها الثقافية ومرجعياتها الدينية . ((فالماضي القريب وحتى البعيد والأكثر بعدا – كما لاحظ المفكر المغربي (محمد أركون) – ليس مجرد مادة للفضول التاريخي والبحث العلمي وحسب، وإنما هو حي ومنتعش في اللغات والخطابات الشائعة (حتى العالمية منها)، وكذلك في الشعائر والطقوس، وفي الاحتفالات الجماعية، وفي المدلولات الرمزية للمنزل، والحقل، وتبادل العطايا والهدايا . ولا يزال نمط التحسس والإدراك الأسطوري فضلا عن المعرفة الأسطورية التي تغلب المخيال على العقل، يسيطر على قطاعات واسعة من الطبقات الشعبية حتى الآن))[1]. كما ونستعمل تعبير (القناع) للدلالة على الافتتان (بالخطاب الإيديولوجي) المضلل، سواء جاء بصيغة حكاية (أسطورية) كما في مدونات البيداغوجيا الحكومية، أو دعوة (دينية) كما في نصوص الحركات الدينية، أو عقيدة (إيديولوجية) كما في أدبيات الأحزاب السياسية. وهو الأمر الذي أفضى باستمرار - وسيفضي على الدوام - إلى (تجريد) العقل من وظائفه المنطقية و(تعطيل) الوعي عن قدراته التحليلية، بحيث لم يعد بالمستطاع رؤية ما يجري في رحم الواقع المعيش من تناقضات بنيوية حادة، وصراعات اجتماعية متفاقمة، واحتقانات دينية متعاظمة، وتصادمات ثقافية متشددة، وتنافرات لغوية متوالدة، واستقطابات تاريخية متصلبة، وتصدعات جغرافية متزايدة، وانقسامات سياسية متوالية . إذ طالما إن طبيعة مفهوم الايديولوجيا تعكس نمط الأفكار السائدة وتجسّد منظومة القيم المهيمنة، أي الحالة الذهنية والسيكولوجية والقيمية للجماعات الأساسية في المجتمع، سواء تلك التي تتربع على عرش السلطة أو تلك التي تتموضع ضمن خندق المعارضة، فان لديها (الايديولوجيا) ميلا فطريا ونزوعا طبيعيا للتحدث باسم الجميع والتعبير عن مصالح الكل، كونها الممثل الشرعي للخطاب الوطني / القومي الشامل، وهو الأمر الذي يسوقها لإزاحة كل ما لا يندرج تحت جناحها أو يغرد خارج سربها الأوحد. من هنا فالايديولوجيا محمولة – لا فرق بين ايديولوجيا السلطة أو أيديولوجيا المعارضة - على اختلاق السرديات الأسطورية وتلفيق الذاكرات التاريخية، بحيث يتأمثل التاريخ بعين الوعي المؤدلج ليستحيل إلى معطى من معطيات الأسطورة، للحد الذي يمكن فصله عن الواقع وسلخه عن المجتمع، ومنحه، بالتالي، خاصية مفارقة للمعيش الإنساني.

ومن جملة المآسي والفواجع التي لا تفتأ تتحكم بمصير هذه الجماعات / المجتمعات الغارقة في بؤسها الوجودي وانحطاطها الحضاري، هي إن رواسب (قيعانها) الانثروبولوجية والسيكولوجية ما زالت تلقي بضلالها القاتمة على مختلف أنماط (أقنعتها) السوسيولوجية والإيديولوجية، للحد الذي تبدو فيه مشاكل هذه الأخيرة في (السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والهوية)، هي بمثابة انعكاس لإشكاليات الأولى الرابضة في مجاهل اللاوعي والقارة في طمى المخيال (الأساطير والتمثلات والتواريخ والذاكرات). ولهذا فقد أخطأ الفيلسوف المعتزلي الجاحظ حين

عدّ ظاهرة ولع المجتمع العراقي بمظاهر الجدل الفكري والمناظرات الكلامية، هي من باب الإفصاح عن شدة ذكاء الإنسان العراقي وقوة الفطنة لديه، الأمر الذي يجعل علاقته بأرباب السلطة ورمزها علاقة إشكالية على نحو دائم. وإذا كانت ظروف الصراع الفكري والحضاري التي وسمت تلك المرحلة التاريخية بميسمها، ما بين دعاة النزعة (العروبية) وبين أنصار النزعة (الشعوبية)، قد تعدّ خلفية مناسبة (لعذر) الجاحظ على إتيانه بتلك الآراء التي لا تخلو من عصبية اقوامية، فان ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى أنه أخفق في ملاحظة أن الأسباب الحقيقية والدوافع الفعلية التي تكمن خلف هذه الظاهرة، لا تمت بصلة لما زعمه من فرط في مظاهر (الذكاء) و(الفطنة)، بقدر ما هي تعبير خفي لاواع عن تأثيرات (القاع) الانثروبولوجي/ السيكولوجي المضمر على (القناع) الإيديولوجي الظاهر. وبالتالي تشكل مركز جذب واستقطاب نحو الإغراءات التي تقدمها الخطابات الإيديولوجية وتبشر بها، لا سيما وأن حجم تأثير ومقدار فاعلية هذه الأخيرة (الايديولوجيا) يعتمدان على زخم العواطف والانفعالات في غزو الذهنيات الرخوة واحتلال النفسيات الضعيفة، حيث رصيدها لدى الجماعات المهمشة والمحرومة عال وفعّال جدا، على خلفية قدرتها في اختزال تعقيدات الواقع وإمكانيتها في تسطيح الوعي الذي يستهدف فهم حراكه وتفسير تطوره.

ورغم إننا لا نشاطر كل ما ورد ضمن ملاحظة المفكر السوري (برهان غليون) حول تشخيص ارتدادات هذه الايديولوجيا على الواقع الاجتماعي والسياسي العربي، إلاّ إنه لا يحق لنا بالمقابل أن نبخس قسمة ما فيها من صواب، حين كتب يقول ((إن المسؤول عن الإخفاق الاجتماعي والقومي ليس ما يعتقد بأنه محافظة فكرية دينية للجماهير الشعبية، وهذه بذاتها نظرة فاشية تعتبر الشعب بطبيعته محافظا، وهو على العكس من ذلك، القوة الأكثر اندفاعا وشوقا للتغيير المادي، ولكن البلادة والجبن والتفكك العقلي للنخبة القائدة للمجتمع. إن المسؤول هو الإيديولوجية القائدة، إيديولوجية الفئة الاجتماعية القائدة، التي لن تستطيع أن تكتسب العلم الغربي وتتمثله، أو تستوعب وتدمج وتثوّر الإيديولوجية التقليدية الخاصعة، المسحوقة في أغلب الأحيان. وان الهزيمة الفكرية، لم تكن هزيمة دين البسطاء الإيماني العفوي والفقير، وإنما دين السياسة (العلماني) الذي لم يكن فيه من العلمانية إلاّ عقلنة كل ما هو عشائري، ودنيوي، وأناني ووضيع))[2]. هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فهم (العراقيون) يظهرون نفورهم ويبدون عزوفهم عن تجشم صعاب التحليلات السوسيولوجية والتنقيبات السيكولوجية، التي من شأنها ليس فقط إماطة اللثام عن حجم العيوب وكم المثالب التي تتوفر عليها الشخصية العراقية حسب، كما ليس فقط تعرية عقدهم النفسية وفضح نوازعهم التعصبية فحسب، وإنما تستلزم تعقب جذور/ أصول الظواهر الاجتماعية المسؤولة عن إحداث كل هذه الإضرار والتشوهات، ومن ثم تتبع ديناميتها في تصوراتهم وتقصي

سيروراتها في علاقاتهم، وهو الأمر الذي يعني في نهاية المطاف قدح زناد الوعي وإيقاد جذوة التفكير وهذا ما لم يدخل في حساباتهم بعد.

واللافت إن هذه الحالة النكوصية/ الارتدادية لم تقتصر مظاهرها فقط على جمهور العامة من الجماعات العراقية كما قد يوحي الاستنتاج السابق فحسب، بل إن هذه اللوثة الفكرية أصابت وتصيب مختلف نخب المجتمع العراقي وبدرجات متفاوتة كذلك، والتي يفترض إن مناعة وعيها الذاتي تمنحها الحصانة الكافية للحيلولة دون انكفائها أو نكوصها، لا بل ربما تكون أوسع مدى في العدوى وأعمق تجذر في الوعي مما قد نتصور. وذلك متأت – في الواقع - من حقيقة إن جل الخطابات الإيديولوجية التي تنظر للواقع هي من إنتاج تلك النخب والتي هي من أبرز المروجين لها وذلك لاحتمالين؛ الأول إما لأنها ضالعة مع السلطة ومنخرطة في سياساتها بحيث تعمل على تغطية وتمويه انحرافاتها وتجاوزاتها من جهة، وشرعنة وجودها وتقوية نفوذها وبسط هيمنها من جهة أخرى. والثاني أو لأنها – دفاعا عن حقوقها المغيبة ومصالحها المهدورة – تقع ضمن خانة المعارضة، بحيث تفتقر لوسائل (القوة الخشنة) وتنعدم لديها أساليب الردع الفعالة التي تمكنها من مقارعة سلطة الدولة في مضمار صراع الإرادات، الأمر الذي يدفعها للتوسل بكل ما في جعبة (القوة الناعمة) من تأثير عقلي وإيحاء نفسي، حيث يجيد الخطاب الإيديولوجي – في هذا المجال - قواعد التلاعب بالألفاظ والكلمات والاستثمار للرموز وللدلالات .

وللتأكيد على أصالة هذه الظاهرة ضمن بنية الوعي الاجتماعي (أفراداً وجماعات) فقد توصل المفكر السوري الراحل (جورج طرابيشي) إلى مكامن تلك الظاهرة المعنية، فضلا عن تمكنه من تشخيص مسببات استمرارها، حين أشار – وهو ينتقد بصيغة الجمع كل المثقفين العرب المولعين بالخطابات الإيديولوجية – إلى انه ((وبالفعل، ونظرا إلى حالة الطلاق المزمنة بين الفكر والواقع في العالم العربي منذ اقتحامه من قبل الحداثة الغربية (الوافدة) أو (الغازية) أو (المستوردة) – لا مشاحة في الأسماء – فان وظيفة المثقفين كانت ولا تزال منذ عصر النهضة، وفي شطر أساسي منها، السيطرة على عالم الخطاب أكثر مما على عالم الحقائق، وعلى المفاهيم أكثر مما على الوقائع، وبالتالي، وبلغة تراثية، على الأذهان أكثر مما على الأعيان))[3]. وفي السياق ذاته فقد لاحظ الباحث والدبلوماسي الليبي (محمود محمد الناكوع) إن ((الصفوة العربية عاشت طويلا في عالم المثاليات والأحلام والأوهام، وعلى هذه الصفوة أن تنزل إلى عالم الواقع - وان تبصر بنظرات واقعية، وشديدة الالتصاق بالواقع))[4].

ولعل هذا الأمر يفسر لنا سرّ الاستعداد الذي تبديه العقلية العراقية حيال انخراطها التلقائي بشتى ضروب الإيديولوجيات اليمنية واليسارية التي شهدها الواقع التاريخي والسياسي، سواء أكانت ذات صبغة دينية/ إسلامية، أو ليبرالية/ علمانية، أو ماركسية/ الحادية، طالما أنها تبشر بدعاوى خيالية لا واقعية وظيفتها مداعبة أخيلة وأحلام المضطهدين سياسيا والمسحوقين اجتماعيا

والمحرومين اقتصاديا والمهمشين ثقافيا. وبصرف النظر عن النوايا السلبية التي يضمرها عالم الاجتماع الفرنسي (ريمون آرون) ضد الفلسفة الماركسية بشكل عام، وبفعل الانجذاب نحو هذه الإيديولوجية تجد المثقف الآسيوي يغيّر معنى ما يريده من انجازات))[5]. ولكنه، مع ذلك، يتجاهل حقيقة إن الماركسية في صيغتها (النقية) و(النقدية) كانت من أبرز الفلسفات التي أشارت إلى التشوهات والانحرافات التي يمكن أن تتسبب بها الايديولوجيا لبنية الوعي الاجتماعي.. حيث أشار مؤسسا الماركسية "ماركس وانجلس" في نص كلاسيكي إلى إن البشر اصطنعوا ((باستمرار حتى الوقت الحاضر تصورات خاطئة عن أنفسهم وعن ماهيتهم وعما يجب أن يكونوه. ولقد نظموا علاقاتهم وفقا لأفكارهم عن الله، والإنسان العادي، الخ. ولقد كبرت منتجات عقولهم هذه حتى هيمنت عليهم، فإذا هم، الخالقون، ينحنون أمام مخلوقاتهم))[6].

وعلى ما يبدو فان تواطؤا مضمرا قد حصل ما بين منتجي الإيديولوجيات ومروجيها من جهة، وبين مستهلكيها من الجماعات السوسيولوجية والمكونات الانثروبولوجية التي تستمر بالتعاطي مع تلك المنتجات الفكرية الجاهزة والمعلبة، طالما أنها تقدم لها العزاء وتشيع بين أوساطها السلوى. فبقدر ما تستهدف الايديولوجيا حقول التاريخ ومجالات الدين ومضامير الأسطورة وميادين الذاكرة، بقدر ما يتيح لها هذا التوجّه استقطاب المزيد من المؤيدين والمشايعين الذين يؤثرون أطياف الماضي على صور الحاضر، لا سيما وإن معظم الإيديولوجيات تشير الى المسكوت عنه وتضعه في طمى السيكولوجيا، والممنوع التفكير فيه ضمن بنى الذاكرة، والمحرم الاقتراب منه ضمن معطى المخيال. وهي حين تمارس هذا الضرب من التوظيف والاستثمار للمواريث القديمة، لا تستهدف الكشف عن الإشكاليات الرابضة في عمق تلك الأنشطة العقلية ومن ثم تعريضها لعمليات النقد والمساءلة، على أمل تنقيتها مما علق بها من اختلاقات وتلفيقات من جهة، وترميم ما تعرضت له من انقطاعات مفتعلة وردم ما أصابها من فجوات مقصودة من جهة ثانية، جراء ضراوة الصراعات التي كانت رحاها - وما زالت - دائرة بين مختلف الجماعات الاثنية والمذهبية والقبلية واللغوية، الخ. وإنما لاستخدامها كغطاء يموه على رزايا الواقع المعيش، وبالتالي نقل بؤرة اهتمام تلك الجماعات إلى قضايا لا تمت لمصالحها الحقيقية بصلة، وجعلها تخوض فيما بينها حروبا جانبية لا ناقة لها فيها ولا جمل، سوى كونها تعلقت بسرديات الماضي المؤمثلة على حساب سيرورات الحاضر المعطلة، وتمسكت بخطابات الايديولوجيا المجيشة على حساب جدليات الواقع المعيشة. خصوصا وان مجتمعنا حتى الآن – كما يقول المفكر المصري الراحل (فؤاد زكريا) – ((لا يسمح بمناقشة الأسس والجذور، ولديه من الأساليب ما يتيح له إرغام المثقف على أن يحصر تفكيره في نطاق القشور السطحية وحدها))[7].

وبرغم إن الإنسان العراقي، من الناحية البايولوجية، كائن متعضّ – يأكل ويشرب ويتناسل – شأنه في ذلك شأن أي متعضّ آخر في هذا الوجود، فضلا عن كونه يعيش في بيئة ايكولوجية معروفة، ويندرج في

سياق تاريخي معلوم، وينخرط في علاقات اجتماعية ملموسة. ولكنه، مع ذلك، لا يعيش حقيقة الواقع كما هو قائم بالفعل كتناقضات اجتماعية واحتقانات نفسية وصراعات سياسية، كما لا يدرك فعليا ماهية القوى العميقة التي تحدد مساراته وتعين خياراته. أي بمعنى انه يمارس طقوس حياته بصورة (مقلوبة) – إن لي القول – رأسا على عقب دون أن يعي ذلك، لا بل انه حتى لو أدرك ذلك فانه سرعان ما يختلق لها التبريرات ويلفق لها المسوغات ويفبرك لها التخريجات، التي تضفي عليها – من وجهة نظره المجبولة على الأمثلة والأسطرة - الواقعية والمشروعية. وذلك ليس بواقع ما يجري له وعليه وحوله - هنا والآن - من مصائب ونوائب لا تفتأ تتفاقم وتتضخم بمتواليات هندسية، محيلة فضاء وجوده الإنساني المرهون بالصدف والمحكوم بالطوارئ إلى سلسلة من المعاناة والمكابدات ليس لها أول ولا آخر، وإنما بناء على ما تقدمه له مخيلته المشحونة بالخرافات الدينية من معتقدات باطلة، وما تمنحه إياه ذاكرته المعبأة بالأساطير التاريخية من قناعات مصطفة.

الهوامش:

1 - الدكتور محمد أركون؛ الفكر الإسلامي : نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق هاشم صالح، (بيروت، دار الساقي، 1998)، ط3، ص21 .

2 - الدكتور برهان غليون؛ مجتمع النخبة، (تونس، دار البراق للنشر، د . ت)، ص9.

3 - جورج طرابيشي؛ من النهضة إلى الردّة: تمزقات الثقافة العربية في عصر العولمة، (بيروت، دار الساقي، 2000)، ص165 .

4 - محمود محمد الناكوع؛ أزمة النخبة في الوطن العربي، (بيروت، د . ن، 1989)، ص63.

5- ريمون آرون؛ أفيون المثقفين، ترجمة قدري قلعجي، مواقف الفكر المعاصر، (بيروت، دار الكاتب العربي، د . ت)، ص192 .

6- ماركس وانجلس؛ الإيديولوجية الألمانية، ترجمة الدكتور فؤاد أيوب، مصادر الاشتراكية العلمية، (دمشق، دار دمشق، د . ت)، ص19 .

7- الدكتور فؤاد زكريا؛ هل المثقف هو المسؤول، مقال منشور في مجلة الفكر المعاصر المصرية، العدد (2)، (القاهرة دار الفكر المعاصر للنشر/ بيروت، دار ابن رشد للنشر، د . ن)، ص6 .

الجواهري وزوربا

سامي عبد علي

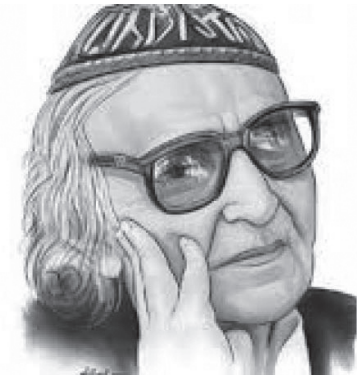

كلما حدّقت عيناي في مسلة الجواهري كقارئ شغفته الكلمات حباً أنبهر من القدرة الجمالية التي بلغت الذروة في الثراء الفكري لاسيما ان هذا الشيخ عاش في معترك الحياة مئة عام حافلة بالقوافي ومفعمة بالالاف من الغنائيات والصور، لطالما هدر صوته وقارع وزأر في وجه الطغاة. الجواهري الثائر، المغترب، الأبي، الغضوب للحق في الوقت الذي يتحنن على كفيف المعرة والرفوف التي تحمل الكتبا.

عذراً .. الجواهري ليست به حاجة لأوسمتنا ولا أريد التوغل في الارض الجواهرية المترامية الاطراف بقدر ما اريد لعيني ان تحدق اكثر في القصائد التي شهق فيها ونما غزله وافتنانه بنون الانثى للحد الذي بات صريع هوى سمراوات بغداد وشقراوات براغ فتسامت ابداعاته في اجمل السونيتات ((بديعة، جربيني، بائعة السمك، أنيتا)):

بديعة:

لا تحذَري لقَوامكِ القصفا
هُزِّي بنصفِكِ واتركي نصفا
فبحَسْبِ قدِّكِ أنْ تُسنِّدَه
هذي القلوبُ، وإنْ شكتْ ضَعفا

جربيني:

جرّبيني منْ قبلِ انْ تزدَريني
وإذا ما ذممتِني فاهجرِيني
ويَقيناً ستندمينَ على أنَّكِ
من قبلُ كنتِ لمْ تعرفيني

انيتا :

إنَّ وجــهَ الدُجى "أنيتــا" تجـلَّى
عـن صــباحٍ مِـن مُقلَتيكِ أطَــلا

بائعة السمك:

فلاحتْ لنا حلوةُ المُجتلى
تَلَفَّتُ كالرشــأ النــافــرِ
تَشُدُّ الحِزامَ على بانـةٍ
وتفْتَرُّ عن قمـرٍ زاهــرِ

أيامه التي قضاها مع فينوساتهبارمياوماروشكا ثم عاد الى الحبيبة دجلة.

ما دار في خلجات الجواهري هو ما دار في ذات الروح لشخصية واقعية قدمها لنا الروائي المعماري نيكوس كازنتزاكي ..

زوربا الذي لم يحمل قلماً في حياته لكننا نقرأ عنه بقلم كاتب ‹تقرير الى غريكو›:

((أما زوربا فهو علمني أن أحب الحياة. و لو ان سؤال العمر كان مطروحاً امامي حول اختيار دليل روحي كما يسميه الهندوس لاخترت زوربا)) ثم نقرأ في اولى صفحات الرواية ((زوربا هذا الرجل الذي ابحث عنه منذ مدة طويلة .. أحس وأنا أصغي اليه ببتولية العالم المتجدد)).

اذهلتني تلك الاوراق التي لم يكتبها احد سوى اله الفن الروائي كازنتزاكي، الجواهري شغفته "زوربا" الرواية والشخصية وعالمها وافكارها ورغباتها ومواقفها، نقرأ في (كتاب الجواهري.. الليالي والكتب) لمؤلفه الاستاذ صباح المندلاوي:

((اي فرح وأي سعادة غمرته وأنا أحملها له)) .. كان صباح يقرأ واذن الجواهري تقتنص العبارات للحد الذي ابدى استغرابه .. لا اعرف لماذا لم تنل هذه الرواية جائزة نوبل انها كتابات خالدة.. هكذا هم العباقرة)).

فكانت قصيدة زوربا التي كتبها في براغ عام 1969 صورة نابضة ومنجم كلمات ثرية شفافة بعد ان وجد قاسما مشتركاً بينه وبين زوربا الاكاديمي القروي الخارج عن القانون، تدثر الاثنان بعباءة واحدة وحملا من عدم الرضا للحد الذي يفضي الى التمرد، لكن هناك من يحمل مشروعاً أكبر بعيد عن السطحية، ويسعى الى تحقيق الرضا والاندفاع في حب الحياة فتراه يثور بكلماته .. تشاطر الاثنان القدر نفسه في عشق المرأة والالتصاق بها حتى بعد الموت، يقول الجواهري وهو في السبعين : اذا مت فاني لا اطلب من القدر الا ان يعاملني معاملة تليق بشاعر مثلي، يكفي ان يسمح لي خلال كل عشر سنوات بدقيقة واحدة اخرج فيها من قبري والقي نظرة على النساء الجميلات ثم اعود الى القبر.

زوربا والجواهري يتحاوران. يود الاثنان ان يكسرا رخامة قبريهما ليستنشقا العطر الانثوي، فهما يرفضان ان تتوقف عقارب ساعتيهما لأجل ملاقاة المرأة.

نقرأ ايضاً في الرواية:

انظر يا زوربا الخبيث.. انها امرأة، مخلوق انساني، من هي؟ بلغارية، يونانية، افريقية لا يوجد فرق ايها الغبي . هي مخلوق لها فم وعينان وثديان.

والجواهري يقيم الوزن نفسه للمرأة:

"المرأة دنيا كل الدنيا وكل ما فيها لا يساوي المرأة فالمرأة الجميلة كالقصيدة".

صب الاثنان بودليريتهما بإيقاع واحد؛ واقع يفوق الخيال عاشاه مع جمع مؤنث ساحر لحد الوله حتى انضجت التجربة مشاعرهما.

وفي ميدان آخر، يركل الاثنان مزيفي الدين بحذائيهما وعاشا في صدام عنيف مع الزيف. الجواهري الذي ألقى العمامة في الكناسة وزوربا الذي احرق الكنيسة وظل لآخر شهيق ضد القساوسة المتاجرين بضفائر مريم.. كان همهما ان يقودا عربة واحدة لينثرا الورد على النسوة اللائي فاضت بهما حباً. الاثنان يبتلعان شيخوختهما ويمضيان في طريق واحد حتى يستجيبان لنداء الارض .. لكنهما بقيا نابضين بالحياة في ذاكرة الملايين.

زوربا والجواهري كانا قادرين ان يموجا بالمشاعر اكثر .. اكثر من هذا.

مئوية إيريس مردوخ.. ماذا تعني لنا الآن؟

ترجمة/ أحمد فاضل

قام العديد من كاتبات وكتاب ملحق (التايمز) الأدبي البريطاني الصادر مؤخراً بالاحتفال بالذكرى المئوية الأولى لولادة الكاتبة الإنكليزية والفيلسوفة الشهيرة أيريس مردوخ التي تصدرت صورتها غلاف الملحق الرئيسي، بينما حفلت صفحاته الداخلية بملف واسع عنها اشترك العديد من الكاتبات والكُتاب بالكتابة عنها، فهي تعد من أهم الكتاب البريطانيين في القرن العشرين المنصرم ومن الكتاب الذين اتصفوا بغزارة الإنتاج إذ أصدرت ست وعشرين رواية وأربعة كتب عن الفلسفة وخمس مسرحيات وديوان شعر ومجموعة من المقالات القيمة ذلك قبل إصابتها بمرض الزهايمر في منتصف التسعينات.

كما حازت العديد من الجوائز الأدبية أهمها جائزة بوكر عن روايتها "البحر .. البحر"، وذلك في عام 1978، ولدت مردوخ في دبلن عاصمة أيرلندا في 15 يوليو عام 1919، وهي الابنة الوحيدة لأب انكليزي خدم في الحرب العالمية الأولى كفارس ثم عمل موظفا حكوميا، وأم أيرلندية تدربت على الغناء الأوبرالي قبل زواجها وقد ساهم حب الوالدين للفن والأدب في رعاية موهبة أيريس الأدبية منذ الطفولة حيث بدأت الكتابة حينما كانت في التاسعة من عمرها.

في مرحلة طفولتها انتقلت العائلة إلى لندن وتفوقت أيريس في دراستها للآداب الكلاسيكية، وانضمت إلى الحزب الشيوعي. كما عملت بعد تخرجها مع هيئة الأمم المتحدة في كل من مخيم اللاجئين في بلجيكا ثم النمسا ضمن برنامج إعادة التأهيل.

وحينما وجدت نفسها عاطلة عن العمل بعد ذلك قررت في عام 1947 دراسة الفلسفة في كامبردج بإشراف الفيلسوف الكبير لودفيغ ويتغنستاين، ومما لا شك فيه أن دراستها للفلسفة قد ساهمت في صقل موهبتها سواء كمفكرة أو روائية.

كتبت عنها الكاتبة ماري بيرد في الملحق تقول:

التقيت فقط أيريس مردوخ مرة واحدة، وشعرت بخيبة أمل لأنها بدت غير مهتمة جداً في حياتها، وفي الأعوام الأخيرة من مراهقتي فتحت عيني على عالم الكتابة الذي دلني على مردوخ التي أخذتها كشكل أنيق من واقعية اجتماعية كنت أفتقدها، وأحببت العالم الجديد الذي فتحته لي من خلال كتاباتها عن الرجال الذين عملوا "كتجار نبيذ"، ومعلمي مدارس مخطئين، وهواجس فكرية أخرى تناولتها بشكل مذهل، وعندما اكتشفت في وقت لاحق أنها كانت أيضا فيلسوفة كتبت عن أفلاطون حيث جعلت من كتابتها تلك تبدو أكثر إثارة بكثير مما كُتب، وكل ما أذكره عنها أنها كانت لها زيارة لمرة واحدة لجامعتنا التي كنت أحضرُ لنيل

الدراسات العليا فيها، تلك الزيارة كانت في منتصف التسعينات كضيفة حفلة على شرفها تساءلت وقتها:

"لماذا بدت غامضة تجلس بمفردها بعيدة عن المدعوين للحفل، فبعد سنوات قليلة عرفت أنها كانت مريضة بالزهايمر وشعرت بخيبة أمل أكثر في عدم إدراك ذلك وقتها".

أما الروائي وكاتب القصة القصيرة الأسكتلندي وليام بويد فقد كتب عنها يقول:

"في عام 1976 عندما كنت في الرابعة والعشرين قدمت قصة قصيرة إلى مسابقة تديرها مجلة "إيزيس" في جامعة أكسفورد، وقد كانت أيريس مردوخ أحد حكامها التي رشحتني للفوز بالجائزة الثانية ونشرها في مجلة الجامعة، وبصرف النظر عن نجاحي هذا فقد كان دافعاً لجعلي أبدأ قراءة أيريس مردوخ بعناية وأولي اهتمامي بحياتها، بدلاً من عملها لأننا نجهل الكثير عن مكابداتها مع أن أ . أن ويلسون في مذكراته الرائعة عنها حاول الكشف عن الكثير مما خفي عن حياتها، أو كتاب جون بايلي عنها وحالة الزهايمر الذي قضى عليها في النهاية، ومع ذلك فإن انشغالي في مردوخ الدائم هو تحليل أجريه لتقنيات الكتابة لديها وأجدني استدعي باستمرار مفهوم أيريس مردوخ كتفسير مثالي للحياة.

الكاتبة الإنكليزية كيت ماكلوغلين كتبت عن مردوخ تقول:

"في عام 2010 قرأت كل ماكتبته أيريس مردوخ من روايات بلغت 26 رواية من "تحت الشبكة" إلى "معضلة جاكسون"، كان من الممكن أن أفكر في كتابة مقال أكاديمي عن تلك الروايات، ولكن سرعان ما تولاني دافع قوي في أنها ستكون مغامرة غير محسوبة العواقب نظراً لصعوبتها جميعاً، لكنني هذا العام نشرت مقالاً أكاديمياً عن روايتها المتعبة "وردة غير رسمية" التي سمحت فيها لشخصياتها بالتجوال بحرية كاملة بين أماكن عديدة ومواقف متباينة في السلوكيات، لا أدري كيف غامرت وكتبت عنها. وقد أعود للكتابة عن الحرية التي كانت تضعها في المقام الأول لحياتها، والتي دافعت عنها في أغلب رواياتها عبر شخوص كانت تعاني فقدانها.

ملحق (التايمز) الأدبي احتوى أيضاً على قراءات نقدية عن مردوخ بأقلام الكاتبة الإنكليزية صوفي راتكليف، وبيكا روثفيلد، وغالين ستروسون، و أ. ن. ويلسون الكاتب الإنكليزي الذي اختتم الملف الخاص بقوله:

"في كلمة واحدة أستطيع أن ألخص ما تعنيه لنا أيريس مردوخ، أنها مرشدتنا".

عن/ الملحق الأدبي لصحيفة التايمز البريطانية

"ما وراء الفرات"
لمحات من تاريخ العراق الحديث

ناطق خلوصي

يكتسب كتاب "ما وراء الفرات" أهميته من كونه يوثق لمحات، ولا نقول صفحات، من تاريخ العراق الحديث. الكتاب من تأليف فرّيا ستارك على الغلاف الأول للكتاب صورتها بالزي العربي، وقد امتد عمرها إلى مئة عام بين عامي1893 و1993 وهو من ترجمة القاص والناقد والمترجم حمد علي حسين، وقد صدر في طبعته الأولى عن دار قناديل في بغداد عام 2019، وجاء في 438 صفحة من القطع الكبير.

يُستهل الكتاب بمقدمة المترجم التي يعمد فيها إلى التعريف بالمؤلفة فيقول "تُعد فريا مادلين ستارك واحدة من أشهر كاتبات الرحلات الأوربيات اللاتي قصدن الشرق العربي في الربع الأول من القرن الماضي. كانت سائحة وصحفية ومؤرخة شملت رحلاتها مناطق متعددة من الوطن العربي والشرق الأدنى، فضلاً عن العراق، وسجّلت في أثناء تلك الرحلات كل ما رأت من السكان: من تقاليدهم وأزيائهم وحرفهم ومهنهم ومن مناطق أثرية"، بمعنى أنها تمعنت على نحو دقيق في الواقع الاجتماعي لناس الأماكن التي حلّت فيها قبل أن تكتب كتابها. ويبدو واضحاً أنها أرادت أن تقتفي خطوات المس جيرترود بل، فعملت في المجالات التي كانت المس بل قد رادتها ووضعت نفسها في خدمة مصالح بلدها بريطانيا واتُهمت مثلها بالتجسس لمصلحة بلدها، كما حاولت أن تتشبه بها على مستوى حياتها الشخصية حتى أنها ظلت دون زواج زمناً طويلاً فلم تتزوج الا حين بلغت الرابعة والخمسين من عمرها،ولم يحقق ذلك الزواج نجاحا. غير أنها لم ترقَ فيما تحقق لها في المجال السياسي بشكل خاص الى المستوى الذي كان قد تحقق لـ "مس بل" التي كانت قد لعبت دوراً مهماً في تاريخ العراق السياسي الحديث لاسيما في تأسيس الدولة العراقية سنة.1920

تضيف المؤلفة إلى عنوان كتابها الرئيسي ما يفيد بأنه "سيرة ذاتية" وتحدد زمن أحداثه بخمس سنوات تمتد بين سنتي 1928 و1933، وهو يتوزع على سبعة فصول يحمل كل منها عنواناً يرتبط بأحداث الفترة الزمنية التي يتناولها الفصل، ويجمع بين اليوميات واسلوب توظيف الرسائل التي توجهت بها إلى أسماء عديدة هي على علاقة مباشرة بها وحظي أبواها، لا سيما أمها، بحصة كبيرة منها.

يحمل الفصل الأول من الكتاب عنوان "الرحلة الأولى 1928"، مما يوحي بأنه يندرج في باب أدب الرحلات ويجمع بالتالي بين السيرة الذاتية وأدب الرحلات .كانت

رحلتها الأولى قد بدأت وهي تضع أول خطوة لها على طريق تجربتها العملية معتمدة على دروس الحياة التي كانت قد تعلمتها من ابيها وأمها، يستحوذ المكان على اهتمام المؤلفة ويكشف هذا الاهتمام عن قدرتها العالية على الوصف: ”مشيت على امتداد الطريق فوجدت نفسي في فردوس حقيقي، ريف منبسط من العشب لذرة خضراء لامعة فيها جداول جارية تزينها ظلال الزيتون القديم وأزهار أشجار الفاكهة“ (ص 30) ..)

كانت المؤلفة قد زارت بيروت ودمشق والقاهرة والقدس بين المدن التي زارتها، وبدت مبهورة بريف دمشق وجبل الدروز بشكل خاص حيث أدهشتها الدبكات الشعبية والرقص بالسيوف وأزياء السكان. وتقول عن زيارتها، هي ومن معها، إلى احدى القرى ان نساء القرية رحبن بها وبمن معها بحفاوة وكن (يرتدين سراويل زرقاء وربطة رأس حمراء، فلكل قرية لون وطراز خاص بها آنذاك). وكانت قد زارت بغداد للمرة الأولى عام 1929 بدعوة من جعفر العسكري وهي تقدم صوراً عن بغداد أواخر عشرينات القرن العشرين وأوائل ثلاثينياته، وكانت قد سكنت مع عائلة اسكافي في

غرفة تطل على ضفة نهر دجلة، في غرفة واسعة ولم تترفع عن القيام بذلك رغم أنها تعرضت للنقد من أصحابها من الأجانب، تشير المؤلفة إلى أبرز الأماكن التي عاشت فيها أو مرت بها مثل العلوية (وهي ضاحية مريحة حيث تحيط بنا الحدائق الخضراء فبغداد واحدة من المدن العربية التي تحيط بها الحقول) وتشير أيضاً إلى الباب الشرقي (الذي كان ريفاً مفتوحاً وجميلاً في العام 1930 ثم أصبح ضاحية ذات جادات بأشجار وصفوف من المصابيح) كما تشير إلى محلة السنك حيث كان بيت الـ ''مس بل'' في شارع موحل، أما شارع النهر فقد أشارت إلى أنه كان مكاناً لمحلات الصاغة المندائيين المتفننين في صياغة الفضة. وفي رسالة إلى أمها تشير إلى زيارتها للمتحف العراقي وانبهارها بمجموعة آثار اور، كما تشير إلى الأسواق وأقواسها المقببة بالطابوق، وإلى (بغداد القديمة، بغداد ''ألف ليلة وليلة'' والشرفات المعلقة والمصبوغة والشوارع التي تنفتح وتضيق بطريقة مدهشة ومفاجئة).

لقد اسرفت ''فريا ستارك'' في ترحالها داخل العراق فاسرفت بالتالي في وصف المكان وطرز البناء وطبيعة الناس المختلفة باختلاف أماكن عيشهم، وكانت تنظر بعين الباحثة والسائحة والجاسوسة معاً تقول في احدى رسائلها (إني ذاهبة الآن لرؤية خارطتي التي أنجزها سلاح الجو الملكي R.A.F لترسل إلى مسح الأراضي في الهند) وهي خارطة تتضمن كل المرتفعات والخطوط الرسمية، ووفق ذلك كانت تنظر إلى ما يجري في البلاد من أحداث وصراعات طائفية وتعترف'':

لست مؤيدة للوطني بالتأكيد بمقدار ما أنا مؤيدة للامبريالي''. وتسجل ما كان يحدث فتصف وصول المبعوث البريطاني الجديد وقد صاحبته تسع طائرات. وأشارت إلى استقالة جعفر العسكري وانتحار رئيس الوزراء عبد المحسن السعدون ورسالته إلى ابنه وتمرد كردستان وغير ذلك، وهي تكتفي بالاشارت المبتسرة إلى الحدث ولا تعمد للتوسع فيه. لكنها تتوسع في الحديث عن خصوصياتها وعلاقاتها بالآخرين لاسيما القريبين منها جداً وبشكل خاص في رسائلها الكثيرة . لقد أفردت صفحات عديدة للحديث عن تجربتها الصحفية في جريدة ''الأوقات البغدادية''، لكنها تغافلت عن العديد من الأحداث السياسية والاجتماعية التي حدثت خلال فترة وجودها في بغداد، وبدت انتقائية في اختيار الأحداث التي توقفت عند بعضها ربما بشكل مقصود، مثل الحديث عن مواكب العزاء في عاشوراء والتقاليد والأعراف العشائرية وتشير بهذا الصدد إلى حادثة ابنة مسؤول كبير سابق ـ رئيس وزراء راحل ـ تزوجت من رجل من خارج عشيرتها ودون موافقة العشيرة فقُتل الزوج وفقاً للعرف العشائري على يد رجل طاعن في السن لم يهرب بعد قيامه بذلك.

يُحتسب للمترجم جهده الكبير في ترجمة كتاب بهذا الحجم وبهذا الكم من المعلومات والحافل بالأحداث الشخصية في الغالب وبأسماء أماكن وأشخاص غير معروفة تماماً. لقد أحسن اختيار هذا الكتاب الذي يجمع بين المتعة والفائدة، ليضاف إلى الكتب التي كان قد أصدرها في القصة والرواية والترجمة.

الشاعر اللبناني جودت فخر الدين : يرثي غزالة المعنى

حاوره: مقداد مسعود

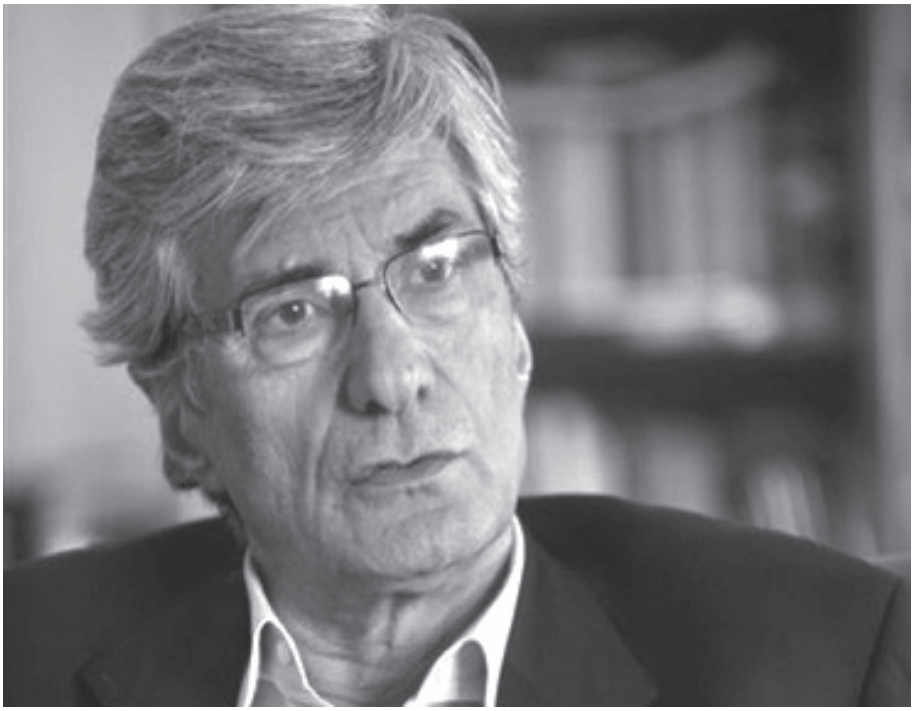

ما التقيتُ الشاعر الكبير جودت فخر الدين إلاّ الآن وفي مدينتي البصرة: التقيته شاعرا مشاركاً في مهرجان المربد الشعري – دورة الشاعر البصري حسين عبد اللطيف الذي عقد في البصرة مؤخراً عرفته منذ "للرؤية وقت" مجموعته الشعرية الصادرة عن دار الآداب في 1985 .

* مجموعتك الشعرية "حديقة الستين" استدعت لدي: (حديقة الصخور) للروائي كازانتزاكي و.. كذلك "الحديقة ذات الحدبات" لـ دينو بوزاتي .. "حديقة الستين" ادخلتني في فضاء لا يشبه فضاءي بوزاتي وكازانتزاكي؟

- "حديقة الستين" كتبتُها على مدى أربع سنوات تقريبا، هذه القصائد تعبير عن خلاصة التجارب التي عشتُها في الأدب والفكر... وغيرهما. وفيها أيضا إشارات إلى تلك الأهداف الغامضة التي أهفو إليها، أو أتبصّر في ظلالها.

* رحلة الشعر معك، لم تكن سهلة أشعرُك نحاتا مثل رودان وشاعرا مثل نيتشة، كيف استطعت أن تقطف الشمس والقمر وتهديهما لنا ثّم تكتفي بقماشة صوفي وجرة ماء؟

- نعم، أنا من القائلين بأن القصيدة ينبغي لها أن يكون لها نظام. ولكل قصيدة نظامها. لقد دأبتُ في كتاباتي الشعرية على محاولة ابتكارِ نظامٍ لكل قصيدةٍ أكتُبها. لقد اجتهدتُ في استعمالي اللغة، وفي استعمالي الأوزان والصُوَر. ربّما كانت لي اجتهاداتي المميزة. وكلُّ ذلك في سبيل النظام الذي ينبغي أن تحظى به القصيدة.

* مَن المتسبب في افتراس القصيدة الحداثية رعاية البترو دولار في البلدان ذات الاقتصاد الريعي؟ أم ازمة الفكر التقدمي؟

- تواجه الكتابة الشعرية العربية ما لا يُحصى من المصاعب. وفي طليعتها التدهور الثقافي المريع في مختلف المستويات. لا أدري ما السبيل إلى تحريك الثقافة السائدة، القائمة على قواعد تقليدية متخلفة، لا أدري ما السبيل إلى ذلك . وهل هي مهمة الفكر الذي هو الآخر في تراجعٍ وانحسار؟ مهما يكن، تبقى للشعر سُبُلُهُ الغامضة التي تنير لناآفاق المجهول .

* أين شعراء لبنان جودت فخر الدين، شوقي بزيع، عباس بيضون، حسن عبدالله، محمد علي شمس الدين، هل ثمة امتداد شعري لهذه الكوكبة؟

- الشعراء اللبنانيون، الذين أُطلق عليهم يوما ما (شعراء الجنوب) يشكلون حالةً مميّزة في المشهد الشعري العربي، وإن كانت هناك فروقاتٌ كبيرةٌ بين الواحد منهم والآخر. التسمية التي جمعت بينهم يوماً لا تشكل رابطة (فنية) لهم. وهذا أمرٌ إيجابي .فالاختلاف بينهم أفضل من التشابه. ولكن الشعراء كافة، أن يواصلوا البحث في الشعر عن الآفاق الجديدة والمعرفة المتجددة. أما عن امتدادهم.. فهنالك أصوات واعدة تحتاج إلى مزيد من التبلور.

* ما الذي تعنيه لك (حضرموت)؟ هل كان النهار (غائبا) أم (مغيّبا) في حضرموت؟

- لقد ذهبتُ إلى اليمن أكثر من عشر مرات. وكان لي في إحداها زيارةٌ إلى (حضر موت). وقد أحببتُ هذا البلد كثيرا. وكانت لي مجموعة شعرية بعنوان (أربع قصائد إلى اليمن) أصدرتها وزارة الثقافة اليمنية في العام 2004. وقد ظلت الصُوَر التي طبعت في ذهني من خلال زياراتي إلى اليمن تحضُر في كتاباتي الشعرية والنثرية. إذ هي تجربة خاصة لي مع اليمن، كان لها تأثيرها الكبير في وجداني وأشعاري . وحضرموت بالذات أعادتْ إليّ عبَقاً من سحْر الماضي. لقد مررتُ فيها بقرىً وأمكنةٍ ما زالت تحمل أسماء مثل : عندل، الدخول، حومل. كما رأيت أشجاراً قيل لنا إنها ''السمُرات'' التي تحدّث عنها امرؤ القيس في معلّقته. لقد كانت لي رحلةٌ مدهشةٌ إلى حضرموت، دفعتْني إلى كتابة قصيدتي ''لم أخاطبْ سوى الليل في حضرموت''.

* وأنت تتناول العالم شعريا، يؤكد مارتن هيدغر في (أصل العمل الفني) وكذلك في (إنشاد المنادى) وهو يشتغل على التجربة الشعرية للشاعر جورجي تراكل، أنه يسعى لتقديم كشوفاته عن جوهر الأشياء من خلال تفعيل اتصالية بين الجمال الفني وبين الحقيقة، ألا ترى أن التفلسف في هذا

الصدد يشبه بتشريح جسد غزالة سقطت للتو كطريدة أو أشبه بانتزاع أوراق الوردة لمعرفة أسرار عطرها؟ كقارىء أرى أن الفلاسفة يزجون أنفسهم في المكان الخطأ..

- لا بدّ من الفلسفة في الشعر.. نزعةٌ إلى تأويل العالم وأشيائه. وهذا الأمر في نظري هو جزءٌ من طبيعة الشعر. أمّا إذا تصدّت الفلسفة للشعر على سبيل التنظير أو التحليل، فهذا شأن آخر. في هذه الحالة يمكن للتنظير الفلسفي أن يسيء إلى طبيعة الشعر إذا حمّله من الأعباء والمهمات ما قد يخرج به قليلاً أو كثيراً عن طبيعته تلك. ينبغي لنا أن نميِّز بين الفلسفة في الشعر وبين التنظير الفلسفي للشعر.

* أريد نزهتي أن تكون فردية ومشروطة بحريتي أنا في تذوقي المتمهل للشعر وللحياةأشعر بأنك منحتني هكذا حرية .. و كيف استطعت غواية القارىء؟

- لكل شاعر لغته الشعرية المتميزة أو الخاصة. والقارئ إذْ يتفاعل مع شاعر معين إنما ينجذب إلى خصوصية لغته الشعرية. وإذا ما تسنّى لي جذبُ القارئ، فذلك ربما بسبب لغتي الشعرية التي تقوم على خصوصيات في التركيب والموسيقى والنبرة...

* اللغة الشعرية هل هي طريقتك في أن تتنفس هواءً حراً؟ أم اللغة هي طريقتك في الرؤية الشعرية، أم اللغة طريقتك في التفكير؟

- هي كلّ ما ذكرتَه في سؤالك. ''اللغة الشعرية'' هي المصطلح الأكثر تعبيراً عن خصوصية التجربة في كتابة الشعر. والقصيدة هي كيانٌ لغويٌّ في المقام الأول. لغة القصيدة هي مصدر الأفكار فيها، والرؤى، والمعاني.. وكلّ ما يتّصلُ بما يسميه الدارسون ''المضمون'' أو ''المحتوى''.

* تقول ''حصةُ النساء منيّ قليلةٌ جدا/ ربما لأني سعيتُ دائما/ إلى احتفاظي بنفسي/ حصتي من النساء كبيرةٌ جدا : زوجتي .. وحدَها ''.

سؤالي قد يبدو استفزازيا، فاحتمل مشاكستي المعرفية: هل اكتفيت بها لأنها كلك وصيرورتك الجديدة؟

- في هذا المقطع افصحت عن علاقتي بزوجتي، التي أراها فريدةً على نحْو ما. ومن جهة ثانية، أردتُ الإشارة إلى أن كلَّ علاقة بين حبيبيْن إنما هي مشروعٌ للتكامل. يرغبان في أن يصبحا واحداً، ولكنهما يبقيان اثنيْن. يتحدّان ويستقلان في الوقت نفسه !

* في ''قصيدة نثر .. ثانية'' هناك ثنائية : أقل / أكثر، ومن خلالها أنت مسكون بأنوار متعدد في الواحد، كما علمنا جيل دولوز..

- ''قصيدة نثر...ثانية'' هي القصيدة الأخيرة في مجموعتي ''حديقة الستين''. وهذه القصيدة عنوانها ''قصيدةٌ... أو أجمل''. وهاتان القصيدتان هما الوحيدتان بلا وزن في شعري كله. وهما لا تعبّران عن تغيير في خياري الذي هو الوزن. فأنا كنت ولا أزال أحب الوزن في الشعر وأجد فيه مصدر جمال وغنى له، خصوصاً إذا كانت لدى الشاعر القدرة على التفنن والتنويع والتجديد في استعماله. أقول هذا وأنا ليس عندي أيُّ تعصب للوزن أو ضدّه، بل أنا مع الحرية في الخيارات الشعرية على أنواعها... إزاء الوزن أو غيره من مقومات القصيدة. وأنا خياري هو الوزن في الشعر. وشعري كله

موزون باستثناء القصيدتيْن اللتيْن ذكرتُهما، واللتيْن كتبتُهما بمحض الصدفة. أما الثنائية فقد وردت أيضاً على نحْو تلقائي.

* في قصيدة "طيور الشعر" أرى سيرتين بقصيدة واحدة :

وجيز سيرة الشاعر وأعني بذلك تجربته مع الشعر، وجيز مرثية المكان والزمان العربيين، هل هي أعمارنا المهدورة والملأى خيبة؟

- نعم. هي أعمارنا المهدورة في زمن عربي مفعم بالخيبة. هذا مما أقوله في قصيدتي "طيور الشعر"، مع إشارات عديدة في القصيدة إلى أن الشعر يبقى لدينا مصدراً من مصادر الأمل، إنْ لم نقُلْ مصدراً وحيداً. الشعر في هذه القصيدة هو الأمل، وطيورُهُ التي تحوم حائرةً في ديارنا (الحائرة) هي التي وحدَها تحاول أن تفتح لنا أبواب الفضاء.

* في قصيدتك (هكذا سوف أمضي إلى هدفي..).. أفترض السؤال :هل الشاعر المتفرد بعزلته جودت فخر الدين : هادف ٌ أم هدف؟

- إنه واحدٌ من الأسئلة الكثيرة التي تطرحها هذه القصيدة، التي توحي في بدايتها وفي عنوانها بأن لي هدفاً أعرفه وأسعى إليه. ثم يظهر في سياق القصيدة أن الحيْرة هي السائدة، وأن هدفي هو أن لا يكون لي هدف ! في سياق القصيدة يتعاظم لديّ الشعور بأني، مستهدَف في كلّ شيء. عندها ينطلق السؤال كأنهصرخة: "ترى أأنا هادفٌ أم هدفْ ؟".

* مجموعتك "حديقة الستين" هل هي سيرة شعرية ؟

- في "حديقة الستين"، كما في غيرها عملتُ دائماً على تقديم صُوَرٍ من تجاربي الخاصة، أي من سيرتي الذاتية. ولكنها صُوَرٌ تنطوي على علاقات متحركة، أو بالأحرى على علاقات هي في سياق من التطور، بمعنى أنها لا تحتضن الماضي والحاضر إلا لتتجه بهما نحو المستقبل. هكذا مثلاً هي علاقتي بزوجتي وبأبي، وقريتي... وبكل الأمكنة والمراحل التي عرفتُها وصوّرتُها في قصائدي.

* في قصيدتك "داءٌ هو المعنى" تقترب من الهايكو، من خلال شفافية ندى الورد بتوقيت غبش الفجر!! واقترابك بكامل بصمتك الشعرية .. ما هو رأيك.. وهذا الأمر في قصيدتك "نباتات الشرفة"؟

- ربما تريد الإشارة إلى أسلوبي في التكثيف اللغوي القادر على إطلاق اللمعة الشعرية.

* في قصيدة "جلسة لأبي" ثمة تماهٍ مع الأب،والتراسل المرآوي بين الوالد والولد لايتوقف عن استنطاق المكان والزمان:

"لستُ أدري: أأنظرُ،أم هو ينظرُ؟/ ماذا نرى؟/ هل تغير شيءٌ هنا أو هنالك؟/ .. إلى أين كنت أروحُ وأتركهُ".

* نعم، هنالك ما يشبه تقمّص الشخصية، شخصية أبي. أنا أتكلّم بلسانه، وهو يتكلّم بلساني. هذا كلّه يظهر في عدة قصائد كتبتُها بعد وفاة أبي، ومنها القصيدة التي عنوانها "جلسة لأبي". وهذا ناتجٌ عن الأثر البعيد الذي تركه أبي في تكويني العاطفي والثقافي.

س: عتبك على السماء يبدو عميقا عمق السماء!! هل هي نزعةٌ كونفوشيوسية ؟ يقول كونفوشيوس:(أحمد الله أنني لستُ خالق هذا العالم. منظر هذا العالم يقززني)

لكن المنتصر في قصيدتك ”لم تدعْني السماءُ وشأني“انت.. فهل أنا أخطأت ؟

ج/ ”السماء“ في قصيدتي هذه تحتمل الكثير من الدلالات الرمزية،وتالياً تحتمل الكثير من التأويلات.مخاطبتي للسماء تشتمل علىالشغف والشعور بالسمُوّ من جهة، وعلىالعتاب والسخط والتبرّم منجهة ٍثانية. إنها السماء التي تغريك بالانعتاق من كل شيء، وهي نفسها التي تنغلق دونك، فلا تنكشف ولا تسيل. إن المواجهة مع السماء في هذه القصيدة هي مواجهة مع الحياة والطبيعة بكل تعقيداتهما وتجلياتهما. إنها مواجهةٌ تنزعُ إلى إطلاق السماء من جمودها، تنزع إلى تطويع السماء أو ترويضها. لعلها تصبح أكثرَ تفهُّماً ورحمة.

* الفنان التشكيلي العراقي محمود صبري حاول الاستفادة فنيا من المنجزات العلمية فاجترح ”نظرية الكم الواقعية“. وانت الحاصل على درجة ماجستير في الفيزياء هل حاولت الاستفادة شعرياً من علم الفيزياء؟

- دراستي العلمية، سبقت حصولي على الدكتوراه في الأدب، كان لها انعكاساتُها الإيجابية في شعري، بل وفي تكوّني الثقافي بوجهٍ عام. لقد جعلتْني أنظر إلى كلّ شيء بدقة، وأحرص على تنظيم أفكاري.من هنا حرْصي على أن يكون للقصيدة نظامها، وكذلك حرْصي على أن تكون القصيدة قادرة على النفاذ والكشْف.

س/ ماذا عنِ”غزالة المعنى“، وكيف غدتْ لفظا كسيحاً ؟

ج/ ”غزالة المعنى“ تعبيرٌ ورد في قصيدتي ”طيور الشعر“، وتكرّر فيها عدة مرّات.في هذا التعبير تشبيهٌ ضمنيٌّ للمعنى بالغزالة. والمعنى مطارَدٌ في الشعر كما هي الغزالة مطارَدةٌ دائماً. وأنا في قصيدتي تجاوزتُ هذا التشبيه إلى الشكوى من أننا فقدْنا المعنى في كلّ شيء. هكذا في عالمنا العربي كلّه... نعم، نحن في حاجة إلى ابتكار المعاني. ولطالما كان الشعر دربنا الأثير والأجمل إلى المعاني الجديدة والآفاق الجديدة. في قصيدتي ”طيور الشعر“ أردتُ لغزالة المعنى أن تنطلق من جديد، فلا تغدو لفظاً كسيحاً

عفيفة لعيبي :
لكي يبدع الفنان .. لا بد ان يكون حراً

عفيفة لعيبي

عشت وترعرعت في عائلة بصرية منفتحة على الثقافة والفن وبدأت امارس الرسم منذ الصغر كما هو حال إخوتي.

عائلتي كانت متفتحة قياسا للكثير من العوائل آنذاك وأنا شخصيا اعد نفسي محظوظة لكوني عشت حياتي فتاة بعيدة عن كل اشكال الضغوط والقيود التي كانت تكبل الكثير من زميلاتي سواء في المدرسة او في البيت.

كانت بدايتي الاولى عندما انتبهت الى ان النحت والرسم وأدواته موجودة بيد أخوتي الأكبر مني سنا وبالنتيجة وجدت

امامي كل شيء موجود ومتوفر ومضاف اليه دعم اخوتي وتشجيعهم لي وبالذات أخي فيصل الذي كنت استشيره في نتائج ما افعله من رسومات وأفكار حيث كان يقدم لي النصح ويطلعني على الكتب الفنية وينبهني الى ما فيها من جمال وقوة وهذا يعني اني منذ نعومة أظفاري تعرفت إلى الفن العالمي عن طريق الكتب والمجلات الفنية في المكتبة العائلية وبتشجيع من العائلة استطعت أن اطور قدراتي الفنية والثقافية وتطوير إمكانياتي الفنية من خلال القراءة والاطلاع وهذا ما يمكن أن يكتشفه من يتابع أعمالي الفنية ومدى التغيرات الحاصلة في عملي واسلوبي الشخصي وعلى مر السنين وفي مراحل دراستي المختلفة سواء في بغداد أو في موسكو أو ايطاليا وأخيرا هولندا.

بعد ان انهيت دراستي الابتدائية والمتوسطة في حي الجمهورية في البصرة عام 1969 قررت الالتحاق بمعهد الفنون الجميلة في بغداد وبتشجيع من أخي فيصل بالذات والذي صرف على كل فترات وجودي في بغداد لأكمل دراستي في بغداد حينذاك وفي الوقت نفسه عملت رسامة في جريدة ''طريق الشعب'' وصحافة الأطفال مثل مجلة ''مجلتي'' و''المزمار''.

عام 1975 غادرت العراق إلى الاتحاد السوفيتي للدراسة والتخصص في الفن الجداري في أكاديمية الفنون الجميلة '' سوريكوف'' في موسكو بعد ان حصلت على مقعد دراسي في موسكو وكانت فرصتي الذهبية لتطوير امكانياتي الحرفية وزيادة معلوماتي وتعميقها في مجال الفن الجداري الذي كنت مغرمه في قدراته الهائلة في التعبير وجمال تقنياته.

عام 1981 حصلت على دبلوم التخرج لكني لم أستطع العودة الى العراق بسبب تعقيد الوضع السياسي آنذاك فذهبت الى إيطاليا وعشت في روما ومن ثم في فلورانس واستطعت التعرف عن قرب على الأجواء الأصيلة التي أغنت الفن الروماني القديم والفن البيزنطي وفن عصر النهضة اللاحق.

عام 1984 اضطررت الى مغادرة إيطاليا والذهاب الى اليمن الجنوبي والعمل كمدرسة للرسم والألوان في معهد الفنون الجميلة في مدينة عدن وعلى الرغم من كل الظروف الصعبة التي واجهتني بسبب تنقلي من مكان إلى آخر ومن بلد إلى آخر والتعايش مع ثقافات مختلفة ولغات مختلفة والتي هي بالضرورة قد زادت من خبرتي وأغنت تجربتي كإنسانة وفنانة في الوقت نفسه.

وخلال السنوات التي عشتها لأكثر من أربعين عاما خارج العراق لم انقطع عن الرسم او عن المساهمة في كل النشاطات الفنية التي كان يقيمها الفنانون العراقيون في المنفى وهي كثيره ومتنوعة وكانت لي مساهمات متواصلة في الكثير من النشاطات الثقافية، دعما للحركة الديمقراطية العراقية والعالمية وضد الإرهاب والحرب والعنصرية والدكتاتورية وساهمت في الكثير من المعارض الفنية في بغداد وفي موسكو وفي اليمن وايطاليا وسورية ولبنان

وانكلترا وأمريكا لعكس الوجه الحضاري للثقافة والفن العراقي.

حاليا أعيش واعمل في هولندا ومتفرغة للعمل الفني وقد أقمت مجموعة من المعارض الشخصية والمشتركة فيها ومن أبرزها معرضي الشخصي الشامل في متحف ''ايكاترينا خاست موزيم'' في مدينة خاودا.

وقد عملت لفترة أكثر من أربعة عشر عاما وبشكل دوري وثابت معارضي الشخصية على قاعة الغاليري المعروف ''دة تفيي باون'' في مدينة دانهاخ ولدي مساهمات دورية في معارض أخرى وقاعات اخرى مثل تيالف غاليري وغاليري كودا في أمستردام وغاليري ''بريما فيستة'' في ماسترخت. كذلك وجدت اعمالي صدى طيبا في دول الخليج وقد اقمت ثلاثة معارض شخصية ومعرضا مشتركا وعائليا في غاليري بوشهري في دولة الكويت. في الثالث من شهر نوفمبر/ تشرين الثاني، ستكون لي مساهمة في واحد من اهم المتاحف في أمريكا وهو متحف الفن الحديث في نيويورك مع مجموعة من الفنانين والذين ينتمون الى بلدان مختلفة وموضوع المعرض هو مسرح حرب الخليج وواحدة من لوحاتي هي البوستر الرسمي لهذا المعرض ذي الأبعاد السياسية الهامة والمرتبطة بالوضع الحالي في العراق ومنطقة الشرق الأوسط.

في بغداد كنت مغرمة بأعمال الفنان الفرنسي لوتريك وألوانه وكذلك خطوط ورقة الفنان ألإيطالي بوتيشللي. أما في موسكو فقد كان لروحية فن الأيقونات الروسية تأثير كبير على أعمالي الفنية في مرحلة دراستي الأولى كذلك زاد من معارفي اطلاعي على المدرسة الفنية الروسية الغنية والمتنوعة بالمواهب الفريدة.

أما إيطاليا فقد عمقت من معارفي بالفن الإيطالي وخاصة مرحلة عصر النهضة من خلال زياراتي المستمرة للمعارض والمتاحف الإيطالية والكنائس.

اما هولندا فهي من البلدان التي لعبت دوراً مهماً ومتميزاً في تاريخ الفن الأوروبي عموما وفي القرون الوسطى وفيما بعد عصر النهضة ويستطيع المتابع ان يرى تأثيرات بعض فناني الأراضي المنخفضة على بعض الأسماء المهمة في تاريخ فن النهضة الإيطالية في القرن الخامس عشر والسادس عشر. وفي الفترات التي تبعت ذلك مثل المدرسة الرمزية والانطباعية وحتى الان تعد هولندا من أبرز البلدان في المدرسة الطليعية الأكثر انفتاحا على ثقافات الشعوب الأخرى ولأن هولندا بلد ديموقراطي يمنح المساحات الضرورية للتطوير والتطور وإذا كان صاحب المشروع قادرا على فهم واستيعاب هذه الحرية من اجل اغناء افكاره وتقديمها للمتلقي كحقيقة ملموسة فسيجد الكثير من النوافذ والأبواب التي ترحب فيه كمبدع وكثروة ثقافية وقيمة اجتماعية متميزة. فالفن والفنان به حاجة الى مساحة من الحرية الذاتية والموضوعية ليتطور.

إن ذائقة الفنان تعني كل حياته الإبداعية

والانفتاح على الآخر هو اختراق الزمن والبيئة التي تحيط بالفنان، إذن هو يتأثر ويؤثر لأنه كائن مبدع وحي.

اعتقد واؤمن بأن الفن عموما والفن التشكيلي كفرع مهم من هذه الفنون الإنسانية وهو واحد من وسائل التواصل في الوقت نفسه. فكل ما هو انساني في الفن او في اي نتاج بشري هو البوتقة التي يتجمع فيه كل ابداع البشرية فالفن كوسيلة تعبير ذات خصوصية تتنوع وتختلف حسب الظروف والبيئة التي نشأ فيها الفنان لكنه يبقى عاما وملكا لكل من يستطيع فهمه واستيعابه وبقدر اقتراب هذا النوع او ذلك من الفنون شرقيا كان ام غربيا من الحياة وتفاصيلها كلما زادت قيمته وأصبح فنا خاصا وعالميا في الوقت نفسه. فاحترام الحياة والإنسانية والابتعاد عن السطحية كلها ملتقيات تجمع الفن وتجعله يصب في حوض الفن العالمي الحقيقي وتجعل منه فنا عالميا. انا شخصيا منذ أكثر من خمسة واربعين عاما أعيش واعمل خارج وطني الأم ـ العراق، متنقلة في أكثر من مكان اعترف بأني انتمي لكل بلد أقيم فيه أو عايشت أهله وأعد نفسي وباختصار منتمية إلى الإنسانية ككل وهذا هو الاعتقاد الذي يجب أن يوحد البشر.

الفنان بطبيعته إيجابيا دائما أمام المتغيرات الحياتية وهو في الوقت نفسه يملك رصيده الشخصي من المعلومات والتجارب المرتبطة بالواقع الذي عاشه سابقا او الذي يحيط به الآن. اذن هو متجاوب وقادر على اعادة النظر بالأمور بعيداً عن التعصب، لأنه يدرك ان التعصب هو الضربة القاضية لأي قدرة على التطور، والتشنج هو الحد الفاصل الذي يجعل الفنان او الانسان عموما يدخل نفسه في قفص ضيق الأفق وبالتالي الموت.

افونسو كروش: تشريح الفن
الكتب تنضجنا حسياً وتشكلنا فكرياً

إسلام عادل

يشيد افونسو كروش في نصوصه، نظريته الفنيّة التي تستهدف نضجنا كأفراد من خلال الفن. يعتمد الفن في أدب كروش على اختراق المقاييس الصارمة التي تحدّ من إفلات الرغبة بالإبداع. كفنان عميق التبصر في الفن، نسج رؤيته للفن بممارسته وتقديمه كمحتوى لإنتاجه الأدبي. فهو فوتوغرافي ورسام ونحات ومخرج وشاعر وكاتب روائي. هذا المقال يبحر في أدب كروش وما تضمنه من آثار فنية أسست له ممارساته الإبداعية الأخرى.

1. الغوص في الفن

في "الكتب التي التهمت والدي"، لا يقدم كروش تشريحا للفن وإنما يرتكز على طبيعة الفن في التدوير وإعادة إنتاج المشهد السردي وصعوبة انتهاء التجربة الفنية. فالقدرة على الغوص في الفن هي أحدى مميزاته ويزداد الغوص فيه خطورة كلما أرتقت التجربة الفنية المقدمة. يوضح كروش طبقيّة النص الأدبي والقفز فيه من السطح الى اللغة الاعمق حيث يرقد المعنى. وعلى السطح تتراكم الكلمات. أما في طبقة المعنى، فتتشكل الأفكار، وانتقال القارئ في التجربة الفنية حيث يكون الغوص في اللغة بحثا عن الرمز. فالقراءة الرمزية هي الرؤية الأبعد التي تحاول اصطياد الفكرة التي انبثقت منها الرغبة في خلق النص الأدبي.

وعندما يصبح إلياس فيفالدو في الثانية عشرة، يبدأ رحلة البحث عن والده في بطون الروايات الكلاسيكية التي ابتلعته قبل سنوات وفي يوم عمل مضجر، يلتقي فيفالدو بالشخصيات الروائية التي رافقت والده والتي شكلته عاطفيا بدءا من "جزيرة الدكتور مورو" وصولا إلى لقائه براسكولنيكوف، بطل ديستويفسكي المضطرب. ولكي نبرئ الكتب من تهمة الالتهام، غاص فيفالدو بنفسه في الكتب رغبة في الانتقال إلى العوالم المتوازية التي تمثلها. يقول كروش عن الولوج إلى الرواية: "يمكن أن نلج داخل كتاب... إنها عملية في غاية السهولة، كإطلالة من الشرفة، إلا إنها أقل خطورة ذلك أن الأمر يتعلق بسقوط من أعلى عدّة طوابق".

يتطلب الغوص في الفن رغبّة الانتقال بين الطبقات، والقدرة على ذلك. هذه الرغبة هي ما تنتهي بكروش إلى التأكيد على إن الحكايات تشكلنا، يقول: "إننا نتشكل من

افونسو كروش

الحكايات وليس من الجينات ورموزها''. لا يكتفي البطل بوصف تجربة الغوص في الفن بل يتابع الشخصيات إلى ما بعد النهاية، فراسكولنيكوف مثلا، صار قاتلا مدمنا يحاول التخلص من عبء الجريمة بارتكاب جرائم أخر علّها تخفف من ثقل الذنب الأول. مفعول العقاب بات ضعيفا وقد تفاقم الإحساس بالذنب فقرر أن يسلك الدرب الموحش الذي قادته إليه رغبته النبيلة في تطهير العالم من السيئين بتفعيل الشر. الفن في هذه الرواية تجربة راسخة وحقيقية بل لا تقلّ واقعية عن ضوابط العالم باختلاف أن عوالم بطون الكتب تنضجنا حسيا وتشكلنا فكريا.

2. الفن هيكل العالم والخيال مادته

نقفز في رواية ''هيّا نشتر شاعرا'' إلى عالم ديستوبي حيث تستبدل الأحاسيس بالعمليات الحسابية وتنحسر القيمة الجمالية للأشياء لتطغى القيمة الوظيفية والنقدية. يشابه هذا العالم الديستوبي عالمنا مع مبالغات فنية دقيقة ترسم عالما ممكن الحدوث. من وجبات الطعام وقيمتها الغذائية الى العلاقات العائلية والإنسانية، القيمة الربحية هي السائدة. ولكي يخفف الناس من رتابة هذا العالم يقومون بشراء فنانيين وشعراء كي يلقوا ضوءا على وضيفة أخرى للأشياء وللعلاقة بين الإنسان والأشياء تكون مثارا

للدهشة. إحدى شخصيات الرواية الرئيسية تقرر شراء شاعر، وهكذا حدث. يجهّز للشاعر مكانه الخاص حيث يعيد ترتيب العالم لهذه العائلة وسيبرهن الشاعر انهم لن يتخلوا عنه في منتصف الطريق وعلى أن الجمال قادر، رغم قلة تقديرهم له، على حلّ أصعب مشكلات الحياة التي لا يمكن للمعرفة التراكمية أو الخبرة العملية أن تحلها. تنفتح النافذة في قصيدة لتطل على إحساس جديد.

يقوم العالم، الذي يباع فيه الشعراء، على قوة الدعاية وتجميع الأشياء. الشعراء، المستغربون والمحتقرون، يتميّزون بقدرتهم على الاستمتاع بورقة وقلم ويفتقرون الى القدرة على القيام بالعمليات الحسابية وهذا ما يجعلهم كائنات هامشية لا تتفهم متطلبات الحياة. وكنتيجة لميلهم هذا، يعنفون حتى من قبل الأطفال. وما أن تصل العائلة التي اشترت ذلك الشاعر إلى الانهيار المالي، حتى بانت قيمة نظمه الشعرية واستعاراته المجازية. بدأ الجمال يغيّر من رؤية الفتاة التي اشترته، تقول: ”بدأت أكتب أبياتا على الجدار. كتبت مشهد الحديقة وكتبت كلمة اقحوان في ذيل قلم الرصاص، نعم فهو يحتاج إلى أن يزهر“. تركت الأم زوجها بعد إن صارت لها أفكارها الخاصة. الشعر ذاته ينقذ الأب من ضائقة مالية بعد أن طبق على عمله مقولة ”القبلة هي الأنجع لحرارة الجسم“.

هذا التبدل في رؤية الشخصيات هو انعكاس لما يؤمن به كروش بأن الخيال ليس ترفيها وإنما خطة بديلة لحياة أخرى. فرسم الشاعر هنا ملامح عالم آخر من خلال رؤية الأشياء بطريقة مختلفة. يقول كروش: ”الخيال ليس هروبا من القبح، ومن الرعب، ومن المظالم الاجتماعية، وإنما، هو بالضبط تصميم لبناء بديل“. يقدم كروش الفن على إنه وسيلة لاستبدال الأنماط الرتيبة التي تغلف العالم. فالقيمة الجمالية للأشياء ليست ثانوية وإنما صميمية لتفريغنا من الملل.

3. تشذيب الطريق الى الفن

تأخذ حياة جوزيف سورس في ”الرسام تحت المجلى“ بالانحدار كلما أرتفع بنظريته الفنية التي تقوم على أساس تقليم الأغصان ومقاومة التفرع. ولد سورس، ابن كبير الخدم، في عائلة عقيد حيث يتلقى تثقيفه. كان طريقه في الفن قاحلا فقد بكت أمه لميوله الفنية الحزينة وقام والده الذي لا يفهم التعبيرات المجازية بقتل دوفيف روزنكرانتز صديق العقيد ليحكم عليه بالموت. طوّر سورس أطروحته الفلسفية الخاصة بالفن: على الفنان، الذي هو كالشجرة، أن يرتفع عموديا ليصل إلى أنقى نقطة يمكن أن يصلها إبداعه الفني. ولكي يصل لهذه النقطة السامية، عليه أن يقوم بالتقليم والتشذيب لكل ما يشتت موهبته الفنية ويمنعه من الارتقاء بها. التفرع هو مشكلة الفن، فعليه لكي يسمو بفنه إن يقلّم رغباته حتى لا تبقى له سوى رغبته الأولى: الإنجاز الفني. قام سورس بالتخلي عن العادات التي يتبعها الآخرون، تخلص من حاجات الجسد المادية أقصى ما يستطيع كما إنه قام بإكتساب ما يدفعه إلى الأعلى

مثل حبيبته فرانتيشكا التي كانت رمزا يعينه على الارتقاء، ففرانتيشكا جزء من مشروعه الفني.

إعدام والده وجنون أمه وتجنيده في الحرب العالمية الأولى.. كلها تفرعات فرضت نفسها على نظريته الفنية. هذا التدهور في حياة سورس تجاذب مع صعوده العمودي في الفن. لسورس كتاب "الأعين المغمضة وآخر لـ الأعين المفتوحة" وثالث خاص بـ (فرانتيشكا)، إلا أن سورس وصل أدنى نقطة انحدار حين تزوجت فرانتيشكا بابن العقيد فقام سورس بقضم أذنه! ومما زاده تفرعا انحسار الضوء في عينيه حتى صار لا يرى سوى ظلال الأشياء المتراكمة كأنها معاطف. غزارة التفرع وتشتت التزاماته الفنية دفع سورس إلى التشذيب بأقصى ما يمكن. تخلى عن والدته في مستشفى الأمراض العقلية، تخلص من فرانتيشكا الرمز ولم يعد يفكر بها ليتلقى دعوة من جندي صديق أسمه سوسيك ليرحل إلى أمريكا حيث يتخلص من آخر زوايا تفرعه. حياة سورس تقوم على التجاذب بين التفرع الذي يمثل هنا كل ما تلقيه الحياة على فنه وبين نظريته التصاعدية التي يعتمد نجاحها على التخلص من زبد الحياة. ومن التحديات التي تعترض نظرية سورس هي نظرية أخرى لصديق هجر الفن لدباغة الجلود أسمه أوريل فافرا الذي لا يؤمن بالنقطة الأعلى الأنقى وإنما بانبثاق الفن من تفرع الحياة. يقول فافرا: "ليس الفن أشياء معلقة على الجدار، الفن غضب، واظافر حادة. حين يستيقظ كل من التراب والنفايات وينظران إلى نفسيهما، يكون الفن". يرى سورس أن الفن هو "رؤية الأشياء من الداخل. اختراق الجدران واظهار المخبأ وغير المرئي". تمحورت الرواية حول التخلص من التفرع والتفرغ للفن الذي تناقض مع الحياة، طبيعة الحياة التي تفرقع المعرقلات وتغذي التشتت، فهل نجحت نظرية سورس أم صارت عمودا خاليا من الثمار كما حذره فافرا؟

رسم سورس الظلال المتراكمة بعينين ضعيفتين. لقد حقق سورس نظريته العمودية بإرادته وليس لخلو الحياة من التفرع. فكان التفرع الذي يفرض نفسه على الفن هامشيا وهذا ما يفسر مواصلته للإبداع تحت مجلى السيد والسيدة كوستا. كان سورس يدور حول تفرعه وهذا ما يثبته بحثه في نهاية الرواية عن الأغصان التي قطعها من شجرته الفنية. أخذ سورس بالبحث عن أمه وقرأ رسائل العقيد ورسم السيدة روزا كوستا التي يقيم معها. لقد حجزته دوائر الحياة التي يمقت أن يضمنها بنظريته الفنية. تجاذب هذه الرواية التفرع رغم نموها عمودا مثمرا بالعيون المفتوحة والمغمضة.

غرابة الاستقرار النغمي في الأغنية العراقية "وعد مني وعد" مثالاً

تحسين عباس

غناء: رحمة رياض أحمد/ كلمات : رامي العبودي/ ألحان: علي صابر/ توزيع: محب الراوي انتاج 2018 .

لاحظت في الآونة الأخيرة ظهور أساليب جديدة في تنغيم الأغنية العراقية من حيث اختيار درجة الاستقرار الغريبة والأسلوب المغاير لما كانت عليه، فقد كنت مبتعداً عن الاغاني الحديثة لأسباب كثيرة: منها علمي بعدم خضوعها للمراجعة الفنية، وكذلك حريّة كلماتها التي احياناً ما تخدش الحياء بطريقة ماكرة، وتحت شعار "صفّي النية"، وكأنَّ الكاتب عجز عن الاتيان بالمفردة المدهشة فراح يبحث عن تأمين احتياج الجمهور المراهق لتأسيس قاعدة شعبية ومن ثمَّ الانتشار الذي بدورهِ يوفّر المال.. لكن، وبالضدِّ من هذا التيّار ظهرت الأغاني التي تحمل مسحة العاطفة المهذّبة المتكلمة عن الوجدان بأسلوب يمزج ما بين الواقع والخيال من حيث الكلمات والتنغيم وهذا ما تجلى في أغنية "وعد مني وعد" لرحمة رياض أحمد و"أوف منه گلبي" لـ أصيل هميم، فالأغنيتان تتشابهان بعدة أمور منها :اختيار النغم وهو البيات، اختيار الدرجة النصف وهي الـ (دو#- صول#)، تبدآن بفالت موسيقي وغنائي وتنتهيان بفالت موسيقي، تتحدثان بلسان حال المرأة في المجتمع العربي ومعاناتها أو مشاعرها نحو الرجل، وهذه النقطة لها الأثر في أن تحصد هذا الكم الهائل من المشاهدة والاستماع لأنّ الرجل العربي كثيراً ما يتلهفُ لسماع بوح المرأة لكونها تعيشُ حالة من الكتمان الجبري بسبب احاطتها بالأعراف الاجتماعية التي تعد البوحَ عيباً وعورة، كما وتختلفُ الأغنيتان بكون الأخيرة استخدمت الـ ديوتو مع صوت شاعر.

وقد اخترتُ هنا أغنية (وعد مني وعد) لـ رحمة رياض أحمد بوصفها الأكثر مشاهدة في اليوتيوب فقد بلغت 105,645,352 مليون مشاهدة كما بلغت "أوف منه گلبي" لـ أصيل هميم 52,818,404 مليون مشاهدة.

فكرة العمل:

عند سماعي لأغنية (وعد مني وعد) دعتني الى الاستماع لها منذ اللحظات الأولى فكأني أستمع الى شيء غريب ولما حللت النغم وجدته من مقام البيات، فتساءلت اين الغرابة في ذلك حتى انتبهت أن الأغنية بُنيت من درجة غير محتملة في الموسيقى الشرقية وهي درجة الـ (دو#) عكس ما هو

مُشاع في الموسيقى الغربية، ولما استمعت الى عدة أغانٍ للمطربة نفسها وجدتها لا تعتمد على درجة استقرار واحدة فقد غنت على الـ (سي، دو، ري) ولحنجرتها مساحة جيدة من السلم الموسيقي، وهذا ما دعاني الى أن أقول : انّ اختيار هذه الدرجة هو لاستفزاز عُرف التلقي وجذبهِ الى ساحة المنغِّم حيث أن أغلب الأغاني تُبنى على درجات السلم الطبيعية الخالية من زيادة نصف البعد ونقصانه، فبهذه الطريقة تمرّد على المألوف من حيث اختيار درجة الاستقرار للموسيقى المقامية كما أنّ هذه الدرجة (دو#) ستبرز امكانية الحنجرة ومدى سيطرتها واحاطتها بالسلم لكونها على غير ما اعْتادتْ عليه الذاكرة الغنائية . أما عن كلمات الأغنية فكانت تتراوح ما بين الندم والحزن الشفيف ومن ثَـمَّ الثبات ومواصلة الحياة وقد طوّع المُنغّمُ فحوى نغمِ البيات لمعنى النص الغنائي الذي كُتبَ هو الآخر بطريقة غير معهودة سابقاً (شطران متشابهان في قافية الصدر والعجز):

{اريد الله يسامحني لأن اذيت نفسي اهواي = طيبة گلبي أذتني تعبتچ يروحي وياي} ثمَّ تتلوها أربعة أشطرٍ على الطريقة نفسها:

{انا بحظي غلطان لعبت بحالي لعبه
چنت بالناس وهمان مشيت بنيه طيبه
صاحبت الوفي وخان غدر بيه الأحبه
شلون تعلي بُنيان ويروح للناس غربه}

وهكذا ليختم بقافية مُوحّدة بصدرها وعجزها مختلفة عما سبقها: {وعد مني وعد بعد ما اثق ابد = ولا انطي مجال كلشي وله حد} . ولنا هنا الْتفاتة في استخدام نغم البيات الذي عادة ما يكونُ مفرحاً مع ايقاع الهيوه الراقص، فقد يتبادر للمتلقي المثقف ذوقياً أو المختص موسيقياً سؤال مفادُهُ: كيف يتوافق النغم المفرح مع كلمات في الندم والحزن والتوجع الخفي ؟! وهنا أقول: أن تنغيم الأغنية أخِذَ من خلاصة المعنى الذي انتهى بالثبات في خاتمة المقاطع {وعد مني وعد بعد ما اثق ابد = ولا انطي مجال كلشي وله حد} فهذه الكلمات هي بمثابة صحوة بعد انتكاسة عاطفية وهذه الصحوة تحمل في طيّاتها السعادة.

التنغيم:

ابتدأت الأغنية بجملة فالت موسيقي ومن ثمَّ فالت غنائي في {اريد الله يسامحني لأن اذيت نفسي اهواي = طيبة گلبي أذتني تعبتچ يروحي وياي} من الدرجة السادسة وحتى الثامنة وبعد ذلك تدخل الأغنية بإيقاع الهيوه أو ما يسمى بـ الدارج الخليجي 6/8 ؛ وتستمر الأغنية في التنقل بين درجات نغم البيات لتأخذ كامل الدرجات السبعة والثامنة من درجة العودة الخاتمة، ولم تكن هناك أيّ إنتقالة الى نغم آخر وهذه رؤية المُنغّم، فالنص لا يحتاج الى تنويع في المقامات.

الأداء:

بعد أن عرفنا غرابة درجة الاستقرار ومدى خروجها عن المألوف السائد يقيناً سيكون أداء التنغيم على غير المعتاد، فقد أجادت الفنانة رحمة رياض بصوتها الذي لا نبالغ اذا صنّفناه من الأصوات الملكوتية،

فعاشتْ لحظة الندم والحزن ومن ثم الثبات في سماء النغم والمعنى بحيث أنّها كانت خير ممثل للمرأة العربية والشرقية بشكل عام، وخاصة في المقطع الثاني كأنّ احساسها ذابَ في حزنها الساخر من الواقع .

{اريد اعتب على حظي وي الناس ما گاعد

خل الي وفى وياي تقريباً ولا واحد
آنه اهوايه ممنون من العاشرتهم
علموني البچي اشلون البروحي شلتهم
بسيطه سهله وتهون هم يفتر وكتهم
علي بظهري يحچون الدنيه غيرتهم
****
وعد مني وعد بعد ما اثق ابد
ولا انطي مجال كلشي وله حد}

التوزيع :

كان اختيار التشيلو مع البيانو في الفالت الموسيقي موفقاً فقد أجاد استدراج الانتباه لما هو ممكن ان تحملهُ طيّاتُ الأغنية ويأتي الفالت الغنائي ثم دخول ايقاع الهيوه ناجحاً لإحداث عنصر المفاجأة في تلقي السامع وكذلك عندما يرجع التشيلو في موسيقى المقطع الثاني ومن ثم الغناء وترجمتهِ الخافتة في أصوات الكمانات والناي.

قد أبدع الموزّع في تصور أصوات الآلات وتنفيذها ولم يغريه التنوّع غير المُبرّر في تعدد الآلات.

ملحمة أنكيدو

عمر السراي

– ومَن سيسحبُ عنكَ حنجرةً ركست في طينِ الأغاني الأولى ..؟

حيثُ البوادي .. ذرَّتا رملٍ في عقلِ إلهٍ مغمور ..

والأنهارُ تخطيطاتُ رسّامٍ مبتدئ ..

– ذنبٌ من أن تكونَ نائباً للقدرِ الذي أبصرت الصدفةُ في جلجامش أقصى حذافيرها ..؟

أما أنتَ .. فصرخةٌ دوّت في عقلِ أبٍ أعلى ..

حينَ كلُّ الكفوف تستغيثُ .. ولا تواجهُ ..

وحين تهديكَ الفلسفةُ الطفلةُ شَعراً من سنابلَ وأسماك ..

لتبقى وحدكَ ..

تجوبُ فيكَ المدنُ المستقبليةُ ..

مطراً .. سائلاً على مصباحٍ عتيق ..

وتكللكَ الغماماتُ ريشاً من سطوةِ الورد ..

تتثاءبُ حقولاً تتقافزُ بين ساقيكَ كلَّما مرَّغتَ وجهكَ في ثدي غزالة ..

فأيةُ معضلةٍ تلكَ التي وضعتكَ قطرةً أخيرةً في قنينة صاحبةِ الحانة ..؟!

حيثُ الخبزُ أوّلُ قطرةِ ضوءٍ تفسدُ الغابةَ عنكَ ..

ورائحةُ حوَّاء ..

دخانٌ يطردُ عنكَ صغارَ الفهود التي نعمت بالسباق معكَ ..

صديقي أنتَ ..

لا صديقهم ..

فقد تآمروا عليكَ يومَ اختاروكَ سوطاً ..

لترويض نارهم ..

لتكبيلِ شهوتهم الممتدةِ في أعضاءِ جلجامش كلِّ زفافٍ لصبيةٍ مسمارية الملامح ..

تآمرواعليكَ ..

حين َعجنوك َبالصداقةِ الوفيةِ ..
تآمرواعليك َ..
حين غرزوا صدرك َبرجولةٍ كثّةِ الأرق ..
وتآمروا عليك َ..
لتخسر َأمامه ُفارساً تحت َحافرِ ثور ..
لتبقى مِجَنّاً يقطع ُبه جذع َالأرز مسوِّرا جبن
َمن خلقوه ..
فيا صديقي ..
ولست َصديقهم ..
هل كنت َتعلم ُأنكرة ً من رأسك َ أسود َ..
سيدحرجونها في وديانٍ من ضباب ..؟!
وأنك سترضى ..
– رغم َأنك َأفضل ُ– ..
بأن تكون َثانياً ..
ثانياً مِنْ عزمك َأمامه ..
– هل كنت َتعلم ُأن (إينانا) التي زيّنت
مفاتنها بسوارٍ من عالمٍ سفليٍّ ..
وعطرٍ منربيع ..
ستأتيك َمكرِّزة ً وفاءك َفيليلةٍ حمراء َ
معصديقك َ..؟
وأن الجثث َالتي هددتك َبها ..
لم تك ُإلا درابك َتزف ُجحيم َرغبتها
لفِراشه الشائك ..؟!

وهل كنت َتعلم ُ..
بأنك َخلّفت َفي رحمِ شجرةٍ عجيبةٍ ..
سالت عليك َساعة َنومتك َالأولى ..
طفلا من تواضع سعفة ..؟
وأنك َستدور ُمع عجلاتِ السنين ..
نافذة ً يُطعم ُالمطر ُعينها قطرتين ..
ونايا ً يعلك ُآخر َثقوبه ..
ليظل ّاللحن ُأليفا ً على اتّقاده ..
وسكناً تجمع ُالرياح َالخمس َفي صندوق
لِم َ.. لَم تنتفض ..؟!
فدورك َكان َبطولة ً سرقها منك َ(الذي
رأى كل ّشيء) ..
بالرشى .. والوساطات ..
بآبائه الذين قذفوا أنطافهم السماوية َفي رحم
الأرض ..
ليكون َثلثين مثلهم .. وثلثاً مثلك ..
لِم َ.. لَم تعترض ..؟!
وأنت َكآدم َمخلوق ٌمن أهواء ٍوتراب ٍ
وريح ..
تقلِّد ُالأنواط َلصدورٍ نامت عند َمصب ّ
النهر ..
لتمنح َالثعبان َحياة ً أخرى ..

وتمشي خلف َرئيس ٍ مثقوب ٍ ظلم َناسه
فأحبُّوه ..
وظلمكَ .. فأحبُّوه ..
وظلمكَ .. فأحببتَهُ ..
فيا صديقي .. ولستَ صديقهم ..
كنت َتعلم ُأن خلودك َلن يتم َّإلا بأن
يموت ..
لكنَّك كتبت َاسمك َثانية ً في قائمة
الممثلين ..
وتعلم ُأن الجوائز َلن يحصدها إلا خير ُ
كاذب ٍ لم تكنهُ ..
وأن المرايا التي زرعها (أوتو نبشتم) في
قلب حفيده ..
ستثمر ُشظايا في عينيك التي كبرت لتكون
َعين َماء ..

ورغمكَ .. متَّ ..
ليجوبَ (دلمون) خوفامنكَ ..
لاحزنا عليك ..
ورغمكَ .. أقفلَ السرابُ على بيتِ صوتك
َشفتهُ ..
لتغني البلادُ بحبِّه ..
ويكتبَ ملحمته المزوَّرة كما يشاء ..
لا كما صنعتها أنت ..
لكنك تستحقُ كل َّما خانوك ..
وتستحقُ أن أقتلكَ الآن مرة ً ثانية ..
لكنني رضيتُ مثلكَ ..
أن أكونَ بعدكَ ..
لتكونَ للمرة الأولى ..
ولو في صفحة ٍ ستأكلها السنوات ..
بطلا لهذه الأسطورة الغافية ..

إلى/ الحلة نخلة لن ينالها الظمأ

جبّار الكوّاز

صغارا

الى الجنائن المعلقة

صعودا

الى عين شمسنا

لم تكن اصوات اسلافنا

سوى أنين حجارات قبورهم الدارسة

ولم تكن اشجارها

ايامى

ولا نارنجها

كأس خمر

ولا سواقيها

عيون نساء

نحن

لم نتقن الخوف

ولن ندع اسوارها حطبا في

مواقد حرّاسها الوثنيين

وغرانيقنا

الغاطسون في جبّ الطين

مسكوا سرّتها

بغناء الفواخت

وهجرة السنونو

وآذان افقها المجنون

بالألم

صعودا

الى قيدومها المكسور

الى اشرعتها الممزقة

الى عشتارها

وهي تلاعب الريح

بأرامل الرمال

الى مسمارها الضارب رقيمه

في اعناق أسراها

ووديان غاداتها

وعباءات نسوتها في تنور آب

صعودا

الى ارواحنا المطفئة

الى افئدتنا

وهي تغامر في كلمة غادرت

شفاهنا

نكاية ب(دار،داران، دور)

صعودا

اليها

الى مصائد لذتها

الى اسطبلات ذكرياتها

الى اوراقها

في دفاتر النسيان

اليها

اليها

صعودا

فلم نفكَر يوما

انّ صغارها اللاهين بأدراجها

كبروا

وهم يحدقون فيها

تلّ قمامة

فأشجارها عاقول

وثمارها ايتام

اضاعتهم الحروب

فضعنا بهم

وهي تستمع الى

وقع خطانا

صعودا

اليها

حيث لن تكون هناك

ولن نكونَ

حب عذري

سلام حربه

كان مسحورا بالسماء منذ طفولته.. يتأمل في الليل وجه القمر كرغيف خبز ابيض والنجوم كلآلأ ترصع شعر الظلام المجنون المنسدل بغزارة على اكتاف الكون..لا نبطل الحديث، وانا واياه لم نتجاوز العشر سنين، ونستلقي باسترخاء على ارض الحديقة الخضراء ياخذني سحر خياله في متاهة الظلمة وفي دروب رسمتها فطنته الماكرة نلملم مستعمرات ضوئية ونبعثرها نتأرجح بذيول نجوم متعبة ونستحم بضوء اخرى وننام في فراش نجمة خافتة ..يلهينا سراب رحلته اليومية بأجنحة طفولة بريئة عن نفسينا وعن الرطوبة التي تتسلق جسدينا من الحشائش وندى الليل كأسراب ديدان ضالة..

يلتفت الي ونظراته تبحر بعيدا..

- سأتعرف يوما على العلاقة بين الارض والقمر والنجوم..

مضى كل منا في طريق ..فانا تخرجت من كلية الهندسة واعمل حاليا في احد المعامل وانهى صديقي كلية العلوم قسم الفيزياء ومواظب على اتمام دراسته العليا ..ورغم كل بحار الألم والعوز والحروب التي ارغمنا على اجتيازها بقطع الانفس وغرق الكثير من احلام اقراننا في مستنقعات الفقر والموت واللاجدوى لكن، انا واياه، عبرنا بقدرة قادر تسوطنا ارادتانا الى ارض اشد صلابة ..فانا قد انشأت بيتا وعائلة وهو قد اقترن بحلمه الكوني وانجب مجرات تومض في مقلتيه.. لم تهن عزيمته وقطوف سعادته من سماء بعيدة .. لم يغفل يوما النظر الى حلمه،كنجمة الضحى،وهو يعبر سماءا زرقاءا محناة بخيوط الذهب ليستحيل اخر النهار ليلا اسودا مضفورا بجدائل فضة ويستدرج الحقيقة الى مداره يوما بعد يوم..

في احد الايام كان يقف في باب بيته ووجهه يشرق بالفرح كشمس صباح لعوب ..وقبل ان ابادله التحية اخذ بيدي وادخلني الى بيته دون ان ترتسم على وجهي اية تعابير فقد كان داخلي نظيفا من أي انفعال لكنه تخطط، رغما عني، بدهشة من سلوك لم أعتد عليه ..لم أفقه ما يدور بخلده تلك اللحظة وبرغم عمر علاقتنا الطويل واختلاط حدود قلبينا الا ان صداقتنا مسيجة بالندية وتزاحم خطى

متعرقة لكلينا على درجات مستقبل زلق يرتسم بعيدا بين مويجات سراب.. كنت منقادا اليه كمن أسلم مصيره الى قدر غامض..اجتزنا حديقة بيتهم الكبيرة وتوقفنا في غرفة منعزلة، لم ارها سابقا،شيدها في دراسته الجامعية يدجن فيها حلمه ووحدته، وهذا ما كان يخبرني به ..الغرفة مؤثثة بسرير منام مبعثر يترسب على وسادته وشرشفه وبطانياته نوم قلق وأرق رطب ..الغرفة تدوي كخلية زنابير ..فوق السرير تتدلى ارض صغيرة اكبر قليلا من حجم كرة القدم من يمد يده وهو مستلق على السرير قد يمسك قطبها الجنوبي البارد..الارض مضيئة كوجه انثى مفرطة التبرج تتكحل وتتحمر بتضاريسها من بحار ومحيطات ويابسه مغلفة بسماء زرقاء صافية تدور ببطء حول نفسها كراقصة باليه يراقصها، باعجاب، قمر فضي بوجه امير ينز عافية وتتعتق نظراته بالعاطفة والهيام مربوطان باسلاك ملونة الى دائرة كهربائية ويدوران الى ضوء ساطع، كحبة شمس، لا تقوى العين على مواجهته يتدلى من سقف الغرفة..تناثرت بين الارض والقمر نجوم صغيرة تلصف بطفولة وفرح مربوطة بخيوط، لا ترى، الى جهة ما..ما اراه الان امامي يسقط في داخلي كقطرة ماء تنقر في بئر عميقة ترتعش لها اوصالي كنت كمن ينظر الى هذه المجرة الصناعية من حلم بعيد..لا تفضحني سوى دهشتي وانا انظر بفم مفتوح الى رشاقة تلك الحركة الكونية الصغيرة..كانت نظرات صديقي تتأملني، وانا مفتون بما ارى،ودبق سعادته يلتصق على صفحة وجهي وفرحه يشع في الغرفة من مقايضتة حلم بلا جذر بحقيقة تغشي الابصار، ما أختزنته اعيننا من سماء شاسعة نلاحقها كلعبة شقية حين كنا صغارا وتتناسل قي ذاكرتنا الى الان وما سمعناه وقرأناه من حركة للارض والقمر حول الشمس وما اصطاده صديقي من ابحاره المتصل في كتب الفيزياء ومن اقتفاء رغبة مجنونة تبزغ له في كل لحظة استدرجها بذكاء الى قفص متعته في غرفته المسدلة الستائر، يشرق في سماء هذه الغرفة ..وقف امامي والزهو يلون ملامح وجهه..زفر بارتياح..

ـ الم اقل لك باني سأعاشر الارض والقمر والنجوم..

لم افق من هول ما ارى وعيناي تعاندان مفارقة ما تريان..ارض تلازم القمر وشواطىء رمل بلورية يغسلها الموج ويابسة تلونها افياء الاشجار وظلال الجبال وسماء مزحومة بضحكات النجوم كل هذه المتاهات الشاسعة المقرفصة في خيالي امسكها الان بيدي..ان في الحياة امورا اغرب من الفنتازيا وهذه تتشكل كأفانين السحر وشعوذة المنجمين في الغرفة المدوية بالحركة والترقب..التفت اليه والصدمة تتخيط لها ملامحي.. بادلت الفم بكلام عيني الشرهتين ولكنه الجم فضولي بنبرة صوته المشخوطة بالكبرياء..

ـ اتعلم يا صديقي ان هناك علاقة حب قوية بين الارض والقمر وهذا ما كنت اجهله في السابق .. فحين اسلم نفسي الى سكون الليل ويصمت ما حولي يخز منامي كل ليلة الهمس والكركرات والتنهدات الحارة بين الارض والقمر يتجاذبان اطراف الليل وساعات النهار في مد وجزر..يصمتان حين يلتحمان.. اصحو في الصباح، ان غافلني النوم، لاجد نجمة جديدة تتضاحك كطفلة عابثة مزروعة في سماء الغرفة..

لم يزدني كلامه الا ايغالا في الدهشة ولكي اخفف من طعم كلامه اللاذع بادرته قائلا..

ـ وهل الارض والقمر كائنان عاقلان..؟

اجاب بثقة ..

ـ نعم عاقلان..الارض انثى تلد كل يوم والقمر ذكر.. باشارة حانية منه تفرش سواحلها الشبقية لمد يغرقان فيه باللذة وفي ساعات اخرى يتخاصمان وبصرخة غضبى منه تلتم الارض على نفسها رعبا ويجزر ثوبها عن ساقيين شاحبتين معروقتين ولكنها تستلطفه طيلة ساعات النهار بنظرات ودودة يرق لها قلبه مع بداية خيوط الظلام..

خرجت من البيت وانا على يقين من ان صديقي يقف مسرورا على حافة الجنون ..ارض وقمر حبيبان ..؟ ماهذا الهراء ..كان ضحكي يسبق خطواتي في شوارع الحي ومن شاهدني على هذا الحال وقف متسمرا بالحيرة يصفق الاسف يده بالاخرى ..رثيت حال صديقي،وليس هذا بغريب عليه حيث ان الافراط في الفشل وامتطائه عنوة، كبغل هجين، قد يؤدي بصاحبه الى الهلوسة والنظر في الفراغ والسباحة في التهيؤات والتخاريف مما يبقيه سجينا في شرنقة الاوهام تلتف خيوطها عليه كل يوم فتعمي بصيرته، وهذا لا يكفيه، بل يحاول ان يكبلني بغبائه وينصب فخاخ مكائده الهوائية لنعوم سوية باكذوبة علاقة غرامية بين الارض والقمر وانجاب لبنين وبنات ..الا يدعونا مثل هذا الخيال الغريب ان نلتمس العزاء لصديقي وان نتضرع الى السماء ان تفل قيد الجنون من راسه..؟

باعدت بيننا سورة الايام فانا تستحوذ علي دوامة العمل الشاق في دائرتي ..كنت المح صديقي احيانا من بعد وهو يتابط كتبه الثخينة.. ويبدو مهموما وخط سيره مستقيم .. لا يفطن الى ما حوله وفي احيان كثيرة يلمحني من بعيد وعيناه تلتقيان بعيني ولكنه لا يرى سوى حقيقته الخرافية، لا ينتبه الى ايماءاتي ونداءاتي المتكررة خلفه ولن يلتفت اليها ..يبدو منشطرا يكلم نفسه ويلازم شبحا كظل ابيض معه وحتى مظهره فقد دب العطب فيه وتناثر شعر راسه كاسلاك متقطعة وازدحمت فوضى الالوان في ملابسه لوحة تجريدية من يراه يظن انه بنفس مبعثرة وشظايا لوعته تشتبك مع خطاه المتسارعة وتنز من نظراته اللائبة....

في صباح احد الايام الرتيبة طرق بابي

..كنت اتهيأ للخروج الى الدائرة ..وقف امامي بعيون محتقنه وجفون مائية من شدة الارق..القلق يبعثر حركات يديه والحيرة ترتجف في غضون وجهه..لم ابادر بالكلام وقد فرشت له ملامح وجه باردة شحبَتها نسائم صباح لم يلكها لعاب شمس،كي يحط عليها انفعاله المتطاير من عينيه واقتنص بعضا من اسراره الجديدة حين يفتح الهياج ذخائر النفس على مصراعيها فتتطاير مبثوثة توحل الفضاء بغرائبها وقد تنزع عن قشرتها غرائب اكبر ..نكس صديقي راسه ليداري خجلا مدفونا منذ طفولته تعثر الان في كلامه..

ـ اما زلنا اصدقاء..؟

ابتسامة ساخرة بلهاء نبتت على وجهي اومأت اليه ان يرفع راسه وحرضت ان يستقيم لسانه..

ـ اذن لماذا تتركني وحدي في محنتي..؟

اجبته بملامح منقبضة..

ـ اية محنة..؟

ـ لقد تخاصم القمر والارض ووصلت حياتهما الى طريق مسدود لم تنفع معهما كل توسلاتي.. منذ الليلة الماضية وصراخهما لم ينقطع ..الارض تبكي بحرقة ودموعها قد تغرق غرفتي ونجومهما مرعوبة ولاذ قسم منهم بالفرار..

اسلمت له يدي، بلا وعي، هذه المرة ايضا وجاهدت كي الحق بخطواته المتسارعة وانا بين الحلم واليقظة اذ قد يمتد حلم ليلة كابوسية، رغم اني لم اذق الحلم ليلة البارحة،الى نهار يوم جديد فيصليني، ربما،من الحيرة مثل ما اراه الان وانا احجل وراء طيف صديق مجنون..دخلنا الى بيته وقبل ان نصل الى غرفته بسريرها البائس الوحيد كان الصراخ من الغرفة قويا يصك الاذان وكل خطوة نخطوها باتجاه الغرفة يخفت الصوت ويخفت وحين دخلنا الغرفة داهمنا صمت قلق..القمر بوجه مزرق مكفهر والارض تدمع بغزارة وتنهدات حزينة تتكسر في داخلها وسماء الغرفة تطرزها نجوم قليلة ذابلة يرتعش الخوف في داخلها..خاضت اقدامنا بالماء واقتربنا من القمر كان وجهه الابيض مخططا بسواد ألم دفين..اقترب صديقي من القمر خطوات عدة وخاطبه بنبرة مثخنة بالرجاء وبملامح بائسة..

ـ لقد احضرت معي صاحبي الوحيد قد يستطيع ان يقرب بينكما..ارجوك لا تكن قاسيا لقد تقطعت نياط قلب الارض من البكاء..

التفت القمر الى صديقي وبنبرة ساخطة اجابه..

ـ وماذا يستطيع صاحبك ان يعمل..؟هل يقدر ان يعيد شباب الارض الذي انطفأ..؟ ياعزيزي ان الارض قد هرمت..انظر اليها لقد ابيض شعرها وتجعد جلدها وانطفأت جمرة الحياة فيها..لقد قفل رحمها ولن تنجب الانبياء بعد وابوابها قد اغلقت وانتهى التاريخ فيها..

اجابت الارض بكلام متقطع يختلط فيه البكاء..

ـ ما ذنبي انا ان شارفت على مرحلة الياس..اتبيع، بلا ثمن، حبي الجارف طيلة هذه الدورات والسنين..؟

زفر القمر زفرة عميقة انتصب شعر راسي لها..لم اعرف كيف اتصرف تلك اللحظة فقد ضاع رشدي مع ما تبخر من عقلي في اتون المفاجأة ولم يبق لي منه فسحة اتامل بها واعاين الامور من خلالها ..عجبا..! ارض وقمر يتكلمان ..؟ لا اتصور باني ساستعيد يوما صوابي واتكأ من جديد على اتزاني ..عذرت صديقي حين كان يمضي وحيدا يثرثر مع نفسه فالكلام حين لا يجد من يأويه في الرأس يظل يدور ويدور في الفم كما تجتر البقرة الطعام..ارتفع نحيب الارض وبدأت تندب حظها العاثر وتلطم على صدرها وتشرمخ خديها..لقد ادمى منظرها قلبي الراجف..التفتُ الى القمر وكلمته دون ان اعي ما اقول..

ـ ولكنها حبيبتك وقد قضيتما العمر سوية..كيف يهون عليك هجرها..؟

التفت الي وبلهجة زاجرة كمن يريد ان ينهي حديثا..

ـ انا ما زلت في ريعان الشباب والاناث يتغزلن بجمالي..لا اريد ان ادفن حياتي الباقية بكهولة منطفئة..

اشاح القمر وجهه الى الجهة الثانية..التفت الى صديقي ..لم يعد من جدوى وجودنا في هذه الغرفة الضاجة بأنين ونحيب الارض..شحب وجه الارض وعصفت بها غبرة صفراء وبان الغثيان على ملامحها..تقيأت بشدة وقذفت ما في جوفها من امواج بالسنة عالية بحجم نضوبها اغرقت سواحلها وطمرت المدن المستحمة بالبحار والمحيطات بدموع غضبها وابتلعت البشر والبنايات والشجر..كان هدير الموج يضرب جدران الغرفة وسقفها ويحشو اذاننا بالرعب ويغسل وجهينا بالوعيد..خرجنا من الغرفة مسرعين تلحقنا صرخات المياه وقد غمرت الغرفة وامتدت جدران المياه الشاهقة لتبتلع المدينة واحلامنا في جوفها، جثتها الباردة..

مطبوعات وصلتنا :

• كاظم فرج العقابي .. لا تبتئسي سيدتي ..مجموعة قصص قصيرة / دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع .
• الحزب الشيوعي العراقي / وثائق المؤتمر الوطني العاشر / بغداد 1 – 3 كانون الاول 2016 .. دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع .
• مواد محاضرات الدورات الفكرية المركزية / اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي / بغداد 2018 .
• د. حسن البياتي (ترجمة) ..حكايات اسطورية من شبه جزيرة القرم.دار ضفاف للنشر (الشارقة- بغداد 2019
• حبيب السامر.. على قيد الحب/ قصيدة.. دار المؤلف للنشر والطباعة والتوزيع.
• مهدي القريشي .. تجاعيد الماء / شعر .. 2018 / الناشر:الروسم للصحافة والنشر والتوزيع .
• عبد الرضا اللامي .. طبيعة الشخصية العراقية /2019 ..طبع في دار آوجي للطباعة والنشر .
• د. ضياء خضير .. سامي مهدي ناقدا .. دار ميزوبوتاميا ..طبع ..نشر..توزيع.
• مجلة الحوار .. مجلة تعني بقضايا التنمية وخيارات المستقبل في العراق ..تشرين الثاني - 2018 .
• د. عبد الامير الحمداني ..الكارثة ..نهب آثار العراق وتدميرها/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
• ابتهال الخياط .. عندما تنطق الصخور ..مجموعة قصصية كاملة / دار المتن للنشر والتوزيع 2018.
• ابتهال الخياط .. خريف الشرفات .. مجموعة شعرية كاملة / دار المتن للنشر والتوزيع 2018.